الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين والشريعة
والحضـــارة الإسلاميـــة
قسم الكتاب والسنة

الرقم الترتيبي:...../.....

رقم التسجيل:.....

الوحدة الموضوعية في سورة مريم

لنيل شهـــادة الماجستـــير شعبة الكتـــاب والسنـــة

تقديم الطـــالبة: حدة ســـــابق

أمام اللجنة	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	اسعيد عليوان	أستاذ محاضر	الأمير عبد القادر
المقرر(المشرف)	رمضان يخلف	أستاذ محاضر	الأمير عبد القادر
العضو	عامر عرابي	أستاذ مساعد مكلف بالدروس	لمسيلة

نوقشت يوم: 16 ربيع الأول 1424هـــ/ الموافق لـــ 18 ماي 2003م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــــــداء

إلى روح أبي الطاهرة..

إلى من أعطت لحياتي لونها البهيج.. أمي الباهية حفظها الله تعالى..

إلى والدي زوجي الكريمين..

إلى منارة الهدى و الضياء الكاشف.. إلى من لم يدخر وقتا،أو

جهدا لإخراج هذا البحث.. زوجي الأستاذ: مختار نصيره...

إلى من حولا حياتي إلى روضة غنّاء.. قرة عيني سلسبيل و عمران..

إلى أساتذتي الأفاضل: الدكتور: رمضان بخلفه..

الدكتور: نصر سلمان.. الأستاذ: حسان موهوبي..

إلى من أبت إلا أن تقاسمه الأم مكانتها.. خالتي الوحيدة مليكة

وابنتها يسمينة..

إلى رمز السماحة والعطاء... إلى من لا تنسى الخير إذا هاجمها شر..

شقيقتي حبيبة..

إلى لحن الرضا الرخيم.. شقيقتي سعاد..

إلى شقيقتي في بلد الغربة.. نزيهة ووردة..

إلى أخويّ مراد نور الدين.. و محمد النفس الزكية..

إلى ابن أختي مروان..

إلى أختي الفاضلة التي انطوى صدرها على كل معنى جميل، وإشارة

خير.. الأستاذة: حكيمة حفيظي.. وزوجها الدكتور: علاوة عنصر..

إلى كل من لقنني حرفا.. أو أسدى إلي بفكرة..

أهدي ثمرة هذا الجهد

ح. ســـــــابق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمـــــــة

إن الحمد لله، نحمده، و نستعينه، و نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومـــن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

حدود البحث وإطاره :

أنزل الله ﷻ القرآن هدى للناس ونورا ، وجعله دستورا شاملا ومصدرا جامعـــا ، وبين هذه الحقيقة في قوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .[1]

والمفسرون الأوائل منذ عهد النبي ﷺ عكفوا عليه بالتدبر ، والدراسة و الشـــــرح والتحليل ، و ذلك بتتبع ترتيب الآيات في سورها ، وهذا اللون قد يكون بالمأثور ، وقـــد يكون بالرأي ، والمفسر بهذا اللون من المناهج يبقى في فلك القرآن يبدأ بالآيات و ينتـــهي عندها .

وحكمة الله قضت أن كل كتاب يبلى مع الزمن وتتجاوزه الأحداث والتجـــارب إلا القرآن الكريم فإنه يتجدد بتجدد المتطلبات.

و أهم جديد في نظري هو تفسير القرآن الكريم موضوعيا؛لأنـــه أمثـــل مســـلك للتكفل بالإجابة على التساؤلات المختلفة التي يفرضها الواقع،وكذا بتذليل العقبات الـــتي يواجهها الدعاة لإقامة الأمة على المنهج القرآني الفريد.

فبالتفسير الموضوعي تتضح المسالك المثلى للهداية، والركائز الأساســـية لتحقيـــق وظيفة الاستخلاف في الأرض.

---

1 ــ النحل: 89

مقدمـــــــة

إن الحمد لله، نحمده، و نستعينه، و نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومـــن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

حدود البحث وإطاره :

أنزل الله ﷻ القرآن هدى للناس ونورا ، وجعله دستورا شاملا ومصدرا جامعـــا ، وبين هذه الحقيقة في قوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .[1]

والمفسرون الأوائل منذ عهد النبي ﷺ عكفوا عليه بالتدبر ، والدراسة و الشـــــرح والتحليل ، و ذلك بتتبع ترتيب الآيات في سورها ، وهذا اللون قد يكون بالمأثور ، وقـــد يكون بالرأي ، والمفسر بهذا اللون من المناهج يبقى في فلك القرآن يبدأ بالآيات و ينتـــهي عندها .

وحكمة الله قضت أن كل كتاب يبلى مع الزمن وتتجاوزه الأحداث والتجـــارب إلا القرآن الكريم فإنه يتجدد بتجدد المتطلبات.

و أهم جديد في نظري هو تفسير القرآن الكريم موضوعيا؛لأنـــه أمثـــل مســـلك للتكفل بالإجابة على التساؤلات المختلفة التي يفرضها الواقع،وكذا بتذليل العقبات الـــتي يواجهها الدعاة لإقامة الأمة على المنهج القرآني الفريد.

فبالتفسير الموضوعي تتضح المسالك المثلى للهداية، والركائز الأساســـية لتحقيـــق وظيفة الاستخلاف في الأرض.

---

1 ـــ النحل: 89

مقدمـــــــة

إن الحمد لله، نحمده، و نستعينه، و نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومـــن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

حدود البحث وإطاره :

أنزل الله ﷻ القرآن هدى للناس ونورا ، وجعله دستورا شاملا ومصدرا جامعـــا ، وبين هذه الحقيقة في قوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .[1]

والمفسرون الأوائل منذ عهد النبي ﷺ عكفوا عليه بالتدبر ، والدراسة و الشـــــرح والتحليل ، و ذلك بتتبع ترتيب الآيات في سورها ، وهذا اللون قد يكون بالمأثور ، وقـــد يكون بالرأي ، والمفسر بهذا اللون من المناهج يبقى في فلك القرآن يبدأ بالآيات و ينتـــهي عندها .

وحكمة الله قضت أن كل كتاب يبلى مع الزمن وتتجاوزه الأحداث والتجـــارب إلا القرآن الكريم فإنه يتجدد بتجدد المتطلبات.

و أهم جديد في نظري هو تفسير القرآن الكريم موضوعيا؛لأنـــه أمثـــل مســـلك للتكفل بالإجابة على التساؤلات المختلفة التي يفرضها الواقع،وكذا بتذليل العقبات الـــتي يواجهها الدعاة لإقامة الأمة على المنهج القرآني الفريد.

فبالتفسير الموضوعي تتضح المسالك المثلى للهداية، والركائز الأساســـية لتحقيـــق وظيفة الاستخلاف في الأرض.

---

1 ــ النحل: 89

و التفسير الموضوعي لا يعتبر بدعة ـــ كما يتصوره بعض الناس ـــ ؛ لأنه ما هـــو إلا لون من مناهج تفسير القرآن بهدف الوصول إلى أغراضه التربوية ، و معالم هدايته .

والبحث في الوحدة الموضوعية في سورة مريم يمثل حلقة من سلسلة هذا الإنجـــاز، فهو يكشف عن الموضوع الأساسي للسورة ،وذلك بالتفاف المحاور التي توضحها دروسها المختلفة.

أسباب اختيار الموضوع :

هناك عدة دوافع جعلتني أستقر على دراسة هذا الموضوع دون غيره ، نذكرهـــــا فيما يلي:

ـــ رغبتي الذاتية في دراسة كتاب الله تعالى و تدبر معانيه ، والغوص في مقـــاصده، وأهدافه البعيدة ، مما يقتضي دوام النظر في كتاب الله تعالى ، وهذا أعظم شرف لي .

ـــ اخترت البحث في التفسير الموضوعي ؛ لأنه أيسر طريق لتحقيق أهداف القرآن الكريم ، واستخلاص أغراضه التربوية .

ـــ ووقع اختياري لسورة مريم من سورة القرآن الكريم ،لإبراز وحدتها الموضوعية، لميلي الشديد لهذا السورة قبل أن أطأ عتبة البحث ، مع علمي أنه لا تفاضل بـــين ســـور القرآن الكريم .

ـــ وتأكدت رغبتي هذه حين بحثت في قسم الدوريات فلم أجد بحثا تناول هـــذا الموضوع بالشكل الذي أرغب في تحقيقه .

ـــ كما أحاول من خلال هذه الدراسة أن أسهم ببحث متواضع يـــثري مكتبـــة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

إشكالية البحث :

البحث في موضوع السورة يقتضي منا الوقوف مليا والنظر في المرحلة التي نزلت فيها ، و دراسة الملابسات المحيطة بها ، و الاستعانة بذلك للإجابة على إشكالية هذا البحث ، والمتمثلة في الاستفهامات القائمة على ما يلي :

- هل يمكن أن يكون لهذه السورة موضوع كلي واحد ، تندرج تحته كل المقاصد المستوحاة من مقاطعها ؟
- إذا كان وجود غرض كلي ترمي إليه سورة مريم أمرا ممكنا، فما هو هذا الغرض الكلي؟ و في أي مجال يندرج ؟ هل في مجال العقيدة أم الأحكام ؟
- ما هي المقاصد التي يمكن استخلاصها من المقاطع الجزئية للسورة ؟
- ما هي أوجه المناسبات التي تربط الآيات والمقاطع بعضها ببعض ؟
- وما هي أوجه المناسبات التي تربط مقاصد المقاطع بالموضوع الكلي للسورة ؟

أهداف البحث وآفاقه :

- نحاول من خلال هذا البحث تحقيق صورة واضحة لكل ما ينبغي استخلاصه من مقاصد وأهداف تعبر عن مهمة القرآن في التربية وتوجيه السلوك ، ومواجهة الباطل في جميع الميادين .
- إبراز عيّنة تطبيقية لهذا اللون من التفسير ،تبين إمكانية وجود وحدات موضوعية لكل السور القرآنية ، خلافا لما عليه بعض الباحثين من إنكارهم لهذا اللون من المناهج التفسيرية.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدراسات السابقة :

نستطيع النظر إلى الدراسات السابقة في هذا الموضوع من زوايا عدة :

الأولى ــ ظهرت البذور الأولى لهذا اللون من مناهج البحث في تفسير القرآن عند بعض المفسرين الأوائل :

الإمام فخر الدين الرازي (606هـ) كان له السبق في إبراز وحدة موضوع بعض سور القرآن الكريم ، لكنها تعتبر مجرد إشارات خفيفة ، لا تعطي فكرة واضحة لوحدة الموضوع في السور التي تناولها .

الإمام الشاطبي (790هـ) ، حيث أشار في كتابه "الموافقات في أصول الأحكام" إلى أهمية تحديد الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية ، وقام بدراسة تطبيقية لسورة "المؤمنون".

الإمام برهان الدين البقاعي (885هـ)، الذي أنجز تفسيره الرائد في التفسير الموضوعي، معتمدا في ذلك البحث على وجوه المناسبات، وأسماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

الثانية ــ هناك من تناول دراسة سورة معينة من القرآن الكريم دراسة موضوعية، مبرزا وحدتها الموضوعية، مثل: " الوحدة الموضوعية في سورة يوسف "، و " تأملات في سورة العاديات " لحسن محمد باجودة ، و" تدبر سورة الفرقان في وحدة الموضوع " لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، و "التفسير الموضوعي سورة البقرة أنموذجا" رسالة ماجستير من إعداد الطالبة: نورة بن حسن، تحت إشراف الدكتور أحمد رحماني بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة العقيد الحاج لخضر بباتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2000م/2001م.

الثالثة ــ فيما يتعلق بالدراسات في سورة مريم: في البداية لم أقف على من تناولها بالدراسة ، و تتبعت في سبيل ذلك كل دلائل الرسائل الجامعية القديمة والحديثة،وكان آخرها دليل الرسائل العلمية بالجامعة الإسلامية المسجلة والمناقشة بالمدينة المنورة من سنة (1396هـ) إلى غاية (1420هـ) ، الأمر الذي جعلني أسجلها كموضوع لمذكرتي. وبعد

أشواط من البحث والتقصي ، وقفت على ثلاث دراسات حرة منشورة ، تختلف عن غرض دراستي وطريقة تناول الموضوع ، أذكرها فيما يلي ،مع بيان ما تتميز به كل دراسة:

ـ "التوحيد والتنزيه في سورة مريم" للأستاذ عبد الحميد محمود طهماز ، وهو بحث صغير ، اتبع صاحبه أسلوب الإيجاز والاختصار في تحليل الآيات ، مع التساهل في الطرح،كما أن العناوين التي وضعها للآيات لا تفي بالغرض المطلوب من دراسة الآيات .

ـ " تفسير سورة مريم" للدكتور محمد البهي ، وهو بحث مختصر أيضا،أشبه ما يكون بالمقال ، بين فيه المؤلف المعنى الإجمالي لكل مجموعة من الآيات فقط ، و لم يزد على ذلك .

ـ " تأملات في سورة مريم" للدكتور حسن محمد باجودة ، و هو بحث يمتاز بالطول، و يغلب عليه فيما أرى الجانب التحليلي، والتركيز على ظاهرة التلاؤم الصوتي، و لم يكن الغرض من دراسته تحقيق وحده موضوع السورة.

المنهج المتبع في البحث :

و لتحقيق الغاية المرجوة من هذا البحث استعملت في مراحل البحث الوسائل الآتية:

ـ **القراءة المتأنية للسورة** عدة مرات ، وتدبر معانيها ، واستخلاص في كل مرة ما يتبادر إلى ذهني من المناسبات والقرائن والمعاني الخفية .

ـ **الاستقراء** : وذلك بتتبع كلام العلماء والدارسين لمعاني آيات السورة ، وما يرتبط بها من ملابسات و ظروف نزولها .

ـ **التحليل** : وذلك بتحليل الآيات ، وتتبع مفرداتها ، وفك غريبها ، معتمدة في ذلك مصادر التفسير التحليلي ؛ وهذه خطوة ضرورية لتحديد وحدة الموضوع في السورة.

ـــ **التركيب** :وذلك بربط العناصر والأفكار المستوحاة من الدراسة التحليليـــة ، وتركيبها في نسق جديد ، فتتبلور السورة في شكل مقاصد و أهداف تشـــكل حلقـات متصلة فيما بينها ليتولد منها الموضوع العام للسورة .

ـــ **الإحصاء** : وذلك بالنظر إلى بعض الألفاظ التي تكررت كثيرا ، وعدّها، وتدبر علاقتها بموضوع السورة . وفي سورة مريم ، هناك عـــدة ألفـــاظ أحصيتـــها ، مثـــل : "الرحمن"، و" الرحمة "، و"الرب" .

و قد اتبعت في توثيق المعلومات المنهج الآتي :

ـــ ضبطت الآيات في أصل البحث فقط، دون الهامش ، بالشكل علـــى الرســـم العثماني، وقد اعتمدت في ذلك على نسخة المصحف برواية ورش عن نـــافع، المطبـــوع بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة (1412هـــ) .

ـــ وعزوت الآيات الواردةفي البحث إلى سورها في الهامش ، مع بيان رقم الآية في السورة. إلا إذا كانت الآية أو الآيات من سورة مريم فإني تعمـــدت عـــدم عزوهـــا في الهامش، ولا فهرس الآيات؛ وذلك لكثرة تعاملي معها في البحث.

ـــ قمت بتخريج الأحاديث والآثار في الهامش من المصادر الحديثية ، و إذا كـــان الحديث مخرجا في الصحيحين، أو في كتب السنن الأربعة، فإني أكتفي بعزوه إليها فقـــط، إلا نادرا. و ذكرت في بيان موضعه : الكتاب الفقهي ، والباب ، و الجزء و الصفحـــة ، و رقم الحديث إن وجد .

ـــ وفي عزو الأقوال إلى أصحابها بدأت بذكر المؤلف ، ثم عنـــوان الكتـــاب ، ثم الجزء والصفحة.

ـــ و حرصا مني على الأمانة العلمية، فإني عزوت كل نص إلى صاحبه، وإذا وقـــع مني أي تغيير في النص، ولو كان طفيفا أشرت إليه في الهامش بقولي:"بتصرف".

ـــ وذكرت معلومات تحقيق ، ونشر كل كتاب في أول ذكر له في البحـــث، و في حالة وجود بعض معلومات الطبع دون بعض فإني أكتفي بما ذكر، دون ذكر ما نقـــص في ذلك ؛ إلا إذا انعدمت جميع معلومات الطبع فإني أشير إلى ذلك بقولي "دون معلومـــات طبع".

ـــ و اكتفيت في تراجم الأعلام بالمغمورين منهم حسب تقديري .

نقد المصادر :

القاعدة التي اعتمدتها ، و يعتمدها كل باحث في مثل هذه الموضوع هي مصـــادر التفسير التحليلي؛ لأنها هي التي تحوي المادة التفسيرية الأساسية، مثل: أسباب الـــنزول ، وجوه التسمية، مدلولات الألفاظ الغريبة، معنىالآيات، ووجوه الاختـــلاف فيـــها بـــين العلماء،كما تحوي تفسير النبي ﷺ لكثير من الآيات، وكذا ما أثر عن الصحابة والتابعين.

وقد اعتمدت أيضا في تفسير القرآن بالقرآن بتفسير " أضواء البيـــان في إيضـــاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الشنقيطي، و" التفسير القرآني للقرآن " لعبد الكريم الخطيب.

كما أن كتب التفسير بالرأي توفر لي جانبا آخرا يكاد ينعدم في النوع الأول من المصنفات، ويتمثل أساسا في أوجه الربط في السور والآيات القرآنية، فكثيرا ما تهتم بعلـــم المناسبات ، والذي به يتم توليد أفكار جديدة حول معاني الآيات و المقاطع التي تؤلـــف الغرض العام للسورة الواحدة.

و في مقدمة هذه التفاسير: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثـــاني" للألوسي ، و"التفسير الكبير" لفخر الدين الرازي، و"نظم الـــدرر في تناســـب الآيـــات والسور" للبقاعي.

أما من حيث الربط بين المقاطع ، وكيفية النظر إليها ، و البحـــث عـــن أوجـــه المناسبات المتعددة ، والاستفادة منها في إبراز الموضوع الرئيسي للسورة ، وكذا المقـــاصد الجزئية لكل مقطع ، فإن المصادر الأساسية في ذلك تتقدمها التفاسير المعـــاصرة، مثـــل: "التحرير والتنوير" لشيخ محمد الطاهر بن عاشور، و " في ظلال القرآن " لسيد قطب، و " في رحاب القرآن " للشيخ بيوض، وكذا مجموعة الأبحاث والدراسات المنشورة التي تهتـــم بهذا اللون من المناهج في التفسير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صعوبات البحث :

قد واجهت عدة صعوبات في تناولي لهذا الموضوع، في مقدمتها :

ـ جدة البحث بهذه الصورة في تفسير القرآن الكريم ، مما جعلني في كثير من الأحيان أتردد في تقديم بعض الخطوات أو تأخيرها .

ـ اختلاف العلماء و الباحثين في اعتماد بعض الوسائل في البحث الموضوعي للسورة القرآنية .

ـ صعوبة الكشف عن موضوع السورة لتميزه بالغموض، ولذلك فهو يتطلب عمق النظر،ورهافة الحس، و طول تدبر ، حتى يتسنى الوصول إلى وجه المناسبة بين الآيات، والمقاطع والدروس، والتي ـ أي المناسبات ـ تعتبر المسلك الوحيد للوصول إلى المحور العام للسورة. ولهذا أشار العلماء إلى صعوبة الخوض في علم المناسبات لهذا الغوض، كما وضحوا العلاقة التي تربط علم المناسبات بالتفسير الموضوعي وخاصة بوحدة الموضوع داخل السورة الواحدة.

وأنا في بحثي هذا سأستعين في إيجاد المناسبات بالمؤلفات التي عنيت بهذا الجانب مثل"نظم الدرر"،و"التحرير والتنوير"،"في ظلال القرآن" وغيرها من المؤلفات التي تهتم بالمناسبات في القرآن الكريم.

خطة البحث :

* **المقدمة** : تناولت فيها : حدود البحث وإطاره ، وأسباب تناول مثل هذا الموضوع، و إشكالية البحث ، وأهدافه ، و الدراسات السابقة ، والمنهج المتبع في البحث ، و المصادر الأساسية ، و الصعوبات التي واجهتها أثناء البحث ، و تفصيل خطة البحث .

* **التمهيد**: و تناولت فيه : مفهوم الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ، والمراحل التي ينبغي اتباعها لتحقيق هذا الهدف.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* **الفصل الأول ــ التعريف بسورة مريم** : و قسمته إلى ثلاثة مباحث

المبحث الأول ــ موقع السورة في القرآن وفضلها

المطلب الأول ــ ترتيب السورة وعدد آياتها

المطلب الثاني ــ فضل السورة

المبحث الثاني ــ نزول السورة

المطلب الأول ــ مكان نزول السورة

المطلب الثاني ــ زمان نزول السورة

المطلب الثالث ــ أسباب نزول بعض آيات السورة

المبحث الثالث ــ موضوع السورة

المطلب الأول ــ أسماء السورة

المطلب الثاني ــ مناسبة السورة لما قبلها وبعدها

المطلب الثالث ــ ملابسات نزول السورة

المطلب الرابع ــ نظرة المفسرين لموضوع السورة

المطلب الخامس ــ تحديد موضوع السورة من خلال المطلع

* **الفصل الثاني ــ مظاهر رحمة الله لخواص عباده وأسبابها**

المبحث الأول ــ مواهب الله تعالى لعبده زكريا عليه السلام

المطلب الأول ــ زكريا عليه السلام أنموذج لكمال العبودية

المطلب الثاني ــ صفات الرضا في يحي عليه السلام

المبحث الثاني ــ آية الله ورحمته في عيسى عليه السلام

المطلب الأول ــ تمام قدرة الله تعالى في ولادة عيسى عليه السلام

المطلب الثاني ــ اعتراف عيسى عليه السلام لنفسه بالعبودية و لربه بكمال الإنعام

المطلب الثالث ــ تقرير ربوبية الله تعالى وتنزهه عن الولد

المبحث الثالث ــ دعوة إبراهيم الخليل إلى إفراد الرحمن بالعبادة

المطلب الأول ــ حكمة إبراهيم في التوجيه إلى ضرورة نبذ الشرك

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني ــ مقابلة آزر نعمة التوحيد بالكفر والعناد

المطلب الثالث ــ مواهب الله تعالى لعبده إبراهيم عليه السلام

المبحث الرابع ــ نعم الله تعالى على عباده موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام

المطلب الأول ــ نعم الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام

المطلب الثاني ــ نعم الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام

المطلب الثالث ــ نعم الله تعالى على نبيه إدريس عليه السلام

المطلب الرابع ــ آثار إخلاص العبادة لله وحده

* **الفصل الثالث: رحمة الله في بشارة المتقين ونذارة الكافرين**

المبحث الأول ــ علامات الرحمة في إخلاص العبادة لله وحده

المطلب الأول ــ معالم الغي ومعالم الرشد

المطلب الثاني ــ إقرار الملائكة بربوبية الله تعالى وشمول علمه

المبحث الثاني ــ حقيقة البعث والنشور و موقف الكافرين منه

المطلب الأول ــ إثبات حقيقة البعث والنشور

المطلب الثاني ــ استدراج الكافرين بالنعم الظاهرة

المطلب الثالث ــ تهكم الكافرين بنعم الله واستخفافهم بالبعث

المبحث الثالث ــ تجلي رحمة الله في الوعد والوعيد

المطلب الأول ــ كمال العبد في عبادة الله وحده

المطلب الثاني ــ التشنيع بمن اتخذ لله ولدا

المطلب الثالث ــ "التبشير والإنذار" رسالة القرآن الكريم

***الخـــاتمة:** ذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

* **الفهارس:** ذيلت هذا البحث بمجموعة من الفهارس، التي لا يستقيم البحث العلمـــي دونها، وهي: فهرس الآيات، وفهرس الأحاديث، وفهرس المصادر والمراجـــع، وفـــهرس الموضوعات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــــــــد

إن تحليل المصطلحات أمر يكاد يكون ضروريا في مقدمة كل عمل يخضع لشروط البحث العلمي، ولهذا يحسن بنا أن نستهل هذا البحث بتمهيد نوضح فيه مفهوم التفسير الموضوعي ، وألوانه، مع التركيز في ذلك على الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

أولا ــ مفهوم التفسير الموضوعي :

التفسير الموضوعي لون من تفسير القرآن الكريم ، ظهرت لبناته الأولى منذ عهد النبي ﷺ [1]، إلا أن هذا المصطلح بهذا التركيب الإضافي لم يشتهر إلا عند الباحثين والدارسين المعاصرين .

وتناوله الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد بالتعريف ، فبعد تحليله لجزئيه ، عرف "التفسير الموضوعي" كمركب وصفي ، فقال :« هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى وغاية ، عن طريق جمع آياتها المتفرقة ، والنظر فيها على هيئة مخصوصة ، لبيان معناها ، واستخراج عناصرها ، ورباط بعضها ببعض ».[2]

فالدكتور سعيد قيد تعريف التفسير الموضوعي بقضايا القرآن الكريم ، وهي الموضوع المتناول، وقد ضبطه بقوله :« القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن

---

1 ــ وذلك في صورة تفسير آيات القرآن بآيات أخرى ، فيتم بذلك تجميع مجموعة من آيات الموضوع الواحد في موضع واحد يفسر بعضها بعضا . كما روى البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الأنعام 59 . فقال : " مفاتح الغيب خمس ، ثم قرأ : (إن الله عنده علم الساعة ، ويترل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم قدير) " لقمان :34 . البخاري : الصحيح . التفسير .باب (إن الله عنده علم الساعة) لقمان :34 . ضبط وترقيم مصطفى ديب البغا . دار ابن كثير ودار اليمامة ،دمشق .ط1(1414هـ ــ 1993م) . 1793/4 ح 4499 . من عبد الله ابن عمر. وانظر تفصيلا أكثر في هذا الموضوع : مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي . دار القلم . دمشق . ط2 (1418هـ ــ 1997م) .ص 17 ــ 22

2 ــ عبد الستار فتح الله سعيد: المدخل إلى التفسير الموضوعي . دار التوزيع والنشر الإسلامية . مصر ط2 (1400هـ ــ 1991م) . ص 20

الكريم، ولها وجهة واحدة تجمعها عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة » [1].وعلى هذا يكون تعريفه مخصوصا بلون واحد من ألوان التفسير الموضوعي ، وهو الوحدة التجميعية فقط.معتبرا في ذلك وحدة المعنى والهدف .

وقد ذكر هذا التعريف الدكتور مصطفى مسلم ضمن عدة تعاريف للتفسير الموضوعي ، ورجح التعريف الذي يشمل لوني التفسير الموضوعي، فقال:« وقيل هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر »[2]، ثم قال :«ولعل هذا التعريف الأخير هو الأرجح لخلوه من التكرار ،ولإشارته إلى نوعيه الرئيسيين » .[3]

واعتبار هذا اللون من التفسير منهجا أولى من اعتباره علما؛ لما يقتضي هذا الأخير الاستقلالية التامة عن غيره ، والتفسير الموضوعي ليس كذلك .

ويلتقي الأستاذ محمد باقر الصدر مع الدكتور سعيد في تقييد التفسير الموضوعي بوحدة الموضوع في صورته التجميعية ، وفي وحدة الهدف والغاية .إلا أنه استعمل في ذلك مصطلح " التفسير التوحيدي " بدل "التفسير الموضوعي " . وذكر أن هذا النوع من التفسير يحاول القيام بالدراسة لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية ، أو الاجتماعية ، أو الكونية ، فيبين ويبحث ويدرس مثلا عقيدة التوحيد في القرآن ،أو يبحث عقيدة النبوة في القرآن ، أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن ، أو عن سنن التاريخ في القرآن . ثم قال: « ويستهدف التفسير التوحيدي أو الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم » .[4]

وتعرض الشيخ محمد الغزالي لتعريف التفسير الموضوعي فتناوله من زاويتين تعتبر كل منهما لونا من ألوان التفسير الموضوعي .

---

1 ــ عبد الستار فتح الله سعيد : المدخل إلى التفسير الموضوعي . ص20

2 ــ مباحث في التفسير الموضوعي .ص 16

3 ــ المصدر والصفحة السابقين . و يقصد بالنوعين الرئيسيين : الوحدة الموضوعية في القرآن، والوحدة الموضوعية في السورة .

4 ــ محمد باقر الصدر : مقدمات في التفسير الموضوعي . دار التوجيه الإسلامي . بيروت . ص13

أما الأول ــ « يتناول السورة كلها يحاول رسم " صورة شمسية " لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرهـــا ، وآخرها تصديقا لأولها.

لقد عنيت عناية شديدة بالموضوع الواحد في السورة ،وإن كثرت قضاياها».[1]

والثاني ــ « هو تتبع المعنى الواحد في طول القرآن و عرضه وحشـــده في ســـياق قريب ، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس ».[2]

فالتعريف الأول باعتبار وحدة الموضوع في السورة، بينما الثاني باعتبار الوحـــدة التجميعية .

ثانيا ــ ألوان التفسير الموضوعي :

1 ــ التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني:

يقوم الباحث في هذا اللون بتتبع لفظ ومفردة قرآنية معينة ، ويستخرج الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح ، ويرتبها وينظر فيها بتدبر ، ويستخلص كل الدلالات القرآنيـــة المتعلقة بهذا المصطلح .

وكثير من المصطلحات تصلح لهذا اللون من التفسير الموضوعي ، مثل : الربـــا ، واليهود ، وأهل الكتاب ، الصدقة ، والزكاة ، وغيرها .[3]

وتعد كتب غريب القرآن ، والأشباه والنظائر بمثابة اللبنات الأولى لهذا اللون مـــن الدراسة،مثل:"المفردات في غريب القرآن " للراغب الأصفهاني ، وكتاب " إصلاح الوجوه والنظائر " للدمغاني ، إلا أنها « بقيت في دائرة دلالة الكلمـــة في موضعـــها. ولم يحـــاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور ، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائـــرة الدلالـــة

---

1 ــ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . دار بغدادي للطباعة . الرويبة . الجزائر . ص 5

2 ــ المصدر السابق . ص 6

3 ــ فصل في هذه المسألة :مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي .ص 23 ــ 27 . وصلاح عبد الفتـــاح الخالدي : التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق . دار النفائس . الأردن ط1 (1418هـــ ــ 1997م) . ص 52 ــ 56

اللفظية ».[1]

2 ــ التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

هذا اللون من التفسير الموضوعي هو أشهرها ، بحيث « إذا أطلق اسم التفسير الموضوعي ، فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه ».[2]

ومعناه أن يقوم الباحث باختيار أحد الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم ، ويستخرج الآيات التي تناولته ، ويدرسها مجتمعة ، ويستخلص منها الأحكام والحكم المختلفة .

ومن بين المؤلفات التي تناولت هذا اللون من التفسير الموضوعي : كتب إعجاز القرآن ، و الناسخ والمنسوخ ،وأحكام القرآن ، والمصنفات التي تعنى بموضوع القيامة والبعث والحساب في القرآن ، ويدخل في هذا اللون أيضا الموضوعات المختلفة المعاصرة بغرض معرفة نظرة القرآن فيها ، «و لا تكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات ، بل كلما جدت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن ما يشبع فكره اقتناعا ، وقلبه طمأنينة، من عرض القرآن الكريم لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن ».[3]

3 ــ التفسير الموضوعي للسورة القرآنية:

اختلف الباحثون في تسمية هذا اللون من التفسير الموضوعي ، فهناك من أطلق عليه "الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية" [4]، وذهب فريق ثان إلى إطلاق " التفسير الموضوعي للسورة القرآنية"[5]، وذهب ثالث إلى تسمية " التفسير الموضوعي الكشفي ".[6]

---

1 ــ مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي .ص 23

2 ــ المصدر السابق. ص 27

3 ــ المصدر السابق .ص 28

4 ــ رفعت فوزي عبد المطلب : الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية .مقال . مجلة رسالة التربية . كلية التربية بالمدينة المنورة .عدد 2 (1397هـ ــ 1977م) . ص11

5 ــ مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي .ص 28 . وصلاح عبد الفتاح الخالدي . التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق . ص 56

6 ــ أحمد رحماني : التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا . منشورات جامعة باتنة . الجزائر .ص56

وقبل الخوض في خصائص هذا اللون ومنهج البحث فيه ، يستحسن تناول تعريف الوحدة الموضوعية ، وتوضيح الفرق بينها وبين الوحدتين الفنية والعضوية .

مفهوم الوحدة الموضوعية:

الوحدة لغة : الوحدة في معنى التوحد ، وتوحد برأيه تفرد به ، والوحدة الانفراد. [1]

و« يطلق الواحد على كل موجود حتى أنه ما من عدد إلا و يصح أن يوصف به ، فيقال: عشرة واحدة ،ومائة واحدة ... فالواحد لفظ مشترك » [2].

وذكر الأستاذ محمد علي النجار أن « الناس يستعملون الوحدة في مكان الاتحاد ، أي اسم مصدر له، و لا ينطقون بفعل ثلاثي ، وإنما ينطقون بالفعل من الاتحاد ».[3]

الموضوع لغة : من وضع ، والوضع أعم من الحط . [4]

الوحدة الموضوعية كمركب وصفي :

هي « اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثرا ، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة ، كما نقول بعبارة أخرى " وحدة الموضوع " ».[5]

مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم :

تناول الدكتور حجازي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم بالتعريف، فقال: «البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها

---

1 ــ ابن منظور : لسان العرب المحيط . إعداد وتصنيف : يوسف خياط . دار الجيل ، و دار لسان العرب . بيروت. (1408هـ ــ 1988م) . 888/6

2 ــ الراغب الأصفهاني :المفردات في غريب القرآن . تحقيق : محمد سيد كيلاني . دار المعرفة . بيروت .ص 514

3 ــ محمد علي النجار : لغويات . مقال . مجلة الأزهر . عدد رمضان سنة (1377هـ) . مج 29 / ص 866

4 ــ الراغب الأصفهاني .المفردات . ص 525

5 ــ محمد محمود حجازي : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم . مطبعة المدني . القاهرة . (1390هـ ــ 1970م). ص33

من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقق الهدف، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ».[1]

وهذا التعريف يصدق على التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، أو ما يسمى بالوحدة التجميعية[2]، ولا يشمل غيره من الألوان الأخرى .

الفرق بين الوحدة الموضوعية والوحدة الفنية والعضوية :

حتى لا تتداخل المفاهيم يقتضي منا التعريف بالوحدة الموضوعية تناول الفرق بينها وبين المصطلحات الأخرى المشابهة لها، كالوحدتين الفنية والعضوية.

وهذه المصطلحات متداولة كثيرا في الدراسات النقدية الأدبية في تحليل النصوص النثرية والشعرية . ويقصد بالوحدة الفنية : « وحدة الأثر الجمالي الذي يتركه [النص و] الشعر على القارئ».[3]

والوحدة العضوية هي « انسجام الأجزاء التي ركب منها البناء العام للنص أو القصيدة ...بحيث تكون جميعها وحدة متكاملة ...وهذا المفهوم لا يتحقق إلا إذا توفر شرطان : وحدة الباعث أو الدافع ، ووحدة الغاية أو الهدف ».[4]

الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية :

إن النظر إلى السورة القرآنية كوحدة تشكل موضوعا واحدا، أو متحدا من عدة عناصر جزئية ، ليس وليد الأزمان المتأخرة أو المعاصرة بل تمتد جذوره إلى عهد الإمام فخر الدين الرازي الذي حاول الوقوف على موضوع مجموعة من سور القرآن في تفسيره؛ إلا أن هذا العمل لا يعدو محاولة أولية، « إذ لم يتتبع موضوعات السورة على امتدادها

---

1 ــ محمد محمود حجازي : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم . ص33 ــ 34

2 ــ انظر : أحمد رحماني : التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا . ص 31 ــ 32

3 ــ محمد نويهي: الشعر الجاهلي . منهج في الدراسة وتقويمه . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة . بتصرف. 437/2

4 ــ المصدر السابق . بتصرف . وقد فصل في هذه المسألة الدكتور محمد مصايف . جماعة الديوان في النقد . دار البعث قسنطينة . الجزائر . 281 ــ 310

ويربطها ببعضها ، فضلا عن ذلك لم يفعل هذا إلا في قليل من السور. ولكنها بداية طيبة، إذ نبه إلى أن هناك علاقة بين بداية السورة ونهايتها[1]».[2]

ثم أبرز هذا المنهج الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات ، حيث ذكر أن سور القرآن الكريم منها ما يحوي موضوعا واحدا ، ومنها ما يحوي موضوعات عدة ، قال : « إن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار ، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت ، وعليه أكثر سور المفصل ، وتارة يكون متعددا في الاعتبار ، بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة ، كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، و اقرأ باسم ربك ، و أشباهها ، ولا علينا أنزلت السورة بكاملها دفعة واحدة أم نزلت شيئا بعد شيء ».[3]

وقال:« فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها ... وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[4] نازلة في قضية واحدة. وسورة اقرأ نازلة في قضيتين: الأولى إلى قوله : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[5]. والأخرى ما بقي إلى آخر السورة. وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة، وإن اشتملت على معان كثيرة ».[6]

---

1 ــ كما صنع ذلك في مقدمة تفسيره لسورة النساء ، قال : " اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف ، وذلك لأنه تعالى أمر الناس في أول هذه السورة بالتعطف على الأولاد والنساء والأيتام ، والرأفة بهم ، وإيصال حقوقهم إليهم ، وحفظ أموالهم عليهم ، وبهذا المعنى ختمت السورة ، وهو قوله : (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) . وذكر في أثناء هذه السورة أنواعا من التكاليف ،وهي الأمر بالطهارة والصلاة وقتال المشركين . ولما كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطباع لا جرم افتتح السورة التي لأجلها يجب حمل التكاليف الشاقة ،وهي تقوى الرب الذي خلقنا ، والإله الذي أوجدنا ، فلهذا قال : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) " . فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير . دار إحياء التراث العربي . بيروت . 157/9

2 ــ رفعت فوزي عبد المطلب : الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية . ص 16

3 ــ أبو إسحاق الشاطبي : الموافقات .دار الفكر . 249/3

4 ــ الكوثر :1

5 ــ العلق : 5

6 ــ الشاطبي : الموافقات . 250/3 ــ 251

وللإمام جلال الدين السيوطي لطائف في كتابه " الإتقان "، حيث أشـــار إلى أن للسورة القرآنية غرض تنفرد به و سيقت لأجله ، وذلك في نقله عن بعض المتأخرين[1] :

« الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الـذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتـــب تلك المقدمات في القرب و البعد من المطلوب،وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغـــة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن علـى حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آيـة وآية في كل سورة ».[2]

و بهذا يكون قد بين أهم خصائص هذا اللون من التفسير ، إذ المناسبات التي تربط الآيات بعضها ببعض هي أهم بنيات البحث على الوحدة الموضوعية في السورة ، ثم اتبـع ذلك بذكر نماذج توضيحية تبين مناسبة مقدمات السور لخواتمها [3] . وهذا الصنيع «يشير إلى أن السورة وحدة لا تتجزأ في موضوعها بدليل بدايتها بموضوع ونهايتها به ».[4]

وممن تناول هذا المنهج بالبيان الدكتور حجازي ، وذلك في سياق ذكره لجـــهود المتقدمين في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم ، قال : « و لم تر إلا القليل نظر في السـورة نظرة عامة يعرف بها المقصود منها لأول وهلة ، مع بيان أغراضها جملة ، وربـــط بعـض آياتها ببعض حتى تظهر السورة في صورة متكاملة متناسقة تامة ... وهي في منتهى الدقـة والإحكام ».[5]

---

1 ــ يقصد بقوله : "بعض المتأخرين " أبا الفضل محمد البحائي المالكي شيخ الإمام البقاعي ، وقد نقل نصه كـاملا البقاعي في كتابه : "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ". دار الكتـــب العلميـة.بـيروت . ط1(1415هـــ ــ1995م). 1/18 ــ 19

2 ــ الإتقان في علوم القرآن. دار المعرفة . بيروت .141/2.

3 ــ منها : قوله : " و في سورة ن بدأها بقوله: (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وختمها بقوله: (إنه لمجنـون) " . انظر : المصدر السابق . 2/ 142 ــ 143

4 ــ رفعت فوزي عبد المطلب: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية . ص 19

5 ــ الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم . ص 23 ــ 24

وهذا لا يعني أنه يقر بهذا اللون من المناهج ، ولهذا كان بحثه " الوحدة الموضوعية في القرآن " متجها للتفسير الموضوعي لموضوع قرآني ، أي الوحدة التجميعية .

وانطلق الدكتور محمد عبد الله دراز لتبرير قناعته بوجود الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية من خلال تطبيق عملي على سورة البقرة ، والتي انتهى في آخرها إلى القول : « تلك هي سورة البقرة ، أرأيت وحدتها في كثرتها ، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير لماط يمسكها ، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها و صدرها وأحشائها و أطرافها ، ولا أقول أحسن دمية ، بل أجمل صورة حية ».[1]

و بين أن هذا العمل العلمي يتطلب دقة بالغة وتركيزا ودراية ، و لذلك ليس من السهل أن يتناوله كل باحث ، يقول بهذا الصدد : « والواقع أنه قد يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية ، أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها ببعض أو بينها وبين النواة المركزية للسورة ».[2]

و تأسى بهديه الشيخ محمد الغزالي في كشف وحدة موضوع السورة القرآنية ، في كتابه "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم " ، إذ اعتنى بإبراز الموضوع الأساسي للسورة حتى وإن طالت وتشعبت عناصرها ، قال :« لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة ، وإن كثرت قضاياها ، وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة ــ وهي أطول سورة في القرآن الكريم ــ فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة ، يعرف ذلك من قرأ كتابه " النبأ العظيم " ، وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد ».[3]

والأستاذ سيد قطب وضح هو الآخر في مقدمة كل سورة في كتابه " في ظلال القرآن" الغرض العام الذي تدور حوله ، والعناصر الجزئية التي يتشكل منها هذا الغرض. وإذا حدث تطابق الموضوع في سورتين أو أكثر فإن كل سورة تتناوله من زاوية خاصة .

---

1 ــ محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم . دار القلم . مطبعة مليجي . القاهرة . ص210

2 ــ المصدر السابق . ص210

3 ــ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص 5

وهذه الدراسات التي تناولها العلماء والباحثون ـــ الذين سبق ذكرهم وغيرهم ـــ، تثبت جدية هذا اللون من التفسير ، وأنه ضروري لرؤية مستوعبة ومتكاملـــة للســورة القرآنية .

و في مقابل هؤلاء الذين أقروا حقيقة هذا اللون من المناهج التفسيرية وأهميته ، نجد من الباحثين من أنكره كالدكتور فتح الله سعيد الذي اعتبره من الأخطاء التي يقع فيـــها الباحثون ، وذلك في قوله : « ... وبذلك يتجنب الأخطاء التي يقع فيـــها كثـير مـن الباحثين ، حين يكتبون تحت هذا العنوان ما لا يمت له بصلة ، كتفسير السور المكية الذي نشر تحت عنوان " التفسير الموضوعي للقرآن" ... وكذلك يتجنب المفسر الكتابة تحـــت هذا العنوان فيما يسمى " بالنظام في القرآن " أو " الوحدة الموضوعية في القرآن " ونحوه ، أو " علم المناسبات " ؛ لأن هذه الجوانب مع جلالتها وأهميتها ، لكنـــها خارجـــة عـــن مصطلح " التفسير الموضوعي " ...».[1]

منهج البحث في الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية :

لاكتشاف وحدة موضوع سور القرآن الكريم خطوات منهجية ينبغـــي مراعاتهـــا ليحقق البحث ثماره المرجوة .ونفصلها فيما يلي :

أولا ـــ مدخل للسورة :

وذلك بأن يتقدم تفاصيل دروس السورة مدخل يتناول فيه الباحث القضايا الآتية :

1 ـــ الترتيب المصحفي والترتيب النزولي للسورة ، وعدد آياتها .

2 ـــ ما صح من الأحاديث والآثار في فضل السورة وما اختصت به .

3 ـــ بيان أسباب نزول السورة إن كانت نزلت دفعة واحدة بسبب ، أو بعـــض مقاطعها ،إن نزلت متفرقة لمناسبات متفرقة ؛ لأن « معرفة أسباب الـــنزول تعـــين علـــى التعرف على هذا النظام الذي يجمع عقد السورة أو المحور الذي تدور حوله السورة ».[2]

---

1 ـــ المدخل إلى التفسير الموضوعي . ص 57 ـــ 58

2 ـــ مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي .ص 41

ثانيا ــ التعرف على الموضوع الأساسي للسورة :

ويستعين الباحث في ذلك بالوسائل الآتية :

1 ــ دلالة الاسم التوقيفي للسورة، وإن ثبت لها أكثر من اسم توقيفي عن النبي ﷺ ، فيتم بيان وجه تسميتها بذلك ، وربط ما استخلصه بمحتوى السورة .

و أضاف الدكتور الخالدي إلى أسماء السورة الأسماء الاجتهادية سواء أطلقها العلماء السابقون عليها ، أو كانت من إدراك الباحث المتمرس ، ويبحث عن العلاقة بينها وبين موضوع السورة كما هو الأمر في الأسماء التوقيفية .[1]

وهذا الذي قرره الإمام برهان الدين البقاعي ، حيث بين « أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر العلاقة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه...فأذكر المقصود من كل سورة ، وأطبق بينه وبين اسمها ».[2]

2 ــ ربط السورة بما قبلها من السور حسب ترتيب المصحف ، من حيث تناسب الموضوع العام لكل منها ... والاستعانة في ذلك بكلام الإمام البقاعي في تفسير " نظم الدرر ".[3]

وهذه المرحلة زادها الخالدي على المراحل التي ذكرها مصطفى مسلم، واتخذ من صنيع البقاعي دليلا له.

3 ــ ومما يساعد على استشراف موضوع السورة التعرف على ملابسات نزول السورة ؛ لأن طبيعة المرحلة تحدد الإطار العام الذي نزلت السورة لمعالجته، و ذلك « أن السور المكية أكدت على تقرير أربعة أمور : الإيمان بالله وحده ، والإيمان بالبعث، والإيمان بالرسالات السابقة، والدعوة إلى أمهات الأخلاق ، فإذا كانت السورة مكية فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها هذه الأسس الأربعة مجتمعة أو متفرقة .

والسور المدنية بالإضافة إلى تقرير ما سبق استهدفت بناء المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة كما استهدفت حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية ...فلا تخلو سورة مدنية من قضية

---

1 ــ انظر:التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق . ص 73

2 ــ نظم الدرر . 18/1 ــ 19

3 ــ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق . ص 74

البناء، أو الصيانة والحماية ، فيمكن التعرف على الهدف الأساسي... من خلال المرحلة الزمنية لتطور المجتمع الإسلامي ».[1]

4 ــ ويمكن الاستعانة في معرفة موضوع السورة بتكرر الألفاظ فيها ، وهذا مسلك استعان به الشيخ محمد الغزالي كثيرا في الكشف عن المحور الرئيسي لكثير من سور القرآن ، فمثلا عند تحقيقه في موضوع سورة "آل عمران" ، يقول ــ مؤكدا دور التكرار ــ « ولكي نستكشف المحور الذي تدور عليه السورة نوجه النظر إلى كلمة تكررت سبع أو ثماني وتسع مرات في هذه السورة ، هي مفتاحها ، هذه الكلمة هي ﴿آيَاتُ اللهِ﴾ ».[2]

5 ــ دلالة المطلع على موضوع السورة : وهذا مسلك استعمله كثير من العلماء والباحثين ، منهم الشيخ محمد الغزالي الذي استعان بالمطلع في تحديد بعض المحاور الرئيسية لبعض السور كما صنع ذلك في مقدمة سورة النساء ، حيث ذكر أن « محور السورة كلها العلاقات الاجتماعية، وضرورة إحكامها وتسديدها. وبدأ التنبيه إلى ذلك من مطلع السورة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[3] ».[4]

كما استعمل هذا المسلك أيضا الدكتور رفعت فوزي في كل السور التي أبان عن مواضيعها، وكشف عن وحدة محورها ، فمثلا عند دراسته لسورة الحج قال: « سورة الحج تعالج موضوع الطاعة لله الذي أنعم وتفضل ، طاعة تصل إلى درجة التقوى والمراقبة كي ينجو الناس من عذاب ربهم .ولهذا تبدأ بمخاطبة الناس جميعا وأمرهم بهذا الموضوع ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾[5] » .[6]

---

1 ــ مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي .ص 42 ــ 43

2 ــ خطب الشيخ محمد الغزالي . إعداد عبد الحميد قطب . مكتبة رحاب . الجزائر . 162/3

3 ــ النساء : 1

4 ــ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص47

5 ــ الحج : 1

6 ــ الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية . ص 38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7 ــ ومما يمكن الباحث الوصول إلى الوقوف على غرض السورة هــو النظــر في مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها، وقد أبدع القدماء كالإمام الزمخشري في هذا الجـــانب، إذ وقف على العلاقة بين فاتحة وخاتمة بعض السور ، فمثلا في سورة المؤمنين أشار إلى علاقــة التضاد بين الفاتحة والخاتمة ، قال: « جعل الله فاتحة ســورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[2] فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة » .[3]

وعد الإمام بدر الدين الزركشي هذا من أسرار القــرآن الكريم وخصه بفصــل في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، قال :[فصل في مناسبة فواتح السور و خواتمها] .[4]

وأجاد الإمام البقاعي في إبراز العلاقة بين الفواتح والخــواتم في تفســيره " نظــم الدرر". كما أفرد الإمام السيوطي مؤلفا في هذا اللون من التناسب سماه " مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع " . [5]

6 ــ ويساعد على معرفة موضوع السورة أو أهدافها الرئيســـية أيضــا تدبــر الأحداث البارزة، واستعراض القضايا الأساسية التي تناولتها السورة ؛ لأنه أحيانا يصعــب على الباحث إدراك الخيط الرابط بين أجزاء السورة من خلال تدبر اسم السورة أو تــأمل أسباب النزول . فيجد في هذا الاستعراض ما يطمئن إليه القلب ليكون الغرض الأساســي الذي يجمع العناصر المتعددة للسورة الواحدة. [6]

ثالثا ــ تقسيم السورة إلى مقاطع :

وذلك حسب العناصر التي تشخصها السورة ، و يدرس كل مقطع أو فقرة علــى حدة و تستخرج الدروس و الهدايات الممكن استخراجها ، وحتى يتمكن البــاحث مــن

---

1 ــ المؤمنون : 1

2 ــ المؤمنون : 118

3 ــ أبو القاسم الزمخشري: الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . تحقيق : محمد الصــادق قمحاوي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الأخيرة (1892هـــ ــ 1972م) . 45/3

4 ــ بدر الدين الزركشي : البرهــــان في علــوم القــرآن . تحقيــق :محمــد أبــو الفضــل إبراهيــم.المكتبــة العصرية.بيروت.185/1 ــ 186

5 ــ انظر : الإتقان . 142/2

6 ــ انظر : مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي .ص 44 ــ 46

ذلك لابد من ربط مقاطع السورة بعضها ببعض، وإيجاد أوجه المناسبات في ذلك؛ « لأن آثار إدراك المناسبات بين المقاطع والأجزاء، في السورة يعين كثيرا على التعرف على المناسبات بين مقاطعها وفقراتها ، فالأضواء منعكسة على بعضها من الجهتين تنير السبيل أمام الباحث للسير بخطى ثابتة راسخة في بحثه ، فلا يهمل هذا الجانب في التفسير الموضوعي للسورة ».[1]

ويستعين بكتب التفسير المعتمدة ، والروايات الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ،و الكتب التي تعتنى بأوجه المناسبات مثل " نظم الدرر في تناسب الآيات والسورة " للبقاعي، و " في ظلال القرآن " لسيد قطب ، و غيرها .

رابعا ـ ربط أهداف المقاطع بالموضوع العام للسورة :

وهذه المرحلة تعتبر الحلقة الأخيرة في مراحل الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ، إذ لا بد من إظهار العلاقة بين الموضوع الأساسي للسورة وكل هدف جزئي ، حتى تظهر السورة متحدة العناصر مجتمعة الأفكار حول هدف واحد هو المحور العام للسورة.

و بعد هذا المدخل،الذي نره ضروريا لمثل هذه الدراسة، يجدر بنا أن نتناول في الفصل الأول التعريف بسورة مريم مقتفين في ذلك بخطوات المنهج الذي سبق أن ذكرنا مراحله في التمهيد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 ـ مصطفى مسلم : مباحث في التفسير الموضوعي. ص 46

الفصـــل الأول

التعريـــف بســـورة مـــريـــم

المبحث الأول ـ موقع السورة في القرآن وفضلها

المطلب الأول ـ ترتيب السورة وعدد آياتها

المطلب الثاني ـ فضل السورة

المبحث الثاني ـ نزول السورة

المطلب الأول ـ مكان نزول السورة

المطلب الثاني ـ زمان نزول السورة

المطلب الثالث ـ أسباب نزول بعض آيات السورة

المبحث الثالث ـ موضوع السورة

المطلب الأول ـ أسماء السورة

المطلب الثاني ـ مناسبة السورة لما قبلها وبعدها

المطلب الثالث ـ ملابسات نزول السورة

المطلب الرابع ـ نظرة المفسرين لموضوع السورة

المطلب الخامس ـ تحديد موضوع السورة مـــن خلال المطالع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : موقع السورة في القرآن وفضلها

المطلب الأول: ترتيب السورة وعدد آياتها

أولا ـ ترتيب السورة :

سورة مريم هي التاسعة عشر حسب ترتيب المصحف، تسبقها الكهف وتليها سورة طه.[1]

أما باعتبار الترتيب النزولي فتعد الثالثة والأربعين ،وقيل الرابعة [2]،وقيل الخامسة[3].تسبقها سورة فاطر ـ وهي الخامسة والثلاثين وفق ترتيب المصحف ـ،وتليها سورة طه.

أما سورة الكهف سابقتها في المصحف ،فتعد الثامنة والستين باعتبار النزول.[4]

ثانيا ـ عدد آيات السورة:

سورة مريم تنتمي إلى قسم المئين من أقسام سور القرآن، إذ ذكر العلماء أن سور القرآن تنقسم إلى أربعة أقسام:

ـ الطول:بدءا بالبقرة، وانتهاء ببراءة،على اعتبار الأنفال وبراءة سورة واحدة.

ـ المئون: ما ولى السبع الطول، وسميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

ـ المثاني: ما ولى المئين .

---

1 ـ انظر:الزركشي: البرهان في علوم القرآن .33/1 ـ 34

2 ـ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير.الدار التونسية للنشر. والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر. (1984م) . 58/16

3 ـ السيوطي: الإتقان في علوم القرآن . 33/1

4 ـ الزركشي:البرهان في علوم القرآن .193/1. والسيوطي: الإتقان.14/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ المفصّل :ما يلي المئاني من قصار السور.[1]

وسورة مريم اختلف في عدّ آياتها،ولذا أدرجوهـــا في القســـم المختلـــف فيـــه إجمـــالا وتفصيلا؛ورد ذلك في تقسيم الموصلي لسور القرآن إلى ثلاثة أقسام ـــ باعتبار اختلافهم في عـــد آياته ـــ فقال:« ثم سور القرآن على ثلاثة أقسام :

ـــ قسم لم يختلف فيه لا في إجمالي ولا تفصيلي.

ـــ وقسم اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا.

ـــ وقسم اختلف فيه إجمالا وتفصيلا...وذكر فيه سورة مريم،وقال: مريم تسع وتسعـــون، وقيـــل ثمان...» .[2]

1 ـــ الاختلاف في عدد آيات السورة إجمالا:

تباينت مواقف العلماء حول عدد آيات السورة ،فعدّها العراقيون والشاميون والمدنيـــون في الأول[3] ثمان وتسعين آية.[4]

في حين عدّها المكيون، وأهل المدينة في الأخير تسعا وتسعين آية.[5]

ب ـــ الاختلاف في عدد آيات السورة تفصيلا:

تتحدد أسباب الاختلاف بين الفريقين في ثلاثة مواضع:

---

1 ـــ الزركشي:البرهان في علوم القرآن.بتصرف.1/244 ـــ 245

2 ـــ السيوطي:الإتقان. نقلا عن أبي عبد الله الموصلي في شرح قصيدته "ذات الرشد في العدد" . 1/89 ـــ90

3 ـــ "المراد بالمدني عدد علماء المدينة، كيزيد، ونافع، وشيبة، وإسماعيل، فإن وافق يزيد أصحابه في العـــدد فمـــدني أول. وإن انفردوا عنه فمدني أخير" . إبراهيم المارغني : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع . دون معلومـــات طبع . ص124

4 ـــ وهذا الذي عليه المصحف الشريف برواية حفص عن نافع .دار الفجر الإسلامي ،دمشق (1406هـــ)

5 ـــ وعليه المصحف الشريف برواية ورش عن نافع .مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (1412)

ـــ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن .دار المعرفة، بيروت .ط1(1986م) . الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني دار الكتب العلمية.بيروت.ط1(1415هـــ ـــ 1994م)

الموضع الأول: قوله ﷻ :﴿ كٓهيعٓصٓ(1) ﴾ ،عدّها الكوفيون آية [1]،وألحقها غـــيرهم بقوله تعالى:﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ (1) ﴾.

الموضع الثاني: قوله ﷻ:﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا (75)﴾ ، عدّها الكوفيون تابعة لقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا(76)﴾،في حين عدّها غيرهم آية مســـتقلة.[2]

الموضع الثالث: قوله ﷻ:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ(40)﴾ ،اعتبرها المكيّـون والمدنيون في الأخير آية.[3]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 ـــ الزركشي :البرهان في علوم القرآن .170/1 ـــ 171 . الطبرسي: مجمع البيان . 772/6

2 ـــ الطبرسي :مجمع البيان. 772/6

3 ـــ المصدر السابق

المطلب الثاني : فضل سورة مريم

تروى في فضل سورة مريم أحاديث حكم عليها نقاد الحديث وعلماؤه بالضعف الشديد، أو الوضع[1]، والذي اشتهر في فضلها ما روي عن أبي بن كعب ﷺ مرفوعا:« من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدق بزكريا وكذب به، ويحي، ومريم، وعيسى، وموسى، وهارون، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل عشر حسنات ،وبعدد من دعا لله ولدا، وبعدد من لم يدع له ولدا ». [2]

وهذا الخبر جزء من حديث طويل أخرجه الإمام العقيلي بإسناده إلى أبي بن كعب ﷺ،قال:قال رسول الله ﷺ:« يا أبي من قرأ بفاتحة الكتاب أعطي من الأجر،فذكر فضل سورة سورة إلى آخر القرآن ». [3]

قال في شأنه ابن المبارك:« أظن الزنادقة وضعته ». [4]

---

1 ــ انظر: شمس الدين الذهبي :ميزان الاعتدال في نقد الرجال. تحقيق :علي محمد البجاوي.دار المعرفة بيروت.83/4 . وأبا جعفر العقيلي:الضعفاء الكبير .دار الكتب العلمية .ط2 (1998م).156/1 ــ157 .وأبا حاتم بن حبان: المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين . تحقيق :محمد إبراهيم زائد.دار الوعي ،حلب .ط2 (1402هـ ــ 1982م). 198/1.وغيرها

2 ــ محمد الغافقي:لمحات الأنوار ونفحات الأزهار. تحقيق :رفعت فوزي عبد المطلب . دار البشائر .ط1(1418هـ ــ 1997م) .805/2. والطبرسي :مجمع البيان. 772/6

3 ــ العقيلي : الضعفاء الكبير .156/1

4 ــ المصدر السابق . 157/1 .وابن الجوزي: الموضوعات .دار الفكر . ط2(1403هـ ــ 1983م) . 241/1

وروى ابن غيلان،قال :سمعت مؤملا يقول: "حدثني شيخ بفضائل سور القرآن الذي يروى عن أبي بن كعب فقلت للشيخ من حدثك ؟فقال: حدثني رجل بالمدائن و هو حي، فسرت إليه فقلت :من حدثك،قال شيخ بواسط وهو حي ،فسرت إليه،فقال: حدثني شيخ بالبصرة،فسرت إليه،فقال :حدثني شيخ بعبادان ، فسرت إليه،فأخذ بيدي فأدخلني بيتا فإذا فيه قوم من المتصوفة ،ومعهم شيخ فقال:هذا الشيخ ،فقلت :يا شيخ من حدثك؟ فقال : لم يحدثني ،ولكن رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن" .ذكره ابن الجوزي: الموضوعات. 239/1 ــ 242 .و السيوطي : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة .دار المعرفة (1403هـ ــ 1983م). 227/1 ــ 228

فضل مريم عليها السلام:

ورد اسم مريم في القرآن أربعا وثلاثين مرة، اقترنت بذكر عيسى عليه السلام في ثلاث وعشرين آية[1]،وانفردت بالذكر في إحدى عشرة آية.[2]

وحظيت عليها السلام باصطفاء الله تعالى،فاختارها من بين النساء، وبرزت عنايته لها منذ أن كانت جنينا في بطن أمها، فعابدة ناسكة، فحاملة لعيسى عليه السلام من غير أب، فتكريم الله إياه بالنبوة والرسالة .

وقد أبرزت سورة آل عمران تبشير الملائكة مريم بالتكريم الإلهي،﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ،يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾.[3]

فالاصطفاء والاجتباء وطهارة النفس بكريم الأخلاق، وجميل الصفات،والتفرغ لعبادة الله وحده،جعلها ترتقي إلى درجة الصدّيقين ،﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾.[4]

كما ورد فضلها ومكانتها الرفيعة في كثير من الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ،نذكر منها:

أولا ــ قال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« ما من بني آدم مولود إلا يمسه

---

1 ــ البقرة : 87،253 ــ آل عمران: 45 ــ النساء: 157،171 ــ المائدة :17(مكرر)، 46 ، 72، 75، 78، 110، 112، 114، 116 ــ التوبة:31 ــ مريم:34 ــ المؤمنون 50 ــ الأحزاب: 7،57 ــ الحديد : 27 ــ الصف :6 ، 14

2 ــ آل عمران:36 ، 37، 42، 43، 44، 45 ــ النساء:156، 171 ــ مريم :16، 27 ــ التحريم :12 . انظر:محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .دار الحديث ،القاهرة .ط1(1417هـ ــ 1996م).ص762ــ763

3 ــ آل عمران :42، 43

4 ــ المائدة : 77

الشيطان حين يولد، فيستهل صارخا من مس غير مريم وابنها »[1].ثم يقول أبو هريرة:﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾.[2]

ثانيا ــ عن علي ﷺ قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول:« خير نسائها مريم بنت عمران،وخير نسائها خديجة ».[3]

ثالثا ــ عن أبي موسى ﷺ قال:قال النبي ﷺ:« فضل عائشة على النساء كفضل الثريد عن سائر الطعام ،كمل من الرجال الكثير ،و لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ،وآسية امرأة فرعون ».[4]

رابعا ــ عن ابن عباس ﷺ قال :خط رسول الله ﷺ في الأرض خطوطا،فقال: « أتدرون ما هذا ؟ قالوا:الله ورسوله أعلم.فقال رسول الله ﷺ أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد،ومريم بنت عمران،وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ».[5]

---

1 ــ البخاري : الجامع الصحيح . كتاب الأنبياء .باب في قوله تعالى : (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) مريم:16 3/1265 ح3248 من طريق سعيد بن المسيب عنه

2 ــ آل عمران :36

3 ــ البخاري : الجامع الصحيح . كتاب الأنبياء. باب في قوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم ...إذ يختصمون)آل عمران:42،44. 3/1265 ح3249 .وفضائل الأنبياء . باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها. 3/1388 ،ح3604 . و مسلم : الصحيح .كتاب فضائل الصحابة. باب فضائل خديجة .دار الكتاب المصري ،ودار الكتاب اللبناني .4/1886، ح2430 . كلاهما من طريق هشام عن عبد الله بن جعفر عنه

4 ــ البخاري : الجامع الصحيح . كتاب الأنبياء. باب في قوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة ... فإنما يقول له كن فيكون) آل عمران: 45 ــ 47 3/1266 ،ح3250. و مسلم : الصحيح. كتاب فضائل الصحابة.باب فضائل خديجة .4/1886 ح2431 بمعناه

5 ــ أبو يعلى الموصلي : المسند . تحقيق :حسين سليم أسد .دار الثقافة العربية .دمشق .ط1(1412هـ ــ 1992م) . 5/110 ح2722 . من طريق عكرمة عن ابن عباس. و أخرجه الحاكم: المستدرك . كتاب معرفة الصحابة. دار الكتاب العربي. بيروت. 3/157 ــ 158بلفظ:" حسبك من نساء العالمين مريم ...الحديث". من طريق الزهري عن أنس رضي الله عنه. وقال الحاكم: " هذا حديث على شرط الشيخين و لم يخرجاه".

المبحث الثاني : نزول السورة

المطلب الأول: مكان نزول السورة

سورة مريم بشكل عام مكية النزول بإجماع العلماء[1]، إلا ما وقع بينهم من اختلاف حول بعض آياتها، فمنهم من رأى أن السورة مكية دون استثناء، وهذا رأي الجمهور، وخالف بعضهم بإثبات آيات مدنية في السورة، وفيما يلي تفصيل ذلك :

أولا ــ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (97)﴾

أورد الطبري في تفسيره عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ:أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه من فراق أصحابه بمكة، منهم : شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف،فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (97)﴾ .[2]

وهذا الخبر ضعيف جدا للأسباب الآتية:

1 ــ في إسناده "يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري"[3] : ضعفه أحمد، وابن معين وأبو حاتم، وأبو زرعة .

قال أحمد: «ليس يسوى شيئا »[4]. وقال ابن معين : « ما حدثكم عن شيوخه الثقات فاكتبوه، وما لم يعرف من شيوخه فدعوه »[5].

---

1 ــ انظر : أبو حيان الأندلسي،تفسير البحر المحيط. دار الفكر .ط2(1403هـ ــ1983م).170/6. وابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز .دار الكتب العلمية .ط1(1413هـ ــ 1993م) .3/4 . و عبد الرحمن الثعالبي : الجواهر الحسان في تفسير القرآن . تحقيق: عمار طالبي . المؤسسة الوطنية للكتاب . 5/3 . السيوطي :الدر المنثور في التفسير بالمأثور ،دار المعرفة .258/4 .وغيرها

2 ــ الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن . دار المعرفة . (1983م) .101/16

3 ــ ابن أبي حاتم الرازي :الجرح والتعديل ،دار إحياء التراث العربي .ط1(1373هـ ــ 1953م). 214/9 ــ 215

4 ــ المصدر السابق .9/ 215

5 ــ المصدر السابق

وقال أبو حاتم: « هو على يدي عدل »[1]. وقال أبو زرعة: « واهي الحديث ».[2]

2 ــ وفي إسناده أيضا "عبد العزيز بن عمران الزهري المدني"، وهو ضعيف جدا. قال ابن معين:« ليس ثقة ،إنما كان صاحب شعر» [3]. وقال أبو حاتم :« متروك الحديث ضعيف الحديث،منكر الحديث جدا، يكتب حديثه للاعتبار»[4]. وامتنع أبو زرعة من قراءة حديثه وترك الرواية عنه . [5]

وقال البخاري :« منكر الحديث لا يكتب حديثه »[6].وقال النسائي: « متروك الحديث».[7]

ومن كان هذا حاله فهو متروك لا يحتج بروايته ،ولأجل الأقوال السابقة قال ابن حجر: « متروك احترقت كتبه فحدث من حفظه فاشتد غلطه » .[8]

وتعقب ابن كثير هذا الخبر بقوله :« وهو خطأ ؛فإن السورة مكية بكاملها لم يترل شيء منها بعد الهجرة ، و لم يصح سند في ذلك » .[9]

ثانيا ــ قوله ﷻ: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ إلى قوله: ﴿ سُجَّدًا وَبُكِيًّا(58)﴾

ذكر أبو حيان بإسناد معلق عن مقاتل قوله :« إلا آية السجدة فهي مدنية».[10]

وهذا الأثر لا يعتد به لأمرين اثنين :

أ ــ الانقطاع الظاهر في سنده .

---

1 ــ ابن أبي حاتم:الجرح والتعديل.391/5

2 ــ المصدر السابق

3 ــ المصدر السابق

4 ــ المصدر السابق

5 ــ المصدر السابق

6 ــ ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب.دار الفكر.ط1(1404هـ ــ 1984م) . 313/6

7 ــ المصدر السابق . 313/6

8 ــ ابن حجر:تقريب التهذيب . بعناية عادل مرشد. مؤسسة الرسالة .ط1(1416هـ ــ 1996م) . ص299 . ت4114

9 ــ ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم . دار الأندلس ، بيروت (1416هـ ــ 1996م) . 492/4

10 ــ النهر الماد " بهامش البحر المحيط" . 170/6

ب ــ هذا الأثر موقوف على مقاتل وهو تابعي ،ولا يعتبر بمثله في إثبات المكي والمدني إلا إذا رفع إلى الصحابي.

ثالثا ــ قوله ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71)﴾

ذكر السيوطي سورة مريم في عداد القرآن المكي المستثني منه آيات مدنية،فقال:

« مريم استثني منها آية السجدة ،وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ».[1]

و لم يورد السيوطي دليل الاستثناء ،مع أنه تعهد بذكره، في قوله: «... وأشير إلى أدلة الاستثناء لأجل قول ابن الحصّار السابق[2] ،ولا أذكر الأدلة بلفظها اختصارا وإحالة على كتابنا أسباب النزول... ».[3]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 ــ الإتقان . 20/1

2 ــ قول ابن الحصار : " كل نوع من المكي والمدني منه آيات مستثناة ... إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل" الإتقان .19/1

3 ــ المصدر السابق

المطلب الثاني: زمان نزول السورة

لم يرد خبر نعتمد عليه في تحديد الوقت الذي نزلت فيه السورة بدقة؛ إلا أننا نستطيع أن نحدد زمانها بالتقريب،وذلك من خلال ما ورد عن بعض الصحابة، ومما تتضمنه السورة من دروس ومقاصد،وهذا ما سنوضحه جليا في مطلب ملابسات نزول السورة.

ـ أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ،قال: « بني إسرائيل والكهف،ومريم،وطه،والأنبياء هن من العتاق الأول ،وهن من تلادي » .[1]

والعتاق :جمع عتيق وهو القديم . قال الحافظ ابن حجر :« أي مما حفظ قديما.و التلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطارئ ،ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن وأن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم » .[2]

فسورة مريم من السور التي نزلت في السنوات الأولى من البعثة النبوية.ويؤكد ذلك أيضا قراءة جعفر ابن أبي طالب ﷺ لهذه السورة أمام النجاشي[3]،وكانت الهجرة للحبشة في السنة الخامسة[4]، وحين أرسلت قريش برجلين منها للنجاشي كانت من بين الأوامر التي كلفا بها أن يذكرا للنجاشي أنهم يقولون في عيسى وأمه عليهما السلام قولا عظيما.وهذا يدل دلالة واضحة أن سورة مريم نزلت في وقت مبكر قبل الهجرة ـ الزمن الذي يكفي لتناقل السورة بين المشركين وغيرهم ـ وعلى أقصى تقدير تكون السورة نزلت في السنة الرابعة للهجرة،والله أعلم.

---

1 ـ الجامع الصحيح . التفسير .باب "تفسير سورة الأنبياء" .765/4 . ح4462 . وباب "تفسير سورة الإسراء" . 1741/4 ح4431.و لم يذكر فيه طه والأنبياء.

2 ـ ابن حجر : فتح الباري .تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب .دار المعرفة .بيروت . (1379هـ).338/8

3 ـ قصة الهجرة إلى الحبشة أخرجها الإمام أحمد:المسند . مؤسسة قرطبة . مصر 201/1 . 290/5

4 ـ ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري دار الكتب العلمية .ط1(1407هـ) .546/1. وابن كثير : السيرة النبوية . تحقيق:مصطفى عبد الواحد ،دار الكتاب العربي . نقلا عن الواقدي . 3/2 . وخالف ابن الفرات في تاريخه ،حيث ذكر أن هجرة الحبشة كانت في السنة الثامنة.نقله برهان الدين البقاعي: نظم الدرر . 4/5

المطلب الثالث : أسباب نزول بعض آيات السورة

إن سياق السورة يوحي أنها نزلت دفعة واحدة دون انقطاع،وثبوت صحة أسباب نـــزول بعض الآيات منها لا يعني أن تلك الآيات نزلت وقت حدوث السبب ،فيتجـــزأ بذلـــك نـــزول السورة،بل وقع تأخر نزول تلك الآيات حتى نزلت مع باقي آيات السورة دون انقطاع.

واستدل محمد عزة دروزة للنزول المتلاحق للسورة بأمرين اثنين:

1 ــ التوازن والترابط الوثيق بين قسمي السورة : قسم القصص ،والذي يلـــه إلى آخـــر السورة .

2 ــ نظم فصول السورة عامة .

فهذان يدلان على أنها نزلت متلاحقة حتى تمت دون فصل.[1]

وسوف نكتفي في هذا المقام بذكر أسباب النزول التي ثبتت صحتها دون التعريـــج علـــى الأحاديث الضعيفة والمنكرة لعدم صلاحيتها في إثبات أسباب النزول .

أولا ــ قوله ﷻ: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) ﴾ .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ ،قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل:« ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ،فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) ﴾.[2]

---

1 ــ محمد عزة دروزة : التفسير الحديث .دار إحياء العربية .(1381هـــ ــ 1962م). بتصرف .35/2.

2 ــ البخاري: الجامع الصحيح. كتاب التفسير . باب (وما نتنزل إلا بأمر ربك) . 1760/4 . ح4454 وبدء الخلق . بـــاب "ذكر الملائكة ". 1177/3 ح3046 والتوحيد .باب (ولقـــد ســـبقت كلمتنـــا لعبادنـــا المرســـلين) . 2713/6 .ح7017. والطبري:جامع البيان . 103/16 . و الواحدي : أسباب النزول . دار المغرفة ،بيروت .ص226 . أخرجوه من عدة طرق عـــن ابن عباس .

ثانيا ــ قوله ﷻ :﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (78) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (79) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا (80) وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (81) ﴾.

أخرج الشيخان عن خباب بن الأرت ﷺ قال: « كنت قَينا[1] في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دين ،فأتيته لأتقاضاه ،قال :لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ،فقلت:لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث،قال :دعني حتى أموت وأبعث ، فسأوتى مالا وولدا فأقضيك ،فنزلت ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (78) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (79) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا (80) وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (81) ﴾.[2]

---

1 ــ القَيْن : الحداد ، وقيل : كل صانع قين: ، والجمع أقنان وقيون . ابن منظور :لسان العرب . 203/5

2 ــ البخاري: الجامع الصحيح. كتاب البيوع .باب "ذكر القين والحداد " . 736/2 ــ 737 . ح1985 . والتفسير باب(أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) . 1761/4 ــ 1762 .ح4455 ، 4456 ،4457 . ومسلم : الصحيح. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .باب "سؤال اليهود النبيﷺ عن الروح ...." .2153/4 .ح279

المبحث الثالث : موضوع السورة

المطلب الأول : أسماء السورة

وقفت في بحثي هذا على ثلاثة أسماء لهذه السورة ، منها التوقيفي ، و منها الاجتهادي، هي:مريم، كهيعص ، المواهب.

وفيما يلي نتناول كل اسم بالتحليل والدراسة لنبرز دلالة معناه على الموضوع الكلي للسورة وعناصره:

أولا ـ تسميتها بمريم :

مريم هو اسم السورة التوقيفي المشهور[1] في كل المصاحف تقريبا، ومع ذلك لم أقف على حديث مرفوع إلى النبي ﷺ فيه تسمية هذه السورة بمريم إلا ما ورد عن جماعة من الصحابة تسميتها بذلك،منها:

ـ ما أخرجه البخاري عن عبد الله ﷺ قال: « بني إسرائيل والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء هن من العتاق الأول ، وهن من تلادي » .[2]

ـ وأخرج ابن أبي شيبة[3] عن مورق العجلي[4] ، قال: « صليت خلف ابن عمر الظهر فقرأ

---

1 ـ الألوسي :روح المعاني. 377/8

2 ـ الجامع الصحيح : كتاب التفسير .باب "تفسير سورة الأنبياء" .765/4 . ح4462 . وباب "تفسير سورة الإسراء" . 1741/4 ح4431 ولم يذكر فيه طه والأنبياء.

3 ـ هو عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان العبسي ، صاحب المصنف وغيره ، سمع من ابن المبارك ، وشريك ، وغيرهما . وسمع منه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم . حافظ متقن . توفي سنة (235هـ) .شمس الدين الذهبي : تذكرة الحفاظ . دار إحياء التراث العربي . بيروت . 432/1

4 ـ هو مورق بن المشمرج البصري ، روى عن عمر و أبي ذر وطائفة ، وعنه قتادة وعاصم و حميد الطويل ، وخلق سواهم ثقة عابد . أبو حاتم ابن حبان : الثقات . تحقيق : شرف الدين أحمد .دار الفكر .بيروت . ط1 (1395هـ ـ 1975م) . =

سورة مريم» .[1]

ـــ روى ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير ،قالا:« نزلت سورة مريم بمكة ».[2]

فهذه الآثار تؤكد أن "مريم " هو الاسم التوقيفي للسورة .

وجه تسميتها :

لما تأملت أقوال المفسرين في تحديد وجه مناسبة تسميتها بمريم وجدتهم ينقسمون إلى ثلاثة فرق:

الفريق الأول : هم دهماء المفسرين الذين رأوا سر تسميتها بمريم يتمثل في اختصاصها بتفاصيل قصتها وابنها ـــ عليهما السلام ـــ وانفرادها بما لم يذكر في السور الأخرى،حيث استغرقت قصتها وابنها سبع عشرة آية، فقاربت ربع آيات السورة .ويدخل ضمن هذا الفريق من يرى أن وجه التسمية يتمثل في أنها أول سورة مكية تفصل أمر مريم وابنها اللذان وقع حولهما اختلاف كبير بين أهل الكتاب .

وانظم إلى هؤلاء من المعاصرين الشيخ بيوض[3] الذي يرى أن أسماء السور عادة ترتبط ببعض ما ذكر فيها من الآيات، قال في تفسيره لسورة مريم:« والسور عادة تسمى بشيء مذكور

-446/5 . شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء . تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسرسي .مؤسسة الرسالة . بيروت. ط9 (1413هـ) . 354/4

1 ـــ أبو بكر بن أبي شيبة : المصنف . باب "القراءة في الظهر قدر كم " تحقيق : كمال يوسف الحوت . مكتبة الرشد الرياض.ط1(1409هـ) 313/1 . ح3576

2 ـــ لم أقف على من أخرجه . وقد ذكره السيوطي :الدر المنثور في التفسير بالمأثور . 258/4 . و محمد ابن علي الشوكاني: فتح القدير " الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير " . ضبط وتصحيح : أحمد عبد السلام . دار الكتب العلمية . بيروت . ط1 (1415هـ ـــ 1994م) . 396/3

3 ـــ هو إبراهيم بن عمر بيوض ، ولد سنة (1313هـ) بالقرارة ، ولاية غرداية ، الجزائر . حفظ القرآن قبل سن البلوغ وتعلم اللغة العربية على يدي مشايخه ، تبنى الحركة العلمية والنهضة الإصلاحية بعد وفاة أبيه ، وكان عضوا في حركة العزابة ، ثم رئيسا لها ، وترك تراثا فكريا وأدبيا ، منه : التفسير ، والبدعة مفهومها وأنواعها وشروطها ، وفضل الصحابة والرضا عنهم، و مذكراته الخاصة ، وغيرها ، وقد تم تحرير وطبع الكثير منها من طرف مجموعة من الباحثين .(توفي سنة 1401هـ) . معجم أعلام الإباضية . جمع وتحرير : إبراهيم بن بكير بحاز ،و مصطفى بن محمد الشريف، ومحمد بن موسى بابا عمي ، ومصطفى بن صالح باجو .نشر جمعية التراث . غرداية .الجزائر. (1420هـ ـــ 1999م) . 36/2 ـــ 42

فيها؛ وهذه السورة سميت سورة مريم لأن قصة مريم ذكرت بأكثر تفصيلا فيها،وإن كانت ذكرت أيضا بتفصيل في سورة آل عمران ...ولكن التفصيل كان في هذه السورة أكثر،ومـــريم هـــي أم سيدنا عيسى عليه السلام ».[1]

الفريق الثاني : الذين يرون أن تكرار اللفظ المحدد في السورة المعينة له أثر في تســـمية كثير من السور القرآنية .

في مقدمتهم الزركشي حيث عقد مطلبا خاصا في كتابـــه "البرهـــان"،وعنونـــه بقولـــه: "اختصاص كل سورة بما سميت به"،وكشف فيه عن عدة أسباب تشارك في تســـمية الســـورة ، فقال: « ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به ،ولاشك أن العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفـــة تخصـــه ، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيـدة الطويلة بما هو أشهر فيها ،وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز».[2]

وهذه الوجوه التي ذكرها لم تكن على سبيل الحصر ،وإلا فقد ركز بعدها على وجه آخـــر يتمثل في تكرار لفظ التسمية ،وأبان على إسهامه في تسمية كثير من السور ،فقال ـــ معللا تسمية سورة هود بهذا الاسم ـــ:«فإن قيل ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشـعيب وموسى عليهم السلام ،فلم تختص باسم هود لوحده ؟وما وجه تسميتها به ؟وقصة نـــوح فيـــها أطول و أوعب.قيل : تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب ممـــا وردت في غيرها،و لم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام كتكـــرره في هذه السورة ؛فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربع مواضع،والتكرار من أقوى الأســـباب الـــتي ذكرنا ...واعلم أن تسمية سور القرآن يجري فيها من رعي التسمية ما ذكرنا ...».[3]

فالزركشي يرى أن التكرار لا يكون ذا تأثير دائم في تسمية السور ـــ على الرغم من أهمية دوره في تسميتها ـــ فهو يبقى محصورا في بعض السور دون بعض .

---

1 ـــ بيوض إبراهيم بن عمر : في رحاب القرآن . تحرير :عيسى بن محمد الشـــيخ بالحـــاج . المطبعـــة العربيـــة . غردايـــة ط1(1416هـــ ـــ 1995م) . جزء تفسير سورتي مريم وطه .ص6

2 ـــ الزركشي : البرهان في علوم القرآن . 270/1

3 ـــ المصدر السابق

الفريق الثالث : الذين ينظرون إلى مدى دلالة الاسم على موضوع السورة أو عناصره المؤلفة لخطه العام ،وهذا الذي يؤكده البقاعي في قوله: « اسم السورة مترجم عن مقصودها؛لأن اسم كل شيئ تظهر المناسبة بينه وبين مسماة عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه».[1]

ـــ ولما رأى الإمام البقاعي أن موضوع السورة يتمثل في"بيان اتصافه تعالى بالرحمة" الذي يستوجب اتصافه بتمام القدرة وشمول العلم ،وجد أن قصة مريم أدل القصص الأخرى في السورة على إثبات هذه الصفة لله تعالى ،ولهذا سميت مريم ،قال :« ...وعلى هذا دلت تسميتها بمريم ؛لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة وشمول العلم لأن أغرب ما في المخلوقات وأجمعه الآدمي،وأعجب أقسام توليده الأربعة ـــ بعد كونه آدميا ـــ ما كان من أنثى بلا توسط ذكر ؛ لأن ذلك أضعف الأقسام ،وأغرب من ذلك أن يتولد منها على ضعفها أقوى النوع وهو الذكر،وخاصة إن أوتي قوة الكلام والعلم والكتاب في حال الطفولية ،وأن يخبر بسلامته الكاملة فيكون الأمر كذلك، لم يقدر أحد ـــ مع كثرة الأعداء ـــ على أن يمسه بشيء من أذى ،هذا إلى ما جمعته من إخراج الرطب في غير حينه من يابس الحطب ،ومن إنباع الماء في غير موضعه ».[2]

وهذا الربط الذي أشار إليه البقاعي بين اسم السورة والموضوع يعتبر مناسبة جزئية؛لأنه لم يبرز في جميع عناصره،وإنما تقيد بالغرض من قصة مريم والذي يهدف إلى الدلالة على اتصافه تعالى بتمام القدرة التي لا تحدها الأسباب الظاهرة والأمور الاعتيادية ،والتي تعتبر من أعظم البراهين الدالة على اتصافه تعالى بصفات الكمال والجلال .

ـــ ومن هؤلاء المهايمي[3] الذي ربط التسمية بمقاصد القصة ،فركز على الأغراض التي ترمي إليها،فقال: « لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل أهله لعبادة الله ،وطلب بها إشراق نوره، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق ،وعن عالم الملكوت ،وتظهر له الكرامات العجيبة ،وهذا من أعظم مقاصد السورة ».[4]

---

1 ـــ البقاعي : نظم الدرر . 18/1 ـــ19

2 ـــ المصدر السابق .514/4.

3 ـــ لم أقف على ترجمته في كتب التراجم

4 ـــ محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل.نقلا عن المهايمي.عناية محمد فؤاد عبد الباقي .دار إحياء الكتب العربية . بيروت ط1(13378هـ ـــ 1959م) . 4124/11

وإلى هذا ذهب كل من القاسمي[1]، و وهبة الزحيلي.[2]

والذي يتبلور مما سبق ذكره أن اسم السورة "مريم" لا يوحي بكل عناصر موضوعها، وإنما على بعض حلقاتها التي تشارك في تأليف الموضوع الكلي للسورة، وعليه فاسم السورة لا يترجم دائما موضوعها كما عليه صنيع البقاعي.

وهذا الذي أكده الشيخ محمد الغزالي في قوله :« أرفض خداع العناوين ،إن أسماء السور القرآنية شيء غير موضوعاتها، الموضوعات غالبا متشعبة مستفيضة ،أما الأسماء فذات دلالات جزئية ».[3]

ثانيا ــ تسميتها بـ" كٓهيعٓصٓ " :

جرت عادة كثير من العلماء على تسمية كثير من السور القرآنية بفواتحها، منها المفتتحة بالحروف المقطعة،فأطلقوا على سورة مريم :"كٓهيعٓصٓ".

ولهذا فسر بعضهم تلك الحروف، بأنها أسماء للسور ذات معنى، ودلالة، وأعربوها على الابتداء،كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

وقد أطلق الصحابة وغيرهم هذا الاسم على السورة في عدة آثار رويت عنهم نذكر منها:

ــ عن أبي هريرة ﷺ ،قال : « لما خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر استخلف سباع بن عرفطة الغفاري ﷺ[4]،فقدمنا فشهدنا معه صلاة الصبح فقرأ في أول ركعة "كٓهيعٓصٓ"،وفي الثانية ويل للمطففين ...الحديث ».[5]

---

1 ــ محاسن التأويل .4124/11

2 ــ وهبة الزحيلي :التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.دار الفكر المعاصر،بيروت .ودار الفكر،دمشق . 46/16

3 ــ محمد الغزالي : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ص70

4 ــ صحابي جليل استعمله النبي ﷺ حين خرج إلى خيبر وإلى دومة الجندل ، وهو من كبار الصحابة .ابن أبي حاتم الرازي: الجرح والتعديل . 312/4 . ويوسف بن عبد الله بن عبد البر : الاستيعاب . تحقيق : محمد علي البجاوي. دار الجيل . بيروت ط1 (1412هـ) . 463/2

5 ــ الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين. دار الكتاب العربي . بيروت 38/2 . وأحمد:المسند . 345/2 نحوه

ـــ عن أم سلمة : « أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب هل معك مما جاء به ـــ يعني رسول الله ﷺ من شيء ،قال نعم :فقرأ عليه صدرا من "كٓهيعٓصٓ" ».[1]

ـــ وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم[2] أنه: « صلى بهم يوم الجمعة الفجر فقرأ بهم " كٓهيعٓصٓ " ».[3]

ـــ وذكر الشوكاني أن النحاس وابن مردويه أخرجا عن ابن عباس رضي الله عنهما ،قال :« أنزلت بمكة سورة " كٓهيعٓصٓ " ».[4]

ـــ وهو اختيار القشيري[5]،إذ فسر الحروف المقطعة في أوائل السور بأنها أسماء لها وعليه «قيل تمام الكلام عند قوله " كٓهيعٓصٓ " ،كأنه إعلام باسم السورة ،كما تقول :كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع في المقصود ...».[6]

ـــ وأشار أبو السعود إلى إطباق أكثر العلماء على أنها اسم للسورة ،قال:« فإن جعلت ـــ

---

1 ـــ أحمد : المسند . 201/1 . 290/5

2 ـــ هو إبراهيم بن يزيد النخعي بن قيس بن الأسود النخعي ، أبو عمران الكوفي ، ثقة إلا أنه يرسل كثيرا ، أخرج له أصحاب الكتب الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب . ص35

3 ـــ أبو بكر بن أبي شيبة : المصنف . كتاب الصلاة . باب " ما يستحب أن يقرأ في فجر يوم الجمعة " . تحقيق : كمال يوسف الحوت . ط1 (1409هـ) . 471/1 ح 5450

4 ـــ محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير . 396/3 . وهذا الذي ذكره الشوكاني عن النحاس مخالف لما ورد عن أبي جعفر النحاس في كتابه" الناسخ والمنسوخ " . تحقيق : سليمان إبراهيم اللاحم .مؤسسة الرسالة .ط1(1412هـ ـــ 1991م).حيث ذكر فيه السورة باسم "مريم".

5 ـــ هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري، الأستاذ أبو القاسم القشيري، الملقب بزين الإسلام، جمع بين شتات العلوم، وكان فقيها بارعا، وأصوليا محققا متكلما سنيا محدثا حافظا مفسرا متقنا، نحويا لغويا، من مصنفاته: التفسير الكبير ،و لطائف الإشارات، و آداب الصوفية. توفي سنة (465هـ) .شمس الدين الداودي : طبقات المفسرين . تحقيق : علي محمد عمر . مكتبة وهبة . ط1 (1392هـ ـــ 1972م) . 338/1 ـــ346

6 ـــ أبو عبد الله القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . دار الكتب العلمية بيروت ط1(1408هـ ـــ 1988م) . 51/11.

أي كهيعص ـــ اسما للسورة على ما عليه إطباق الأكثر فمحله الرفع ... » .[1]

ودعوى الإطباق هذه تحتاج إلى بينة ،وإلا فعمل غالب المفسرين يخالف ذلك .

ـــ والبقاعي اعتبر هذه الحروف و لم يهملها ، إذ حاول بيان وجه المناسبة بينها وبين أغراض السورة ومقاصدها ،فقال: «وعلى مثل ذلك أيضا ـــ أي مقصود السورة الذي سبقت الإشارة إليه في التسمية السابقة ـــ دلت تسميتها بما في أولها من حروف ، بيان ذلك :

* أن مخرج الكاف من أقصى اللسان بما يلي الحلق ويحاذيه من أسفل الحنك ...ولها من الصفات الهمس والشدة والانفتاح والاستفال.

* ومخرج الهاء من أقصى الحلق ... ولها من الصفات الهمس والرخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء.

* ومخرج الياء من وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى ،ولها من الصفات الجهر والرخاوة والانفتاح و الاستفال.

* ومخرج العين من وسط الحلق ،ولها من الصفات الجهر وبين الشدة والرخاوة والانفتاح والاستفال.

* ومخرج الصاد من طرف رأس اللسان وبين أصول الثنيتين السفليين ،وله من الصفات الهمس والرخاوة والإطباق والاستعلاء والصفير .

فالافتتاح بهذه الأحرف هنا إشارة ـــ والله أعلم ـــ إلى أن أهل الله عامة ـــ من ذكر منهم في هذه السورة وغيرهم ـــ يكون أمرهم عند المخالفين :

* كما تشير إليه الكاف ،ضعيفا مع شدة وانفتاح ، كما كان حال النبي ﷺ أول ما دعا،فإنه اشتهر أمره ،ولكنه كان ضعيفا بإنكار قومه ،إلا أنهم لم يبالغوا في الإنكار.

* ثم يصير الأمر في أوائل العراك ـــ كما تشير إليه الهاء ـــ إلى استفال ، ثم يزداد بتمالؤ المستكبرين عليهم ضعفا وخفاء،وإلى هذا تشير قراءتها بالإمالة ،ولابد مع ذلك من نوع ظهور ـــ كما يشير إليه انفتاح الهاء وإليه تشير قراءة الفتح ـــ وهذا كما كان النبي ﷺ حين صرح بسب

---

1 ـــ أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . مؤسسة التاريخ العربي ،دار إحياء التراث العربي. ط2(1411هـ ـــ 1990م) . 252/2

آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم فقاموا عليه إلبا واحدا فهاجر أكثر الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة...وتمادى الحال حتى ألجأهم قريش إلى الشعب.

* وتكون في وسط أمرهم ــ كما تشير إليه الياء وقراءتها بالفتح ــ لهم قوة مع رخاوة واشتهار و استفال ،وهو الأغلب عليهم ظاهرا كما تشير إليه قراءة الإمالة، فيكون ذلهم من وراء عز وعزهم في ثوب ذل، يعرف ذلك من عاناه ونظر إليه بعين الحقيقة واجتلاه ...

* ثم إذا علا أمرهم عن الوسط صاعدا قويا ــ كما تشير إليه العين ــ فصار بين الشدة والرخاوة،وفيه انفتاح بشهرة مع استفال في بعض الأمر ،كما كان حاله ﷺ عند مبايعة الأنصار رضوان الله عليهم.

*وأما آخر أمرهم فهو وإن كان فيه نوع من الضعف ،وضرب من الرخاوة واللين كما كان في غزوة حنين والطائف ،فإنه تعقبه قوة عظيمة بالإطباق ،واستعلاء واشتهار يملأ الآفاق ــ كما يشير إليه الصفير ــ هذا في أهل الله عامة المذكور في هذه السورة وغيرهم » .[1]

والظاهر من قوله هذا أنه ربط تحليل الحروف المقطعة بواقع الدعوة النبوية الذي نزلت فيه السورة ، و لم يشر إلى دلالة هذه الحروف على موضوع السورة الذي أعلن عنه في أولها،وهذا راجع إلى الغموض والخفاء الذي يعتري حروف الهجاء العربية في أوائل السور القرآنية ، مما يجعل توجيهها ظنيا لعدم ثبوت أي حديث عن النبي ﷺ في تفسيرها.

ثالثا ــ تسميتها بالمواهب :

هذا الاسم اجتهادي للسورة، وهو غير التوقيفي، ويعتبره بعض الباحثين المعاصرين مرحلة من المراحل التدرجية لتفسير السورة تفسيرا موضوعيا ،كالدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي الذي خصه بالمرحلة الثانية بعد الاسم التوقيفي مباشرة ،وأشار أن هذا الاسم قد يطلقه السابقون،أو يتمكن الباحث من استخراجه،والربط بينه وبين موضوعها.[2]

---

1 ــ البقاعي : نظم الدرر . بتصرف .514/4 ــ 515

2 ــ انظر : الخالدي : التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق .ص73

وقد أدرك هذا الاسم ابن تيمية من خلال المعاني والمقاصد المستوحاة من قصص السورة وآياتها،قال: «... افتتحها بـ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ(1)﴾وندائه ربه نداء خفيا وموهبته له يحي ثم قصة مريم وابنها .

وقوله:﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ بين فيها الرد على الغلاة في المسيح ،وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه ،ثم أمر نبيه بذكر إبراهيم ،وما دعا إليه من عبادة الله وحده ونهيه إياه عن عبادة الشيطان ،وموهبته له إسحاق ويعقوب وأنه جعل له لسان صدق عليا ،وهو الثناء الحسن .

وأخبر عن يحي وعيسى وإبراهيم ببر الوالدين مع التوحيد وذكر موسى وموهبته له أخاه هارون نبيا .

كما وهب يحي لزكريا ،وعيسى لمريم ،وإسحاق لإبراهيم ،فهذه السورة **سورة المواهب:** وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة والعمل الصالح ،والعلم النافع ،ثم ذكر ذرية آدم لأجل إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ(58)﴾ وهو إبراهيم ،من ذرية إبراهيم و إسرائيل إلى آخر القصة » .[1]

1 ــ ابن تيمية : التفسير الكبير . تحقيق : عبد الرحمن عميرة . دار الكتب العلمية ،بيروت .183/5 ــ 184

المطلب الثاني: مناسبة السورة لما قبلها وبعدها

بتتبع طرائق العلماء والباحثين في بيان وجه المناسبات بين سور القرآن نجدهم ينظرون إلى هذه العلاقة باعتبارين اثنين :

الاعتبار الأول : موضوع كل سورة والحلقات المشكلة له ،والبحث عن الروابط الخفية،ووجه مناسبة أسبقية السورة للسورة اللاحقة من خلال موضوع كل منهما .

الاعتبار الثاني : الآيات الخاتمة والفاتحة ، ووجه المناسبة بين بداية السورة ، ونهاية السورة السابقة لها .

والترتيب التزولي لسور القرآن أمر اجتهادي لا يعتمد على دليل يصح إلى النبي ﷺ ،أو إلى أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ،ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى عدم الاعتداد به في إدراك أغراض ومقاصد السور القرآنية .

وعليه فسيكون الحديث حول هذه المناسبة باعتبار ترتيب المصحف فقط:

أولا ــ مناسبتها لسورة الكهف :

سورة الكهف تعالج في عمومها قضايا العقيدة ،إذ تصحح العبادة والدعاء بميزان العقيدة الصحيحة. ووسيلتها القصص التي استغرقت قرابة ثلثي السورة ، والآيات العجيبة التي لا يطلع على حقائقها الخفية من البشر إلا القليل،والمتمثلة في قصة أصحاب الكهف ولبثهم مدة طويلة بلا أكل ولا شرب،وخبر الرجلين،وقصة موسى مع العبد الصالح وما فيها من الخوارق،وقصة ذي القرنين،هذه القصص الدالة على قدرة الله التي لا تتوقف عند الأسباب الكونية .[1]

---

1 ــ انظر : أبو جعفر بن الزبير الغرناطي : البرهان في ترتيب سور القرآن .تحقيق :محمد شعبان . (1410هـ ــ 1990م). ص251 ــ 252 وأبو حيان: البحر المحيط . 170/6 . الألوسي : روح المعاني . 377/8 ,و السيوطي: أسرار ترتيب القرآن . تحقيق :عبد القادر عطا . دار أبو سلامة للطباعة والنشر ،تونس .ص115

وسورة مريم تضمنت ما هو أشد عجبا وأخفى سببا ، إذ افتتحت بقصة زكريا وبشارته بيحي على كبر وقطع رجاء وعقر زوج،وأعقبها ميلاد عيسى من غير أب اللتان تنبئان بقدرة الله وعظمته التي لا تحدها الأسباب الظاهرة،فناسب تتاليهما .

ويؤكد هذه المناسبة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[1]، قال الإمام أبو جعفر الغرناطي[2]: « أي: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ،نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية ،وهو قصة زكريا وابنه يحي عليهما الصلاة والسلام،وقصة عيسى عليه السلام وكينونته من غير أب، ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها،إلا بحسب سنة الله ،وإنما الفعل له سبحانه لا بسبب ... » .[3]

وأبرز الشيخ بيوض المناسبة بين السورتين بأسلوب بديع ودقيق ،وأشار إلى تعدد وجوهها،الأمر الذي جعله يكتفي في إبرازها بوجه واحد فقط، يتمثل في المناسبة بين قصة مريم وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام،قال: « وهذه القصص العجيبة في سورة مريم ،هي إحدى المناسبات بينها وبين سورة الكهف،المشتملة على قصص هي من أغرب ما وقع في الدنيا ،خاصة قصة أصحاب الكهف ،وقصة ذي القرنين ،وقصة موسى والخضر،كما أن هناك مناسبات في نوعية القصة والحكمة منها .

لنأخذ مثلا قصة موسى والخضر ...ترى ما المناسبة بينها وبين قصة مريم ؟ ...

---

1 ــ الكهف : 9

2 ــ هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين، أبو جعفر ، الجياني المولد الغرناطي المنشأ، ولد سنة (627هـ)، وتوفي سنة (708هـ) ، قال تلميذه أبو حيان : " كان محدثا جليلا ماهرا نحويا فصيحا مفوها حسن الحظ مقرئا مفسرا مؤرخا أقرأ القرآن والنحو والحديث "، من أهم مؤلفاته : " البرهان في ترتيب سور القرآن "، و"شرح الإشارة للباجي في الأصول "، وغيرها . الداودي : طبقات المفسرين . 26/1 ــ 27 . وانظر مؤلفاته عند حاجي خليفة:مصطفى عبد الله القسنطيني الرومي الحنفي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . دار الكتب العلمية . بيروت . (1413هـ ــ 1992م) . 241/1 ، 286 .

3 ــ البرهان في ترتيب سور القرآن .ص251 ــ 252

فقصة موسى والخضر مدارها على تنبيه الناس إلى أن الله تبارك وتعالى أسرارا وحكما،تـوبي الإنسان على الإيمان والتفويض والاستسلام،والتوكل على الله ليعلم أن كل ما يفعله الله هو عـدل وحق،وجهل الإنسان بحقيقة الأمر لا يجعل ذلك الأمر غير حق ،أو يجعله يطمع في إدراك حكمـة الخالق وإدراك أسراره.

وقصة زكريا ويحي ومريم تبين حكمة من نوع آخر ،ذلك أنها تبين أن الله تعالى ليس مقيدا بالأسباب،وأنه فعال لما يريد يخرق العـادة المعـهودة ،وسـنة الكـون المطـردة في أن الشـيخ الهرم،والعجوز العقيم لا يلدان؛ فولدت زوجة زكريا يحي ،كما خرق الخرق الكبير الآخر الـذي هو أعجوبة العالم، أن يولد عيسى من أنثى دون ذكر».[1]

وأوضح الطبرسي وجه المناسبة بين خاتمة الكهف،وفاتحة مريم، فقال:« ختم الله سـبحانه سورة الكهف بذكر التوحيد والدعاء إليه وافتتح هذه السورة بذكر الأنبياء الذين كانوا على تلـك الطريقة بعثا على الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم وحثا عليهم».[2]

ونظر البقاعي إلى الاعتبارين فجلى وجه المناسبة بينهما وأوضحهـا أيما توضيـح،قـال: « ولما كان مقصود التي قبلها الدلالة على أن القرآن قيم لاعوج فيه ،وبه تمام الانتظـام في نعمـة الإبقاء الأول ،ودل على ذلك بأنه ساق المسؤول عنه من القصص أحس سوق، وكشـف عـن مخبأته القناع أبدع كشف إلى غير ذلك مما خلله به من بدائع الحكم وغرائب المعاني فاضحة لمـن ادعى لله سبحانه ولدا، وختمتها بمثل ذلك من وصف الكتاب والتوحيد النافي لقبول التعدد بولـد أو غيره بكل اعتبار،والعمل الصالح .

ابتدأ هذه بالكشف عن أغرب من تلك القصص ،تحقيقا لآيـة ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾[3]بسياق غير ما تقدم فيمـا مضـى مـن السـور

---

1 ــ في رحاب القرآن. جزء تفسير سورتي مريم وطه باختصار . ص32 ــ 34

2 ــ مجمع البيان . 772/6

3 ــ الكهف : 9

وجزئيات لم تذكر فيها مع عدم المخالفة لما مضى تأييدا ؛لأن كلماته لا تنفذ وعجائبه لا تعد ولاتحد،وأنه لو كان من عند غيره لاختلف».[1]

واكتفى عبد الكريم الخطيب في بيان وجه المناسبة باعتبار الآيات الخاتمة للكهف، وباعتبار أغرب ما تدل عليه سورة مريم، حيث أوضح أن عيسى عليه السلام بكل ما تحمله قصته من أعاجيب خارقة ليس سوى كلمة من كلمات الله التي لا تنفد ،والتي هي من الآيات الخاتمة لسورة الكهف،قال:« فعيسى عليه السلام ليس إلا كلمة من كلمات الله التي لا تنفد ... »[2]،مستندا في ذلك لقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾.[3]

والذي نلاحظه ــ مما سبق تفصيله ــ أن التناسب واضح بين السورتين، إذ أنهما يشتركان في إثبات عقيدة التوحيد وإقامة الأدلة والبراهين عليه، وذلك من خلال القصص المبثوثة فيهما،والتي تهدف إلى تقرير ربوبية الله تعالى وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه، وأنه منزه عن اتخاذ الولد والشريك.

وخاتمة الكهف تتلخص في كون كلمات الله لا تنفد، وأن الله متصف بصفات الكمال التي تنزهه عن اتخاذ الشريك والولد، وكذا أن العمل الصالح لا يقبل إلا بعد تصحيح العقيدة .

وفاتحة مريم تثبت وحدانية الله في ربوبيته والصفات اللازمة لذلك من القدرة التي لا تحدها الأسباب الظاهرة، والعلم الشامل، وصفة الرحمة التي وسعت كل شيء، وأنه المعبود وحده،وخواص الخلق عبيده .

ثانيا ــ مناسبتها لسورة طه :

سورة طه هي التالية لمريم حسب الترتيب النزولي و المصحفي .

وتدور دروسها حول اتصافه تعالى بكل صفات الكمال والجلال، وأنه الخالق والمالك، و القاهر والقابض، والهادي إلى صراط مستقيم، والإنسان ضعيف يحتاج للهداية ليسعد في الدارين،

---

1 ــ نظم الدرر . 517/4 ــ 518

2 ــ عبد الكريم الخطيب : التفسير القرآني للقرآن .دار الفكر العربي .4/ 720 ــ 721

3 ــ النساء : 170

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأفصح البقاعي عن مناسبة انتهاء مريم لبداية طه، قال:« لما ختم تلك ـــ مريم ـــ بإهلاك القرون وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللد، و لم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك، كان ربما أفهم أنه قد انقضت مدتهم، و حل بوارهم، و أتى دمارهم. وأنه لا يؤمن منهم ـــ لما فيه من اللدد ـــ إلا من قد آمن فحصل بذلك من الغم والحزن مالا يعلم قدره إلا الله؛ لأن الأمر كان في ابتدائه و لم يسلم منهم إلا نفر يسير جدا، فسكن سبحانه الروع بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[1]، بتعب قلبك بكونك من أقل المرسلين تابعا ».[2]

وربط أبو حيان المناسبة بين الخاتمة والفاتحة بالبشارة و النذارة الواردة فيهما،قال : «ومناسبة هذه السورة لآخر ما قبلها أنه تعالى لما ذكر تيسير القرآن بلسان الرسول ﷺ أي بلغته،وكان فيما علل به قوله:﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا(98) ﴾، أكد ذلك بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[3]، والتذكرة هي البشارة و النذارة ...».[4]

وقيد الإمام المراغي المناسبة في قوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ (98) ﴾، وقوله:﴿ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[5]،قال: « إن أول هذه السورة متصل بالسورة السابقة ومناسب له في المعنى إذ ذكر في آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربي المبين ، ليكون تبشيرا للمتقين وإنذارا للمعاندين.وفي أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى ».[6]

---

1 ـــ طه : 2

2 ـــ نظم الدرر . 8/5 . وانظر : أبو جعفر الغرناطي: البرهان في ترتيب سور القرآن . ص253

3 ـــ طه : 1،2

4 ـــ البحر المحيط . 223/6 ـــ 224

5 ـــ طه : 2

6 ـــ تفسير المراغي . دار الفكر . (1971م) . 32/6

المطلب الثالث : ملابسات نزول السورة

بدأ القرآن الكريم يتنزل على النبي ﷺ،والمجتمع في مكة تتجاذبه تصورات اعتقادية فاسدة . فمن العرب من كان يعبد الأوثان التي يعود وضعها إلى زمن نوح عليه السلام، فقريش اتخذت هبل صنما على بئر في جوف الكعبة وهو من أعظم أصنامها ،واتخذت إيسافا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندها، واتخذ أهل كل دار صنما ،وهكذا اتخذت كل قبيلة عربية خارج مكة صنما يعبدونه .

بل أكثر من ذلك اتخذ العرب طواغيت مع الكعبة ؛وهن بيوت يعظمونها تعظيمهم للكعبة،منها: العزى لقريش وبني كنانة ،و اللات لثقيف ،ومناة للأوس والخزرج، وذو الكعبات لتغلب وبكر....[1]

ومن العرب من يعتقد أن الملائكة بنات الله تعالى، فيتقربون بها استشفاعا ، ومنهم من يغلو فيعبدها مباشرة. وبين القرآن الكريم عوار هذا الاعتقاد على سبيل التبكيت ،إذ كيف ينسبون البنات لله ،في حين يعتبرونها أدنى مرتبة من البنين ويتشاءمون منها:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2].

وقوله:﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [3]

---

1 ــ انظر تفصلا أكثر في معبودات العرب في الجاهلية . ابن هشام :السيرة النبوية .دار إحياء التراث العربي .بيروت 81/1 ــ91

2 ــ النحل :57 ــ 59

3 ــ الإسراء : 40

والذي ساعد على إرساء هذا المعتقد هو احتكاك العرب بالنصارى، ولهذا لما سئل العرب عن مستندهم في ذلك أجابوا بتأييد الكتب السماوية لها، وهذا ما يشير إليه قوله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.[1]

وإلى جانب العرب كان في مكة بعض الكتابيين على قلة ، منهم اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله،وطعنوا في عرض مريم ــ عليها السلام ــ ،ومنهم النصارى الذين رفعوا المسيح وأمه إلى مقام الألوهية فقالوا: المسيح ابن الله .فوقع الكتابيون في دنس التحريف فضلوا وأضلوا.

ولهذا نزل القرآن بمكة مخاطبا الفريقين المشركين والكتابيين،و لما كان النبي ﷺ عربي وبعث بلسان العرب ،كان الاحتدام بينه وبين عشيرته ــ التي صفتها السائدة عبادة الأوثان ــ أكثر من غيره، وجاءت جل الآيات والسور في هذا السياق لتبين الحقائق وتصحح المفاهيم، « فكشفت الرسائل الإلهية الأولى عن عورات ألوهية الأوثان والوثنيين الكاذبة وشركهم بالله واتباعهم تقاليد الأباء والأجداد البالية بغية إقناع أولي الألباب السليمة بخطئهم ونقدت تصوراتهم المعوجة المهترئة، و بينت مدى انفصالهم عن الله وعدم إيمانهم بحسابه لهم يوم الدين بمعقولية ظاهرة لم تترك في ألبابهم وأفئدتهم ثغرة للشك والارتياب ».[2]

فكانت جل موضوعاته تدور على العناصر الآتية :

ــ إثبات حقيقة توحيد الألوهية و الربوبية ،وما يترتب عنهما من إخلاص العبادة لله وحده، ونبذ عبادة الأصنام .

ــ إعطاء الأدلة المثبتة لنبوة النبي ﷺ ورسالته ،والتي نفاها كبار المشركين وغيرهم.

ــ إبراز براهين البعث والنشور الذي أنكره المشركون، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.[3]

---

1 ــ الزخرف :57 ــ59

2 ــ أبو الأعلى المودودي:تفهيم القرآن . تعريب أحمد إدريس . ط2(1981م) . دون مكان الطبع . ص14

3 ــ المؤمنون :37

وهذا ما أكده الإمام الشاطبي حين ذكر أن القرآن المكي مقرر لثلاثة معان، أصلها معنى واحد وهو الدعاء لعبادة الله تعالى:

- تقرير وحدانية الله الواحد الحق ...
- تقرير النبوة للنبي ﷺ وأنه رسول الله إليهم جميعا...
- إثبات أمر البعث و الدار الآخرة ، وأنه الحق لا ريب فيه والرد على من أنكر ذلك بكل وجه.[1]

ومن جهة أخرى فإن القرآن المكي خاطب أهل الكتاب على قلتهم، وذلك في صور عدة نذكرها فيما يلي:

ـ بيان أن ما ورد في القرآن يوافق الكتب السماوية السابقة ،كما في قوله ﷻ:﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ،صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.[2]

ـ التنويه بالكتابيين الذين اتبعوا النبي ﷺ ونصروه وعزروه ،كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[3]

« فسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول ذكرت صراحة أن جماعة من اليهود والنصارى في مكة لما تطابقت عندهم أوصاف النبي ﷺ بالذي ذكرته التوراة والإنجيل ،آمنوا به ونصروه واتبعوا النور الذي جاء به».[4]

---

1 ـ الشاطبي : الموافقات . باختصار . 251/3

2 ـ الأعلى : 18، 19

3 ـ الأعراف :157

4 ـ محمد عزة دروزة : سيرة الرسول .المكتبة العصرية .صيدا .بيروت . 337/1

ـــ تقرير واقع الكتابيين من اختلاف وتنازع وانشقاق في المذاهب، ودعوتهم إلى الانضـــواء إلى راية القرآن الذي انبثق من المصدر ذاته الذي انبثقت منه كتبهم السماوية،كما في قوله تعـــالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .[1]

ـــ مواجهة انحرافات أهل الكتاب العقائدية وتصحيحها ،والأمر في هذه الفـــترة يخـــص النصارى الذين ادعوا الولد لله عز وجل، ورفعوا المسيح عليه السلام إلى ذلك المقـــام في زعمـــهم ،ورد القرآن هذه الفرية في آيات عديدة من سورة مريم التي نحن بصدد دراستها .

والذي يتبلور مما سبق ذكره أن القرآن في المرحلة المكية ركز على تثبيت أصول العقيـــدة الصحيحة،وإثبات نبوة محمد ﷺ،وحقيقة البعث و الحساب، سواء أكـــان الخطـــاب موجـــها إلى مشركي العرب أو إلى الكتابيين .

وسورة مريم من قديم ما نزل بمكة ـــ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[2] ـــ، وقريش في أوج غضبها وثورتها على النبي ﷺ ودعوته الجديدة، وقد رصدت كل ما أمكنها رصده لمواجهته وإثبات ولائهم لأصنامهم .

فكان نزول سورة مريم عونا للنبي ﷺ على مواجهة ضلالهم،وفيها إعلان شمولية رحمـــة الله تعالى لنبيه ﷺ وأصحابه، وتقرير وحدانيته تعالى وبراءته من شركهم،وإثبات ما أنكروه له من أسمـــاء وصفات. ونفي ما ألصقه به النصارى ـــ الذين يدعون نسبتهم لكتاب سماوي ـــ من ادعاء الولـــد له، تعالى الله عما يشركون.

وفي براءة عيسى عليه السلام رد على المشركين الذين يستدلون بصنيع النصارى لإثبات ولائـــهم لشركهم وأوثانهم .

---

1 ـــ الجاثية: 15،16

2 ـــ سبق تخريجه في المبحث الثاني، المطلب الثاني " زمن نزول السورة " ص 35

كما أن حوار إبراهيم مع أبيه في شأن الأصنام يحوي بيانا شافيا لتنصل المشركين عن دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، الذي يدعون نسبتهم إليه ويتشرفون به ، فقررت السورة براءته منهم، وأنه ما كان يقلد آباءه في شركهم .

كذلك السورة تؤكد أن دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة ،وهذا من خلال عرضها لبعض الأنبياء السابقين من العرب وبني إسرائيل .

كما أن السورة أبرزت منهج المهتدين ومنهج الضالين وما ينتظر كل فريق في الدار الآخرة التي ركزت السورة على حقائقها مليا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الرابع : نظرة المفسرين إلى موضوع السورة

تقدمت الإشارة في المطلب السابق إلى أن السور المكية تولي أهمية كبيرة لإثبات وحدانية الله تعالى،وكمال صفاته، وإثبات نبوة الأنبياء والمرسلين ،وإقامة الدلائل المثبتة للبعث والنشور.

وسورة مريم تمضي كغيرها من السور المكية في هذا السياق، إذ تعالج موضوع العقيدة من بعض زواياها .

و الوقوف على موضوع السورة بدقة، يتطلب النظر مليا في نصوص المفسرين ــ الذين أولوا أهمية لإبراز مواضيع السور وأهدافها ــ، ومناقشتها والترجيح بينها، ثم الخروج بخلاصة في ذلك .

وبعد جمع نصوصهم وترتيبها، تبين لي أنهم ــ بعد اتفاقهم على أنها تعالج موضوع العقيدة بشكل عام ــ اختلفوا في تحديد غرضها بدقة :

ــ فريق اكتفى بذكر الغرض العام ، فذكر أنها قررت عقيدة التوحيد و إثبات النبوة، وإثبات البعث.

ــ بينما ذهب فريق ثان إلى تحديد العنصر الذي تهدف السورة لتقريره وإثباته، وهو إثبات اتصافه تعالى بشمول الرحمة وسعتها، و كل عناصر العقيدة التي ذكرت فيها تتماشى وهذا الغرض في سياق التدليل لهذه الصفة.

الفريق الأول : القائلون أن التوحيد هو موضوع السورة

أولا ــ فخر الدين الرازي: لم يشر الرازي إلى موضوع السورة في مطلعها،بل أفصح عنه في بداية تناوله لقصة إبراهيم عليه السلام وبيان وجه مناسبة قصته لقصة زكريا ومريم عليهما السلام ، قال : « **اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر** ».[1]

---

1 ــ التفسير الكبير . 222/21

ويظهر من صنيعه أن السورة نزلت للرد على الذين جانبوا التوحيد وأنكروه، وهؤلاء منهم فريق أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا، وفريق أثبت معبودا غير الله جامدا لا حياة لـــه.وقـــد ردت السورة في القصة الأولى على الفريق الأول، وردت على الفريق الثاني وبينت الحق في ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام.[1]

ثانيا ــ الإمام ابن تيمية :

أبرز ابن تيمية مضمون هذه السورة وأغراضها من خلال استقرائها وتدبر كل دروســـها وما تحويه من أهداف، فقال :« مضمونها :تحقيق عبادة الله وحده ،وأن خواص الخلق هم عبـــاده، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة » .[2]

ونصه هذا يضم ثلاثة عناصر:

العنصر الأول : تحقيق عبادة الله وحده لا شريك له ،وهذا مدلول توحيد الألوهية، وفيـــه رد على الذين اتخذوا دون الله آلهة تعبد كالأوثان، والملائكة ،والمسيح وأمه عليهما الســـــلام.

العنصر الثاني : خواص الخلق هم الذين خصهم الله تعالى بالنبوة والرسالة، فهم كغيرهم مأمورون بعبادة الله وحده، وهذا العنصر يحوي الرد على التصور الاعتقادي الفاسد لطوائف مـــن أهل الكتاب والعرب الذين يرفعون بعض الأنبياء والرسل والملائكة إلى مقام الألوهية فيخصونهـــم بالعبادة.

العنصر الثالث : كرامة الله والدرجة الرفيعة هي رحمته تعالى التي أسدى بها على عبـــاده الذين توفرت فيهم أسباب الرحمة، والمتمثلة في إخلاص العبادة لله وحده، والدعوة لتوحيده ونبـــذ عقيدة الشرك، ونفي الولد عنه تعالى.

والذي يشد انتباه القارئ لكلام ابن تيمية استغراقه في إبراز ما وهبه الله لخـــواص خلقـــه: وهب لزكريا يحي،ولمريم عيسى، ولإبراهيم إسحاق ويعقوب، ولموسى أخاه هارون نبيـــا عليـــهم السلام.

---

1 ــ انظر : الرازي : التفسير الكبير .222/21

2 ــ التفسير الكبير . 183/5

فهذه مواهب أنعم بها الله تعالى على خواص عباده ،من ذرية طيبة،وعلم نافع، وعمل صالح.

فرحمة الله ـــ بمواهبه المتعددة ـــ مقترنة بالإضافة السابقة، فهي أثر لإخلاص العبادة لله وحده، المستلزم لتوحيده في ربوبيته وأسماءه وصفاته.[1]

و على الرغم من اعتباره أن هذه السورة سورة المواهب إلا أنه يرى أن هذه المواهب هي أثر إخلاص العبادة لله وحده. فالغرض من دروس السورة عنده هو توحيد الربوبية المقتضي إخلاص عبادة الله وحده، وهذه المواهب جزاء وأثر للإخلاص .

ثالثا ـ الفيروزابادي:

للفيروزابادي إشارات حول مقصود سور القرآن في كتابه **"بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز "**،واتسم أسلوبه فيه بالإسهاب حتى شمل كل العناصر الدقيقة التي تؤلف المراد العام للسورة.

ولما تناول لطائف سورة مريم، قال:« مقصود السورة ومعظم المراد منها على سبيل الإجمال:وعد الله العباد بالكفاية والهداية وإجابة دعاء زكريا، والمنة عليه بالولد يحي، وإعطائه علم الكتاب. وذكر عجائب ولادة عيسى وأمه. والخبر عن أحوال القيامة. ونصيحة إبراهيم لآزر ومناظرة آزر له. والإشارة إلى قربة موسى. وذكر صدق وعد إسماعيل، وبيان رفعة إدريس.والشكوى من الولد الخلف. وحكاية أهل الجنة وذل الكفار يوم القيامة ومرور الخلق على عقبة الصراط وابتلاء بعضهم بالعذاب، والرد على الكفار في افتخارهم بالمال، وذل الأصنام وعبادها يوم القيامة، وبيان حال أهل الجنة والنار وصعوبة قول الكفار في جرأتهم على إثبات الولد والشريك للواحد القهار. والمنة على رسوله بتيسير القرآن على لسانه. وتهديد الكفار بعقوبة القرون الماضية في قوله :﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (99) ﴾ ».[2]

---

1 ـــ انظر : ابن تيمية : التفسير الكبير . 183/5 ـــ 184 . وقد سبق ذكر قوله بتمامه في مطلب أسماء السورة .ص45 ـــ 46

2 ـــ الفيروزابادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.تحقيق:محمد علي النجار .المكتبة العلمية، بيروت . 305/1 ـــ 306

و هذه اللطائف التي أشار إليها الفيروزابادي لا تعبر عن موضوع السورة بقدر ما تعتبر ملخصا لما تناولته السورة في مقاطعها المتعددة.

رابعا ـ الطباطبائي:

اختار الطباطبائي أن يكون الكشف عن الغرض الأساسي بالآيات الخاتمة للسورة فقال: « غرض السورة على ما ينبئ عنه قوله تعالى في آخرها: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (98) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (99) ﴾ ، **هو التبشير والإنذار**، غير أنه ساق الكلام في ذلك سوقا بديعا... ».[1]

ثم تناول عناصر هذا الغرض بشيء من التفصيل فذكر ما ملخصه:

ـ الذين خضعوا وخشعوا لربهم فخصهم الله تعالى بنعمة الولاية كالنبوة والصدق والإخلاص .

ـ الذين يتوبون من الخلف فإنهم يلحقون بأهل النعمة.

ـ من هفوات أهل الغي وتهكماتهم نفي المعاد، وقولهم: ﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (89) ﴾، وعبادتهم الأصنام، وما يلحقهم بذلك من العذاب.[2]

ومن جهة ثانية أشار إلى أن السورة لوحت إلى أغراضها في المقطع الأخير منها ابتداء من آية السجدة، وأن هذا مما اختصت به السورة عن باقي السور الطوال التي اعتادت الإشارة إلى مقصدها في مطلعها و خاتمتها ، قال ـ في تفسيره للمقطع الأخير ابتداء من آية السجدة ـ: «فالآيات وخاصة الثلاث الأولى منها تتضمن حقا غرض السورة، وقد أوردته في صورة الاستنباط من القصص المسرودة فيما تقدم من الآيات، وهذا مما تتميز به هذه السورة عن سائر سور القرآن

---

1 ـ محمد حسن الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت . ط1 (1411هـ ـ 1991م) 6/14

2 ـ انظر : المصدر السابق . 6/14 ـ 7

الطوال، فإنما يشار في سائر السور إلى أغراضها بالتلويح في مفتتح السورة ومختتمها براعة الاستهلال وحسن الختام لا في وسطها ».[1]

فصفوة القول عند الطباطبائي أن السورة تثبت عقيدة التوحيد وآثارها في الدنيا والآخرة .

خامسا ـ محمد الطاهر بن عاشور :

لابن عاشور طريقة متميزة في عرض موضوع السور القرآنية، **وذلك بعدم تقييده بعبارة محددة، وإنما بعرضه في شكل مقاصد رئيسية وأخرى فرعية** .

وفي هذه السورة بدأ بأهم غرض فيها والمرتبط أساسا بجانب من الملابسات التي أحاطت بنزول السورة والمتمثل في الرد على اليهود وما اقترفوه في مريم وابنها، قال:« ويظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران و قداستهم في الخير».[2]

ولا يقصد بقوله هذا أنه الموضوع الأساسي للسورة ،وإنما أبرز العناصر الأساسية المشكلة للموضوع الذي نزلت السورة لمعالجته ،وهذا استكشاف من قصة مريم وما تحمله في طياتها من أعاجيب.

ثم تناول المقصد الأساسي الثاني للسورة والمتعلق بالتنويه بالمنعم عليهم، والإنحاء على خلفهم ممن اتخذ لله ولدا أو شريكا ـ تعالى الله على ذلك علوا كبيرا ـ، قال :« ثم التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم. والإنحاء على بعض خلفهم من ذرياتهم الذين لم يكونوا على سنهم في الخير من أهل الكتاب والمشركين وأتوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولدا،وأنكر المشركون منهم البعث وأثبت النصارى ولدا لله ».[3]

وبعد ذلك تناول بعض الأغراض كالبشارة و النذارة، وحكاية إنكار المشركين البعث وإنذارهم بذلك،وغيرها من العناصر.[4]

---

1 ـ الطباطبائي : الميزان . 6/14 ـ 7

2 ـ تفسير التحرير والتنوير. 58/16

3 ـ المصدر السابق

4 ـ المصدر السابق

والذي يميز مسلكه في الكشف عن مقاصد السورة أيضا،هو توجيه النظر إلى المفردات التي تكررت عدة مرات ،واستغلالها **لإبراز أحد الأغراض التي رسمتها السورة**، وبتدقيق نظره وجد أن صفة الرحمة تكررت عدة مرات ،فخلص إلى أن السورة تثبت هذه الصفة لله تعالى فقال: « وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمان ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله بصفة الرحمن. والرد على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾[1]». [2]

وإذا كان ابن عاشور أبرز أحد المقاصد الأساسية للسورة بلفظ تكرر عدة مرات، فإن غيره ذكر أن التكرار وسيلة هامة لاستكشاف المحور الرئيسي للسورة ككل، كما يتضح ذلك من صنيع الإمام محمد الغزالي.

فموضوع السورة عند ابن عاشور لا يتعلق أساسا ببيان اتصافه تعالى بالرحمة الشاملة، بل اعتبره عنصرا من عناصر الموضوع.

سادسا ــ سيد قطب :

يرى سيد قطب أن السورة **تعالج "قضية التوحيد" ،وتعتبر محورها العام الذي تدور حوله. ونفي الولد والشريك ،وقضية البعث هي العناصر الأساسية البارزة المؤسسة لموضوعها**، قال: « يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد ،ونفي الولد والشريك، ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد ،هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كشأن السور المكية غالبا». [3]

أما الرحمة التي تكررت كثيرا في السورة فلا يعتبرها موضوعا لها؛ وإنما هي مجرد لمسات لطيفة يحسها القارئ. شأنها في ذلك شأن الإحساس بانتفاضات الكون لوقع كلمة الشرك ، قال:

---

1 ــ الفرقان:60

2 ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير. 59/16 ــ 60

3 ــ في ظلال القرآن. دار الشروق . ط12 (1986هـ ــ 1406م) .2299/4.

«وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال. كما تحس انتفاضات الكون و ارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته ».[1]

وأشار إلى أن القصص هو مادة هذه السورة، إذ تستغرق حوالي ثلثيها، « وتستهدف إثبات الوحدانية، والبعث، ونفي الولد والشريك،وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين».[2]

أما الجزء الأخير فهو يهدف إلى ما يرمي إليه القصص، ويتناسق معه لتأليف الموضوع الرئيسي،قال: «ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث. واستنكار للشرك ودعوى الولد، وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا والآخرة ...وكله يتناسق مع اتجاه القصص للسورة ويتجمع حول محورها الأصيل».[3]

سابعا ــ محمد البهي :

استفاد الدكتور محمد البهي في الكشف عن موضوع السورة من الظروف المحيطة بنزولها، حيث اعتبرها المفتاح الأساسي لإبراز محورها العام، فانطلق أولا من كون السورة مكية؛ فهي تعالج قضايا العقيدة، وتواجه أقواما، لتبين عوار اعتقادهم وفساد أعمالهم .

أما قضية العقيدة تتمثل أساسا في عنصرين:توحيد الألوهية، ومسألة البعث، هذا بالإضافة إلى اهتمامها بمسائل أخرى تتعلق بالقرآن ،والرسول ﷺ.[4]

ثم بين أن السورة تواجه بعنصريها الأساسين فريقين،قال: « وإذ تعنى هنا بتوحيد الألوهية تواجه فريقين:

ــ فريق أهل الكتاب الذين قالوا: إن عزير ابن الله، ومن النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله.

ــ والفريق الآخر من المكيين الذين يدعون أن الملائكة بنات الله.

---

1 ــ سيد قطب: في ظلال القرآن . 4/ 2300

2 ــ المصدر السابق. 4/2299

3 ــ المصدر السابق. 4/ 2299 ــ 2300

4 ــ انظر :محمد البهي: تفسير سورة مريم "القرآن في مواجهة المادية".مكتبة وهبة. القاهرة. ص3

فشرك هذين الفريقين قائم على جعل ولد لله ،تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

أما عناية السورة بمسألة البعث فإنها تأخذ في الاعتبار مواجهة المشركين المكيين وحدهم ،لأنهم هم الذين ينكرون الآخرة بخلاف أهل الكتاب ».[1]

فموضوع السورة عند البهي إثبات العقيدة الصحيحة، ويرتكز على ثلاثة عناصر أساسية: نفي الولد ،ونفي الشريك لله تعالى، وإثبات البعث.

ثامنا ــ عبد الحميد محمود طهماز:

تناول الأستاذ طهماز السور القرآنية بالدراسة الموضوعية في سلسلة من الرسائل القيمة،ويتميز عن غيره في إبراز الموضوع العام برسمه في عنوان الدراسة.[2]

وحين تناول سورة مريم بالدراسة والبيان، أشار إلى موضوعها الأساسي في عنوانها "**التوحيد والتنزيه في سورة مريم**"، وهذا يعني أن السورة تعنى بقضية توحيد الله ﷻ، وتنزيهه عن كل ما وصمه به المشركون واليهود والنصارى .

وتبدو قناعة طهماز في تلميح آية الافتتاح لموضوع السورة جلية، وذلك بتحليلها ووضعها تحت عنوان "موضوع سورة مريم "، و بيان مفردات آية المطلع التي تعتبر مفتاح العناصر الأساسية، التي يتشكل منها الموضوع العام، قال: « تضمنت هذه الآية الكريمة ــ أي ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (1) ﴾ ــ العناصر الأساسية لموضوع سورة مريم، وهي: الرب، العبد،ورحمة الرب للعبد ،وحاجة العبد للرب، وكمال الرب جل جلاله في غناه عن كل ما سواه، وفي رحمته وإحسانه لعبيده »[3]، لكن الظاهر أن الإيجاز في البيان لم يمكنه من توضيح العلاقة بين ألفاظ الآية والموضوع الذي حدده في عنوان الدراسة.

---

1 ــ انظر: محمد البهي: تفسير سورة مريم "القرآن في مواجهة المادية" .ص3

2 ــ مثل : "سبيل السعادة في سورة طه". و" وكلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء " . دار القلم . دمشق . والدار الشامية . بيروت . ط1(1415هـ ــ 1994م) .

3 ــ التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص11

إلا ما أبرزه من كمال التذلل الذي يتصف به الأنبياء عليهم السلام، والموجب لتفانيهم في الالتجاء إلى الله تعالى بطلب فضله وإحسانه، وإعلانهم الافتقار إليه تعالى وحاجتهم لرحمته.

وهذا سر تكرار اسم "الرحمن" في السورة الذي يدل على غناه وإحسانه، وافتقار الإنسان وحاجته لربه ﷻ.[1]

فالقاسم المشترك بين هؤلاء المفسرين هو أن إبرازهم لموضوع السورة اكتسى صبغة العموم في معالجة محاور العقيدة المتعددة، دون الوقوف على النواة المركزية للسورة، والتي تدور حولها كل العناصر الأخرى. ولهذا حتى وإن استعنا بها في إبراز بعض جوانب الموضوع الرئيسي إلا أننا لا نستطيع اعتمادها في رسم عين موضوع السورة بدقة .

الفريق الثاني : القائلون أن موضوع السورة إثبات اتصافه تعالى بشمول الرحمة

أولا ـ الإمام البيضاوي :

وقفت على إشارة للإمام البيضاوي إلى موضوع هذه السورة في عبارة وجيزة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً (86)﴾ في أواخر السورة، إذ ألفت انتباهه تكرر لفظ "الرحمن" كثيرا فيها، فقال: « ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله؛ لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها »[2]

فغرض السورة في نظر البيضاوي يتألف من شقين:

الأول ـ تعداد النعم، ويفهم منه مجرد الذكر لا البيان المقرون بالأدلة. و هذا نراه قاصرا لأن سياق آيات السورة يبرز الأدلة المثبتة لصفة الرحمة التي تعتبر مصدرا لهذه النعم والمواهب.

---

1 ـ عبد الحميد محمود طهماز: التوحيد والتنزيه في سورة مريم. ص11 ، 17

2 ـ تفسير البيضاوي "مع حاشية الشهاب للخفاجي" . ضبط و تخريج عبد الرزاق المهدي . دار الكتب العلمية .بيروت . ط1 (1417هـ ـ 1997م) .314/6.

والثاني ــ الشرح المفصل لمواقف الناس تجاه نعم ربهم تعالى، من شاكرين لها وكافرين بها.وهذا يعتبر منطقيا إذ المتدبر للسورة يقف على هذين الموقفين، وكأن السورة تنقسم إلى قسمين، الأول الشاكرين لربهم المنعم عليهم، والثاني الكافرين به و الظالمين لأنفسهم.

ثانيا ــ الإمام البقاعي:

إن التمعن في صنيع البقاعي ينبئ باستعانته في تحديد الموضوع الرئيسي لسورة مريم بجملة من الوسائل تتمثل في الآتي:

1 ــ اسم السورة : إذ يرى أن اسم السورة مترجم عن مقصودها، وأنه لا يخلو من مناسبة تجمع بين الاسم والمحور الرئيسي للسورة،ولهذا نجده دائما يسعى لإدراك وجه العلاقة بينهما، وقال في هذا الصدد:

« اسم السورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه ».[1]

وفي هذه السورة لم يتسن له الكشف عن الخيوط الرابطة بين الاسم وموضوعها ــ كما سبق ذكره في مطلب أسماء السورة ــ، بل اكتفى بذكر وجه المناسبة بينه وبين الغرض الذي استخلصه من قصة مريم، قال : « وعلى هذا دلت تسميتها بمريم ؛لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة وشمول العلم » [2] ،فقيد وجه المناسبة بتمام القدرة وشمول العلم، اللذان يمثلان أقوى دليل على اتصافه بشمول الرحمة.

2 ــ مطلع السورة : تعتبر آية المطلع بمثابة المفتاح لتحديد المحور الكلي الذي تدور حوله دروس السورة وأجزائها ؛وقد استعان بها البقاعي في كشف موضوع السورة،فالآية الأولى فيها ذكر لرحمة الله على عبده زكريا عليه السلام، وهذه الصفة لا تكون إلا لمن اتصف بجميع صفات الكمال، **فالسورة غرضها إثبات اتصافه تعالى بشمول الرحمة، الذي يستلزم بيان اتصافه بصفات الكمال والجلال**. قال: « مقصودها بيان اتصافه بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع

---

1 ــ نظم الدرر . 18/1 ــ 19

2 ــ المصدر السابق . 514/4

خلقه، المستلزم للدلالة على اتصافه بجميع صفات الكمال المستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب، المستلزم لتمام القدرة الموجب للقدرة على البعث والتنزه عن الولد ؛لأنه لا يكون إلا لمحتاج، ولا يكون إلا مثل الوالد ،ولاسمي له سبحانه، فضلا عن مثيل ».[1]

3 ــ **خاتمة السورة** : إن وجه المناسبة الذي يربط خاتمة السورة بمطلعها يعين بوجه أو بآخر على تحديد مقصود السورة، و البقاعي كما أدرك الموضوع الرئيسي من خلال مطلع السورة أدركه أيضا من الآية الخاتمة، فقال: « فقد ختمت السورة بما بدأت به من الرحمة لأوليائه، والود لأصفيائه، والنعمة للذين خلفوا بعدهم من أعدائه ، بعد الرحمة للفريقين بهذا الكتاب بشارة و نذارة، فحلت الرحمة على أوليائه، وزلت عن أعدائه ».[2]

4 ــ **دروس السورة** : فالعناصر التي ترسمها دروس السورة هي بمثابة الحلقات التي تلتحم فيما بينها لتشكل المحور الرئيسي ،وعليه فأجزاء السورة عند البقاعي أبرزت الأدلة المثبتة لاتصافه تعالى بشمول الرحمة وإفاضة النعم .

فالبقاعي عد "بيان صفة شمول الرحمة لله تعالى" موضوعا للسورة، ونواتها المركزية التي تدور حولها الأغراض الفرعية لدروسها.وجعل كل غرض منها برهانا يثبت صفة الرحمة لله تعالى المتصف بصفات الكمال.

وأكد هذا الموضوع في غضون تفسيره للسورة، قال : « ولما بنيت هذه السورة على الرحمة واللطف والإحسان بعباد الرحمن عبر باسم الرب الذي صدرت به بخلاف سورة التوحيد آل عمران المصدرة بالاسم الأعظم »[3]. وقال :« هذه السورة مصدرة بالرحمة ،ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباد ه ».[4]

---

1 ــ البقا عي: نظم الدرر. 514/4

2 ــ المصدر السابق . 526/4

3 ــ المصدر السابق . 528/4

4 ــ المصدر السابق. 527/4

ثالثا ـ عبد الرحمن السعدي:

للشيخ السعدي[1] لطائف و فوائد مختصرة جمعها في رسالة لطيفة سماها " **المواهب الربانية من الآيات القرآنية** "، وكان فيما ذكره الموضوع العام لسورة مريم، فقال :« سورة مريم عليها السلام قد اشتملت على تفاصيل عظيمة من ذكر رحمة الله بأنبيائه، وأصفيائه، وأحبابه، وما من عليهم به في الدنيا من نعم الدين و الدنيا والنعم الظاهرة والباطنة، وما يكرمهم به من الذكر الجميل و الثناء الحسن، ووصفهم بأحسن أوصافهم ونعتهم بأشرف نعوتهم ، و ما يكرمهم به في الآخرة من الثواب والفضل العظيم .

وذكر رحمته أيضا بأعدائه حيث عاملهم بالحلم والصفح وتصريف الآيات لعلهم يرجعون ...ولذلك أكثر الله فيها من ذكر اسمه الرحمن الذي هذه آثاره ، ومن ذكر الرحمة » .[2]

رابعا ـ محمد الغزالي :

الظاهر من خلال تتبع مؤلفات الشيخ محمد الغزالي المتعلقة بالدراسات القرآنية وغيرها، أنه كان يمعن النظر في الألفاظ والعبارات المتكررة في السور القرآنية، ويجعلها مسلكا ثابتا ووسيلة هامة لاستكشاف المحور الرئيسي للسورة القرآنية، وهذا ما يؤكده قوله:« ولكي نستكشف المحور الذي تدور عليه السورة نوجه النظر إلى كلمة تكررت سبع أو ثماني وتسع مرات في هذه السورة ... » [3]. ولهذا نجده ركز على إبراز الألفاظ المتكررة في كثير من السور، منها: سورة البقرة، وآل عمران،و هود، و الإسراء، و المائدة،والأحزاب، ومريم، وغيرها.

---

1 ـ هو أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم ، ولد سنة (1307هـ) ، عاش يتيما ، وأخذ العلم عن مجموعة من العلماء ، منهم : محمد الأمين الشنقيطي ، و عبد الله بن عايض الحربي ، إبراهيم بن حمد ابن جاسر . و له العديد من المؤلفات ، منها : "تيسير المنان في تفسير القرآن " ، "الدرة المختصرة في محاسن الإسلام "، "القواعد الحسان لتفسير القرآن " . توفي سنة (1376هـ) . من مقدمة المحقق أبي عبد الرحمن سمير الماضي لكتاب " المواهب الربانية من الآيات القرآنية " . دار رمادي للنشر ط2 (1417ه ـ 1996م) . ص 9 ـ 17

2 ـ المواهب الربانية من الآيات القرآنية . ص 58

3 ـ خطب الشيخ محمد الغزالي . 162/3

وقد يصرح بموضوع السورة من خلال ما تكرر فيها، وقد يكتفي بمجرد التلميح ،أو أن المكرر جزء من الموضوع العام .

و سورة مريم اكتفى فيها بذكر ما تكرر، دون التصريح بموضوعها، قال : « وقد لوحظ أن اسم الرحمن من أسماء الله الحسنى تكرر في هذه سورة ست عشرة مرة ...» [1]، فلم يشر إلى العلاقة التي تربط الاسم المتكرر"الرحمن " بباقي العناصر التي تتظافر آيات السورة لتجسيدها، مما يجعل ضبط موضوع السورة في تصور الشيخ أمرا صعبا؛ إلا أن ما أبرزه من تمركز الرحمة وتكررها في قصص السورة ابتداء من آية المطلع يمكن أن يكون أداة ربط بين المتكرر ومحتوى الآيات، قال :« ومن اللطائف أن تفتتح السورة بكلمة الرحمة ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (1) ﴾ ، وقد تكررت الكلمة أربع مرات خلال السورة، وهي تتحدث عمن أنعم الله عليهم، ولا عجب فالإنعام نابع من الرحمة، وكل شيء يتعرض الناس له فهو نابع من حكمة عرفها من عرفها ،وجهلها من جهلها » [2]، وفي هذا النص إشارة إلى مناسبة ذكر الرحمة لقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين اصطفاهم ربهم بالنبوة والرسالة ،هذه النعمة الدالة على منعم متصف بكمال القدرة وشمول العلم.

وفي هذا النص أيضا تلميح إلى أن سورة مريم تحدثت عن صنفين من الناس ،ذكر منهم الشيخ الصنف الأول "الذين أنعم الله عليهم" وما أفاضه الله عليهم من رحمته .أما الصنف الثاني يتمثل في« الخلوف التي تجيء من بعد ذلك ،فقد ابتعدت عن الضوء وخبطت في ظلام »[3]، ظلام العناد واتخاذ الشريك والولد وإنكار البعث والحساب؛ إلا أن الشيخ لم يوضح كون النذارة والتهديد بالوعيد وإثبات البعث والحساب قبل مجيء موعده يعتبر من باب رحمة الله بخلقه وإنعامه عليهم بأن حذرهم قبل الهلاك .

---

1 ــ محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن . ص241

2 ــ المصدر السابق . ص242

3 ــ المصدر السابق . ص244

وعليه يظهر أن الشيخ يرى أن السورة تتحدث عن المنعم عليهم ــ الأنبياء والرسل ومن سار على هديهم ــ ، والمغضوب عليهم ،يتمثلون في خلفهم الذين اتخذوا مع الله شريكا أو ولدا والذين أنكروا البعث والحساب .

خامسا ــ رفعت فوزي عبد المطلب :

استعان الدكتور رفعت ــ كسابقه ــ في إبراز موضوع السورة بآية المطلع، وهذا انطلاقا من تصوره الذي ذكره في دراسته النظرية للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، حيث قال: « أن السورة في القرآن الكريم تشير في أوائلها إلى موضوعها، وتشير إليه في خاتمها».[1]

ورأى أن الآية الفاتحة تشير **إلى إثبات رحمة الله لعباده المخلصين كموضوع أساسي للسورة** .

وبين أن رحمة الله شملت زكريا ويحي ومريم وعيسى وإبراهيم عليهم السلام. والإشارة العابرة لموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام لا تخلو من إبراز موضوعها العام .[2]

واستوقفت الدكتور رفعت كلمة الرحمن المتكررة في السورة والتي تؤكد الموضوع الذي أعلن عنه،قال: « ولعلنا نلتفت إلى كلمة الرحمن والرحمة التي تكررت كثيرا في هذه السورة ؛ لأن موضوعها الرحمة كما قلنا ».[3]

وكما استقى موضوع السورة من مطلعها ،استقاه أيضا من خاتمتها،إذ يقول:« واختتمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من أن الرحمن ﷻ يجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات الود والحب،وأنه تعالى يسر القرآن ليبشر به الرسول ﷺ المتقين وينذر به الخصمين المعلندين:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا (97) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ

---

1 ــ الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية . مجلة رسالة التربية . ص25

2 ــ انظر : المصدر السابق . ص27 ــ29

3 ــ المصدر السابق. ص29

بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا (98) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (99) ﴾ ».[1]

و بعد عرض نصوص هذا الفريق من المفسرين، نستطيع القول أن الموضوع الذي تدور حوله آيات السورة في نظرهم " **إثبات رحمة الله لعباده المخلصين** "، وقد سلكوا في تحديده المسالك الآتية :

ـ اتفقوا على اعتبار تكرار بعض الألفاظ في السورة مسلكا لتحديد موضوعها، ولما كان تكرار هذه الألفاظ " الرحمن ، الرحمة ، وما في معناها " أكثر من غيرها ترجح لديهم أن الإطار العام للسورة يدور حول الرحمة .

ـ النظر في فصول السورة وما تحويه من دلائل تقوي نظرتهم الأولى، فكان حديث السورة على جليل نعمه على المصطفين من عباده ، وما صحبتها من معجزات لتحقيقها ظاهرة في شطر السورة الأول .

و الشطر الثاني كان لتناول نعم الله وفضله بشكل آخر؛ إذ ركزت على الذين كفروا بنعم الله تعالى وإنذارهم بالوعيد الشديد إن تمادوا في غيهم، وبالمغفرة والجنة إن رجعوا عن ضلالهم. و النذارة وما يتبعها من إمهال رحمة من الله ما لم يحل عليهم عذاب الرحمن .

فدروس السورة تؤكد معاني تلك الألفاظ المتكررة التي اعتمدها المفسرون لرسم موضوع السورة الرئيسي .

ـ نظر معظمهم إلى آية المطلع، فوجدوها افتتحت بذكر الرحمة، مما يؤكد ترجيح معالجة السورة لقضية الرحمة من قضايا التوحيد. لكن نظرتهم تلك كانت ـ في نظري ـ نوعا ما غير كافية ؛ لأن الاستعانة بها في استخلاص موضوع السورة بدقة يتطلب تتبع كل ألفاظها وتحليلها وإيجاد العلاقة الرابطة فيما بينها ، هذا ما سنفصل فيه القول في المطلب الأتي إن شاء الله تعالى .

---

1 ـ رفعت فوزي عبد المطلب:الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية . ص 29 ـ 30

المطلب الخامس : تحديد موضوع السورة من خلال المطلع

أولا ــ حروف الهجاء في مطلع السورة :

تعددت آراء العلماء حول مدلول حروف الهجاء العربية التي افتتحت بها كثير من سور القرآن الكريم،وهذا بعد إطباقهم على عدد هذه الحروف وترتيبها ،إلا ما وقع بينهم من اختلاف يسير في قراءتها،وخاصة في الحروف الممالة منها .

واختلافهم هذا ليس وليد الأزمان المتأخرة ، بل جذوره ممتدة إلى زمن الصحابة، وسببه عدم ورود أي خبر يصح إلى النبي ﷺ يثبت معنى محددا لهذه الحروف ،ولا سأله أحد من الصحابة عن ذلك ، الأمر الذي جعل تفسيرها تخمينيا، مبنيا على الظن والاجتهاد.

وسورة مريم انفردت عن باقي السور بصيغة من خمسة حروف[1] متواصلة،إلا سورة الشورى التي افتتحت بمثلها في عدد الحروف وتختلف عنها في عدم تواصل حروفها (حم عسق)، وانفردت كل منهما بأربعة حروف ،واشتركتا في حرف العين.

والذي نود توضيحه في هذا المبحث ،هو إعطاء لمحة موجزة عن أهم الآراء الواردة عن العلماء، مع التركيز على المواقف التي تفسر فيها هذه الحروف بمقتضى علاقتها بما بعدها من الآيات ،وتطبيق ذلك في سورة مريم .

1 ــ فواتح السور هي سر القرآن الذي استأثر الله بعلمه ، فهو من المتشابه الذي يؤمن بظاهره ويترك باطنه لله تعالى .وهو مروي عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود رضي الله عنهم،

---

1 ــ سور القرآن المفتتحة بالحروف المقطعة تنقسم إلى خمسة أقسام من حيث عدد الحروف :سور بدئت بحرف واحد،مثل:ن،ق ،ص . وسور بدئت بحرفين ،مثل : حم ، طس . وسور بدئت بثلاثة حروف مثل : ألم ،ألر . وسور بدئت بأربعة حروف ،مثل : ألمر ،ألمص . و سورتان بدئتا بخمسة حروف ،وهما : سورة مريم (كهيعص) ، والشورى (حم ،عسق)

والشعبي وسفيان الثوري،وأبي حاتم بن حبـــان [1].وذكر الرازي أن هذا المذهب لم يرضه كثـــير مـــن المحققين.[2]

2 ــ ورأى آخرون أن هذه الفواتح هي أسماء للسور، منهم :عبد الرحمن بن زيـــد بـــن أسلم، ومجاهد و قتادة [3].و اختاره كثير من المتكلمين ، والخليل بن أحمد الفراهيدي، و سيبويه[4]، وقال الزمخشري:عليه إطباق الأكثر.[5]

و نقل ابن محكم الهواري عن الحسن بإسناد معلق أنه كان يقول: « لا أدري ما تفســـيره ، غير أن قوما من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون : أسماء السور ومفاتيحها».[6]

3 ــ وذكر جماعة أن تلك الحروف مقتضبة من أسماء الله تعالى،فالألف من "الله"، واللام من "اللطيف"، والميم من " مجيد" [7].و(كٓهيعٓصٓ) الكاف من "الكافي"أو "الكبير"أو "الكريم"،والهاء من "الهادي" ، والياء من "الولي" أو"الحكيم" أو "الرحيم"، والعين مـــن "العليـــم" أو "العظيـــم"، والصاد من "الصادق الوعد". وقيل مجموعها اسم من أسمائه تعالى .[8]

4 ــ أقسم الله بهذه الحروف أن القرآن منزل من عنده لا ريب فيه، وهذا يدل على قدرها ومكانتها عنده تعالى، إذ هي أصل كلمات القرآن ومبانيه.[9]

5 ــ حروف الهجاء في أوائل بعض السور تعتبر أحد وجوه الإعجاز الذي تميز به القـــرآن الكريم؛فسرد هذه الحروف بهذا النظم الغريب من عين ما يؤلف به فصحاء العـــرب وبلغـــاؤهم

---

1 ــ انظر: الزركشي : البرهان في علوم القرآن 174/1 ــ 175 . وابن عطية .المحرر الوجـــيز .3/4 .و الطبرســـي : مجمـــع البيان.68/1 . والألوسي : روح المعاني. 413/8 . و القاسمي : محاسن التأويل . 32/2

2 ــ انظر: التفسير الكبير . 3/2 ــ 6

3 ــ ابن عطية: المحرر الوجيز .3/4 . الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 174/1

4 ــ الرازي: التفسير الكبير. 6/2

5 ــ الكشاف. 83/1

6 ــ هود بن محكم الهواري : تفسير كتاب الله العزيز . تحقيق : بالحاج بن سعيد شريفي . دار الغرب الإسلامي . بـــيروت . ط1 (1990م) . 5/3

7 ــ الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 173/1

8 ــ الطبرسي: مجمع البيان .70/1 . ابن عاشور: التحرير والتنوير .61/16

9 ــ انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 173/1

كلامهم يهيج أسماع المنكرين ويوقظ هممهم ،ويستيقنوا أن الذي تهاوت مقدرتهم دونه خليق بالنظر فيه ،والوقوف على معانيه بعد حفظ مبانيه. [1]

وذكر الشنقيطي أن استقراء القرآن يدل على رجحان المعنى الإعجازي للحروف المقطعة،فالسور المفتتحة بهذه الحروف يذكر فيها بعدها مباشرة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا ريب فيه،وهذه شهادة استقرائية لإثبات هذا المعنى.[2]

وانطلاقا من هذا الاعتبار نجد العلاقة بين المعنى الإعجازي لهذه الحروف من جهة ، و مقاصد آيات السورة من جهة ثانية. وذلك لما أعجزهم الله تعالى بالمباني اللفظية ليثبت لهم أن القرآن منزل من عنده تعالى وحده ، ذكرهم بوجه آخر من وجوه القدرة الإلهية والمتمثلة في حرية إرادته وطلاقة مشيئته التي لا تحدها الأسباب المألوفة ،فولد يحيي عليه السلام من شيخ كبير وأم عاقر، وولد عيسى عليه السلام من أم دون أب .

6 ــ المقصود منها الاسترعاء والتنبيه لإيقاظ ذهن السامع إلى خطورة ما يعرض من مواضيع.[3]

وعلى هذا الاعتبار يمكن القول أن سلسلة الآيات التي تلت الحروف الخمسة في سورة مريم قد احتوت قصصا تبين عظمة الله ﷻ وكمال قدرته على إحداث الأمور المستغربة في سنن البشر،مما يستدعي لفت الانتباه بأمر تظهر فيه مثل تلك العظمة، فكان جرس هذه الحروف بهذا الشكل الذي عجز عن فهمه الفصحاء من العرب هو الأداة الفعالة لذلك .

ورأى محمد البهي الغرض من هذه الحروف الخمسة يتمثل في وضع السامع والقارئ أمام معادلة بسيطة وواضحة هي: « أن ما تذكره السورة من قصة الفضل والرحمة هنا على عبد الله زكريا عليه السلام من الله يساوي في الوقوع والصدق ما لهذه الأحرف من الهجاء العربي من حق وصدق عند العرب أنفسهم وممن يعرفون هذا الهجاء ».[4]

---

1 ــ الزركشي : البرهان في علوم القرآن. بتصرف .176/1 . وانظر .القاسمي .محاسن التأويل .32/2

2 ــ محمد الأمين الشنقيطي:أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . الرياض (1403هـ ــ 1983م) بتصرف .4/3

3 ــ انظر : المراغي: تفسير المراغي . 39/1 ، 33/16 . ومحمد عزة دروزة . التفسير الحديث . 37/2

4 ــ تفسير سورة مريم " القرآن في مواجهة المادية". ص 9

ثانيا ــ دلالة آية المطلع على موضوع السورة :

قال الله ﷻ:﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ (1)﴾

و تناول هذه الآية من مطلع السورة ــ بعد الحروف المقطعة ــ يقتضي الكلام حول المفردات المؤلفة لعبارتها ،ليتسنى لنا بذلك الوصول بكل دقة وأمان إلى ما تهدف إليه من معان .

والكلمات التي تتركب منها الآية،هي: الذكر،الرحمة،الرب، العبد .

1 ــ الذكر: تكررت مشتقات الذكر ست مرات في السورة ،المشتق "ذكر" مرة واحدة في آية الافتتاح، والفعل المشتق "اذكر " خمس مرات في قصص السورة. وهذا ما تميزت به هذه السورة، فهي تعتبر أول سورة ورد فيها لفظ" واذكر" في قصص الأنبياء عليهم السلام.[1]

ولفظ الذكر يطلق ويراد به استحضار ما يحفظ من معارف ،وتارة يراد به حضور الشيء القلب.وعليه فالذكر أنواع[2]:

ــ ذكر باللسان ،كقوله ﷻ : ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ .[3]

ــ ذكر بالقلب واللسان ،كقوله ﷻ :﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ .[4]

ويطلق الذكر ويراد به الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل.[5]

والذي يتنزل من هذه المعاني على الذكر في آية المطلع هو المعنى الأخير إلى ضميمة المدلول اللساني والقلبي للذكر ؛وذلك لأننا إذا اعتبرنا بالقول الراجح في كون "ذكر " في الآية خبر لمبتدأ

---

1 ــ الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن . ص179

2 ــ ابن منظور:لسان العرب المحيط . 1071/2

3 ــ الأنبياء : 50

4 ــ البقرة : 199

5 ــ انظر : ابن عاشور . التحرير و التنوير . 61/16

محذوف تقديره: هذا ذكر، يكون المعنى:هذا الكتاب فيه ذكر رحمة الله تعالى التي أنعم بها على عبده زكريا عليه السلام.فيتنزل بذلك المدلول الأخير الذي ذكره ابن منظور على الذكر في الآية.

ولما نزلت السورة في جو تملأه الأحقاد والضغائن المعلنة على النبي ﷺ، مع قلة الاتباع واتساع دائرة الإنكار والإيذاء ،الحال الذي يتطلب معه التذكير بالرحمة والسرور والتسلية من أرحم الراحمين، ولما شابه حاله هذا حال عبد الله زكريا عليه السلام الذي ألم به اليأس من الولد وبلغ تخوفه على أمر الدعوة إلى عبادة الله وحده من بعده مبلغا عظيما ــ ذكره ربه عز وجل بأنه لن يتخلى عنه ويغمره برحمته التي غمر بها عبده زكريا وغيره من المصطفين عليهم السلام من قبله .

ولتحقيق هذه الغاية جاء نظم تأليف هذه الآية بأسلوب بديع وموجز ، مع ما يحمله لفظ "ذكر" من الليونة والهدوء اللذان يتناسبان مع غرض ورود الرحمة في هذه الآية من تحقيق الطمأنينة والسكينة في نفس النبي ﷺ .

2 ــ الرحمة : تكرر هذا المصدر ومشتقاته في السورة عشرين مرة ، المصدر تكرر أربع مرات،واسم الجلالة "الرحمن" ست عشرة مرة.وهو ما تفردت بذكره السورة وتميزت به على باقي السور الكريمة.

كما تكررت ألفاظ وتراكيب تستمد معانيها من الرحمة في أزيد من خمسة عشرة موضعا ، مثل: الهبة، الحنان، البر، السلام، الحفاوة، الود، وغيرها.[1]

والرحمة مدلولها الرقة والتعطف والإحسان والمغفرة. ووردت في القرآن الكريم للدلالة على معاني عدة لا تخرج عن دائرة هذا المدلول،منها:

ــ ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[2] أي يختص بنبوته من يشاء.

ــ ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾[3] أي هو رحمة لأنه كان سبب إيمانهم

---

1 ــ انظر الآيات : 4 ، 12 ، 13 ، 14 ، 18، 31 ، 32 ، 47 ، 48 ، 49 ، 50 ، 53 ، 58 ، 62 ، 72 ، 97 ، 98 .

2 ــ البقرة : 105

3 ــ التوبة : 61

ـ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1] أي عطفا وصنعا.

ـ ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ ﴾[2] أي حيا وخصبا بعد مجاعة،وأراد بالناس الكافرين.[3]

وميز الراغب الأصفهاني بين استعمالين اثنين للرحمة ،فقال : « الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم،وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة،وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة،نحو:رحم الله فلانا.وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة،وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام و إحسان ،ومن الآدميين رقة وتعطف ...فركز تعالى في طبائع الناس الرقة ،وتفرد بالإحسان» [4]

فالرحمة في المخلوق رقة في القلب من آثارها العطف والإحسان ، وفي الخالق صفة من صفاته ﷻ كتبها على نفسه ،وهي تستلزم التفضل بالإنعام والإحسان والإكرام،وهي أجل صفة تتدفق بفيض عطاءاته دون حساب.

و "الرحمن" صفة مشبهة باسم الفاعل على وزن "فعلان" الذي يفيد المبالغة في الرحمة ، أي أنه وسع كل شئ رحمة ﴿ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[5]، فأسبغ نعمه الظاهرة والباطنة على عباده.[6]

وهو اسم وصفة خاصة به ﷻ، من صفات الذات العلية ، لا يصح أن يتصف بها أي مخلوق ، وبالتالي لا يصح أن يتسمى بها، ويدل على اختصاصه تعالى بهذه الصفة دون غيره قوله

---

1 ــ الأنبياء : 107

2 ــ يونس : 21

3 ــ ابن منظور. لسان العرب . 1144/2

4 ــ المفردات في غريب القرآن . ص191

5 ــ يوسف : 64

6 ــ انظر: ابن منظور. لسان العرب . 1144/2

تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[1]، حيث جمعت هذه الآية بين الاسمين العظيمين له جل وعلا، أو أعظم اسم وأعظم صفة .[2]

« والرحمن أبلغ من الرحيم ؛لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى غالبا ...فالرحمن صفة في الأصل بمعنى كثير الرحمة جدا ثم غلب على البالغ في الرحمة غايتها ».[3]

ويظهر الفرق بين اللفظين في كون « الرحمن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم . والرحيم خاص في رحمته لعباده المؤمنين بأن هداهم للإيمان وثبتهم في الآخرة بالثواب الدائم الذي لا ينقطع ».[4]

و تخصيص رحمة "الرحيم" بعباده المؤمنين يؤكدها أيضا الطبري في تفسيره [5].وابن منظور[6] في إشارته ــ في قوله تعالى:﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ــ إلى مجيء الرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به ،في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.[7]

وصفة الرحمة التي أرادت السورة بيانها وإثباتها لله ﷻ كان ورودها شاملا لجميع الخلق دون استثناء، إلا أن الاستعمال الاصطلاحي لمشتقاتها في السورة يوحي بوضع المصدر"رحمة " في موضع ذكر نعم الله وفضله على أنبيائه ورسله وخلفهم من المتقين ،والمشتق "الرحمن " في مواضع الدعاء والعبادة،والوعد والوعيد،أي في بيان وإبراز هذا الاسم لله تعالى الذي طالما أنكره مشركو العرب.

---

1 ــ الإسراء : 109

2 ــ حسن باجودة : تأملات في سورة الفاتحة . مطبوعات رابطة العالم الإسلامي . باختصار . ص 36

3 ــ أحمد بن إبراهيم بن عيسى : توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم .تحقيق:زهير شاويش . المكتب الإسلامي بيروت . ط3(1406 هـ) . 14/1

4 ــ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد :تفسير الأسماء الحسنى .تحقيق : أحمد يوسف الدقاق .دار الثقافة العربية دمشق (1974م) . ص29

5 ــ جامع البيان . 78/1

6 ــ لسان العرب . 1144/2 . وانظر : مجد الدين الفيروزابادي : القاموس المحيط . دار الكتاب العربي . بيروت . 117/4 ــ 118

7 ــ النساء : 43

3 ــ الربّ : الراء والباء يدل على أصول:

فالأول ــ إصلاح الشيء و القيام عليه ، فالرب المالك والخالق والصاحب.و الرب المصلح للشيء و الله جل ثناؤه الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه. والربي: العارف بالرب.

والأصل الآخر ــ لزوم الشيء والإقامة عليه، وهو مناسب للأصل الأول .

والأصل الثالث ــ ضم الشيء إلى الشيء.[1]

الرب بمعنى التربية، هو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، يقال: ربه ، وربّاه ، وربيه ... والرب مستعار للفاعل ولا يقال الرب مطلقا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات ...والربوبية مصدر يقال في الله ﷻ .[2]

ويطلق الرب على المالك ،و السيد ،والمدبر ،والقيم ،والمنعم .

فالله ﷻ ، هو رب كل شيء أي: مالكه ومستحقه، له الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له... والعباد مربوبون له تعالى[3] بالاستسلام والخضوع وعبادته وحده لا شريك له،لاحتياجهم لإحسانه،وافتقارهم لنعمه وفضله.

قال الطبري:« فربنا جل ثناؤه السيد الذي لا شبيه له ،ولا مثل في مثل سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ،والمالك الذي له الخلق والأمر ».[4]

وقد تكرر لفظ "رب " في هذه السورة ثلاث وعشرين مرة [5]، مسوق في غالبها بمعنى المصلح لشؤون الخلق بما أسبغ عليهم من النعم، وهو بذلك يناسب الرحمة بمظاهرها المتعددة التي تهدف السورة إلى إثباتها .

---

1 ــ أبو الحسن بن فارس: معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون.دار الفكر (1399هـ ــ 1979م) . 371/2ــ 372

2 ــ الراغب الأصفهاني :المفردات في غريب القرآن. ص184 . وانظر : الفيروزابادي .القاموس المحيط .70/1

3 ــ ابن منظور : لسان العرب . بتصرف. 1098/2

4 ــ جامع البيان . 78/1 . وانظر : القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 175/1 . و الشوكاني . فتح القدير . 30/1

5 ــ انظر: الآيات : 1 ، 2 ، 3 (مكرر) ، 5 ، 7 ، 8 ، 9 ، 18 ، 20 ، 23 ، 35 (مكرر)، 47 ، 48 (مكرر)، 55 ، 64 (مكرر)، 65 ، 68 ، 71، 77 .

4 ــ **العبد** : الأصل فيه الإنسان المملوك وهو خلاف الحر، ويطلق على الإنسان حرا كان أو رقيقا.وأصل العبودية الخضوع والتذلل.[1]

وكل من في السماوات والأرض من إنس وجن وملائكة مملوك لربه الخالق الرازق المدبر لشؤونهم ومصلحها، فهم جميعا عباد له ،كما يقول ﷻ:﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴾.[2]

و مما سبق تفصيله في هذا المطلب يتضح أن اللفظين "رحمة" و"رب" قد تكررا كثيرا في ثنايا السورة، الأمر المشعر بوجود علاقة متينة بينهما في رسم موضوعها.

و في آية المطلع وقعت إضافة الرحمة للرب دون غيره من أسماءه تعالى، و هذا لأن الرحمة صفة ثابتة من صفات ربوبيته تعالى، فجاءت الإضافة لهذا الغرض ؛ و لأن من معاني الرب ــ المشعرة بالصلة بين الرب والعبد ــ العطف والرحمة. ولهذا ذكرنا أن الرب في ثنايا السورة غالبا ما يتجه مراده لهذا المعنى .

ولورود العبد دلالة تزيد في موضوع السورة دقة، إذ العبد إذا أطلق انصرف إلى المرء الذي يستشعر في نفسه كمال بشريته المقتضية للفقر والحاجة لرب العالمين، وإذا أضيفت للضمير الذي يعود على الرب "عبده " تقتضي اعتقادا راسخا لدى العبد بكمال عبوديته لربه تعالى بالاستسلام الذي يقتضي الخضوع والذل والافتقار والضعف والحاجة إليه ﷻ. وهذه مرتبة عليا ودرجة رفيعة لا يصل إليها غالبا إلا المصطفين من عباده ، ولهذا جاء تخصيص أكثر من نصف السورة الأول لهؤلاء المصطفين ، والباقي لتجلية رحمته تعالى بعوام عباده المتقين.

وعليه يكون موضوع السورة "**إثبات صفة رحمة رب العالمين لعباده المتقين**"

وحتى نقف على مصداقية هذا الموضوع الذي استلهمناه من آية المطلع ننتقل إلى مقاطع السورة لننظر إلى مدى تطابق تحليلها لهذا الموضوع الذي حددناه هنا.

---

1 ــ ابن منظور: لسان العرب بتصرف . 664/3 ــ 667 . وانظر : الفيروزابادي . القاموس المحيط . 311/1

2 ــ الأنبياء :19

الفصل الثـــاني

مظاهر رحمة الله بخواص عباده وأسبابها

المبحث الأول ـ مواهب الله تعالى لعبده زكريا عليه السلام

المطلب الأول ـ زكريا عليه السلام أنموذج لكمال العبودية

المطلب الثاني ـ صفات الرضا في يحيى عليه السلام

المبحث الثاني ـ آية الله ورحمته في عيسى عليه السلام

المطلب الأول ـ تمام قدرة الله تعالى في ولادة عيسى عليه السلام

المطلب الثاني ـ اعتراف عيسى عليه السلام لنفسه بالعبودية و لربه بكمال *الإنعام*

المطلب الثالث ـ تقرير ربوبية الله تعالى وتنزهه عن الولد

المبحث الثالث ـ أسباب نيل رحمة الله تعالى

المطلب الأول ـ حكمة إبراهيم في التوجيه إلى ضرورة نبذ الشرك

المطلب الثاني ـ مقابلة آزر نعمة التوحيد بالكفر والعناد

المطلب الثالث ـ مواهب الله تعالى لعبده إبراهيم عليه السلام

المطلب الرابع ـ نعم الله تعالى على عباده موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام

المطلب الخامس ـ آثار إخلاص العبادة لله وحده

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال الله ﷻ: ﴿ اذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (2) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (3) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (4) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (5) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (6) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (7) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (8) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (9) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (10) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (11) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (12) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (13) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (14) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (15) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (16) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (17) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (18) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (19) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (20) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (21) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (22) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (23) وَهُزِّي

إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (24) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا
تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ إِنْسِيًّا (25) فَأَتَتْ بِهِ
قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (26) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ
سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (27) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا (28) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (29) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (30) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا (31) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (32) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (33) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (34) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ (35) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(36) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (37) وَأَنْذِرْهُمْ
يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (38) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (39) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا
نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ
الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ
الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ

لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
حَفِيًّا (47)وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ
رَبِّي شَقِيًّا (48)فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا
جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) وَاذْكُرْ فِي
الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ
الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)وَاذْكُرْ
فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54)وَكَانَ
يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ
إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56)وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ
هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)﴾ .

المبحث الأول ـ مواهب الله تعالى لعبده زكريا عليه السلام

قال الله ﷻ: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (2) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (3) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (4) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (5) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (6) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (7) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (8) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (9) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (10) يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (11) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (12) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (13) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (14) ﴾.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

قصة زكريا عليه السلام من القصص التي توسط القرآن في عرض أحداثها وسرد تفاصيلها تارة، و اختصر وأشار تارة أخرى.

فقد وردت مختصرة في آيتين من سورة الأنبياء، ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [1]، « وكان ورودها في سياق يهدف إلى أمرين اثنين:

— حاجة الأنبياء وافتقارهم إلى الله تعالى مما يدل على عبوديتهم له سبحانه .

— عنايته بهم ،واستجابته لدعائهم ،وكثرة رحماته ،و ألطافه المحيطة بهم عليهم الصلاة والسلام ».[2]

ووقعت الإشارة لزكريا عليه السلام في سورة الأنعام ،في معرض ذكر الأنبياء والرسل الذين اتصفوا بالصلاح والتقوى ،فكان لهم شرف النبوة والاصطفاء بالرسالة،﴿ وَزَكَرِيَّآ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾.[3]

أما التوسط ففي موضعين:

الأول — في سورة آل عمران المدنية [4]،التي تشبه في عرض فصول قصته سورة مريم،إلا ما ورد فيها من التركيز على نعمة الله تتجلى أمامه كلما دخل على مريم في محرابها وجد عندها الرزق الإلهي ، السبب الذي دفعه للدعاء طمعا في رحمة ربه تعالى .

الثاني - وسورة مريم عرضت قصته بأسلوب فني متميز، وذلك بتقديم العرض المجموعي الخاصة على باقي أجزائها ، مما يبشر بالاهتمام البالغ بالمقدم أكثر من غيره ، إذ بينت الآية

1 — الأنبياء : 88 ، 89

2 — طهماز : كلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء . بتصرف . ص47

3 — الأنعام : 86

4 — انظر : ال عمران : 37 — 41

السابقة للقصة لبّها المتمثل في رحمة الله لعبده زكريا، ثم توالت حلقاتها المفصلة والمبينة لهذا الغرض.[1]

ولما كان من الأغراض الأساسية التي يرمي إليها القصص القرآني بيان نعمة الله وفضله وإحسانه على أنبياءه ورسله وعباده المتقين ، جاءت قصة زكريا عليه السلام لتبرز في فصولها هذه المنقبة،معتبرة إياها الغرض الأول من تناولها وعرضها.

المطلب الأول ـ زكريا عليه السلام أنموذج لكمال العبودية

استهلت أحداث قصة زكريا عليه السلام بإظهار كمال تذللِهِ وضعفه المستلزم لافتقاره واحتياجه لربه الغني المتعالي ،فاستغنى به عمن سواه ،فناجاه طمعا في فضله وإحسانه .

وباعتبار الآية ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(2) ﴾ ،ظرفا للآية السابقة ،يمكن القول أن تنزل رحمة رب العالمين كان بسبب مناجاة زكريا عليه السلام .

وتصريح الآية بخفاء النداء ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾، يوحي بدلالات عدة، إذ غرض الإخلاص متحقق في مجرد الدعاء ،فإذا قرن بالخفاء أضاف معنى جديدا لا يخلو من التفاتات نتتبعها في ثنايا القصة.

منها ما أشار إليه جل المفسرين من المعنى المفضي لإخلاص العبادة لله وحده، بعيدا عن أعين الناس وأسماعهم ،لأنه أمكن لإجابة الدعاء.[2]

---

1 ـ ذكر سيد قطب أنه لاحظ في قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة ،على النحو التالي: ا ـ مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ، كقصة أصحاب الكهف . ب ـ ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها،كقصة موسى في سورة القصص ج ـ ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ،كقصة مريم عند مولد عيسى ... د ـ ومرة يحيل القصة تمثيلية ،فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها... » التصوير الفني في القرآن .دار الشروق ط8 (1403هـ ـ 1983م) بتصرف .ص180 ـ183

2 ـ انظر : الألوسي : روح المعاني . 379/8 . ابن عاشور . التحرير والتنوير . 62/16 ـ 63 . سيد قطب في ظلال القرآن . 2301/4 ـ 2302

وتقييد الآية بهذا المفهوم نراه غير كاف ؛لأن حال زكريا عليه السلام حال النبي العابد الناسك المخلص في عبادته لربه ،ويبعد أن يكون تخوفه من الرياء هو الدافع الوحيد لخفاء ندائه ومناجاته، بل تنظم إليه دوافع أخرى شاركت في تحقيقها تخوفات زكريا عليه السلام على ميراث النبوة والعبادة الخالصة لله وحده لا شريك له ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ(5)﴾.

ولما أيقن زكريا عليه السلام استجماع أسباب الضعف ،وأنه لا حول له ولا قوة إلا أن يغدق عليه ربه من فيض جوده وكرمه ،ناداه بعبارة مشعرة بقربه منه ﴿قَالَ رَبِّ﴾، فحذف أداة النداء ليدل على دنوه منه.

ولما كانت مناجاته في آخر عمره، بدأ توسله بالأسباب المتعلقة بذاته والمشعرة بإشرافه على الرحيل ولقاء ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا(3)﴾.

وذكر وهن العظم وشيب الرأس مناسب لحذف هذه الأداة في قوله:﴿قَالَ رَبِّ﴾، حيث أن هذين السببين مشعران بقرب الأجل كإشعار الدعاء بقربه من ربه بحذف الأداة.

وأشار بذكر وهن العظم إلى تمكن الضعف من سائر البدن ؛« لأنه ـ أي العظم ـ عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته؛ لأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام ...قد أصابه الوهن ».[1]

وعلامة الضعف الداخلي الذي انتاب زكريا عليه السلام ترتبت عليه آثار خارج بدنه؛ ولما كان الشيب من أبرز تلك الآثار الدالة على تمكن الكبر، « وتنتقل إليه عين الناظر انتقالا فطريا لتأكيد الضعف والوهن »[2]، جاء ذكره مباشرة بعد وهن العظم ،فناسب تتاليهما.

وجاء التعبير القرآني فريدا في بلاغته وبيانه في الآية ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا(3)﴾، أبان عنه الإمام الزمخشري في قوله : « شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه، وأخذ منه كل مأخذ باشتعال النار ،ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال

---

1 ـ الزمخشري: الكشاف . 502/2

2 ـ محمد حسن باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 27

إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس،وأخرج الشيب مميزا، و لم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة».[1]

وبتدبر هذه الصورة البيانية التي رسمتها السورة ندرك تماما الدور الذي تؤديه لتحقيق الغرض الذي يهدف إليه زكريا عليه السلام، وهو تأكيد الضعف الذي ألمّ به ظاهرا وباطنا، « وذلك يزيد الدعاء توكيدا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبري من الأسباب الظاهرة ».[2]

فزكريا عليه السلام استهل توسله بالسببين السابقين والمتعلقين بذاته ،ليدل على كمال افتقاره وحاجته لربه تعالى، وكمال صفات الله المتفضل بإنعامه وإحسانه.فناجاه متوسلا باعتقاده الراسخ في ذلك.

وعلى الرغم من تخوفه من عاقبة الأمر من بعده، إلا أن أمله في رحمة الله لم ينقطع؛ لأنه ما عهد تخلي الله عنه في ساعة التضرع بالدعاء في حال شبابه وقوته،فكيف وحاله يؤول إلى الضعف، فهو أحوج وأدعى لاستجابة الله وإتمام نعمته،ولهذا عقب بقوله ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (3)﴾، فاتخذ من قبول الله عز وجل لدعائه في سابق حياته وعدم شقائه وسيلة أخرى لمناجاته.

فحال زكريا عليه السلام منذ فتوته معبق بعبادة الله وحده، وإخلاص الدعاء إليه، وشعوره بالافتقار إلى فضله وإحسانه.

و لم تتوقف الإشارة القرآنية عند الأسباب الذاتية السابقة ، بل تخطتها إلى ما هو أقرب لتحديد نوع الدعاء ،﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا (4)﴾ ، « وهذا فيه شفقته عليه السلام ونصحه» [3]، وإعلان خوفه الشديد من الموالي يوحي برفعة التركة وثقلها،وضعف أمر بني إسرائيل وعجزهم عن تقبلها وتحملها في حياته عليه السلام.

---

1 ــ الزمخشري : الكشاف . 502/2

2 ــ الرازي : التفسير الكبير . 183/21

3 ــ عبد الرحمن السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . تحقيق : محمد زهري النجار . دار عالم الكتب . ط2(1414هـ ــ 1993م) . 162/3

وحتى تختتم سلسلة القوالب البشرية التي ناشد بها زكريا عليه السلام ربه تعالى، ذكر حلقتها الختامية ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا(4)﴾ ، وتظهر صلتها بحلقة البداية في كون بلوغ الكبر ليس نصا في عدم القدرة على إخصاب المرأة ؛لأن الإخصاب عند الرجال لا يتحكم فيه تقدم العمر، فلما كان ذلك ممكنا ولا يستحيل عادة ووقوعه أقرب استهل به دعاءه. أما امرأته تعدت السبب الأول إلى ما هو مستحيل الوقوع عادة ،فبلغت قمة العجز المتمثل في العقر،ولهذا ختم بها توسله فبدأ بالهين وختم بالأشد .

« والإخبار عن عدم إمكان ولادة امرأته بلفظ الماضي إعلام بتقادم العهد بذلك ، مما يقوي استبعاد حصول الولد ،كما هو الشأن في قوله:﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ﴾ الذي ورد بلفظ الماضي أيضا ،لينبئ عن تقادم الخوف وإظهار الحاجة ».[1]

وبعد توجهه بفقدان مؤهلات الإنجاب ،طلب العطاء الإلهي الذي يظل هبة لعدم تعلقه بالأسباب المألوفة التي يكون معها الإنجاب عادة ،قال :﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (4) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(5)﴾ .

والمراد : « أعطني من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية »[2]؛لأن رجائي قد انقطع في حصول الولد بتوسطها.

وكلمة "هب" « تؤدي معنى الاستعطاء دون مقابل ،والهبة إحسان محض لا يقابلها عوض للواهب. وفي لفظ "من لدنك" تلويح بعظم ما يوهب ؛لأن الموهوب من الكريم لا يكون إلا كاملا، إذ لا يهب الناقص المنافي لكرمه ».[3]

ومن أين تعلم زكريا عليه السلام أن الله يهب وينعم دون مقابل ،حتى وإن عزت الأسباب ؟ تعلم ذلك في محراب العبادة ؛حيث كانت صلته بالله وثيقة ،ولما رأى من مريم عليها السلام ما يلفت الانتباه ويدعو لاسترعاء قدرة الله وعظمته من الرزق الذي يجده بين يديها على غير

---

1 ــ الرازي : التفسير الكبير . بتصرف . 183/21

2 ــ الألوسي : روح المعاني . بتصرف . 382/8

3 ــ محمد بن يوسف أطفيش : تيسير التفسير . تحقيق وإخراج : إبراهيم بن محمد طالاي بمساعدة لجنة من الأساتذة . المطبعة العربية . غرداية. الجزائر . ط1 (1421هـ ــ 2000م) . 9/9

السنن المعتادة، سألها عن ذلك فأجابت :﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[1]

فكان رد مريم عليها السلام بمثابة التذكير لزكريا عليه السلام؛ لأنه كان يؤمن بقدرة الله تعالى الخارقة، وأنه يتصف بجميع صفات الكمال ،فلما رأى حال الرعاية الربانية لمريم عليها السلام الناسكة، تحركت في وجدانه القضية التي طالما آلمته في حياته، ونظر أن الذي أنعم على مريم عليها السلام بالرزق دون أسباب مألوفة ،قادر على أن ينعم عليه بتحقيق ما قطع رجاءه منه.

وملازمة زكريا عليه السلام لمحرابه يشير إلى كمال عبوديته وخضوعه وتفانيه في عبادة ربه، وشعوره الدائم بالافتقار والحاجة لله تعالى، فإذا ما ضاقت الأسباب واشتد عليه أمر فزع إلى خالق الأسباب لترعاه عنايته وتحيطه من كل جانب. وهذا حال جميع الأنبياء حين وصفهم القرآن ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[2]، وهي سنة المتقين في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما «تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة ».[3]

ولهذا لما حز في نفسه أمر الموالي ،وانقطعت به السبل، وقرب أجله ، لجأ مناجيا ربه أن يهبه وليا ، يكون وعاء لإرث النبوة ،والقيم الأخلاقية، والدعوة إليها. ليسد مسدّه في قيادة بني إسرائيل قيادة صحيحة. ولتحقيق هذه الغاية ذكر في دعائه الوصف الضروري للولي،فقال : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(5)﴾ .

وحين فرغ زكريا عليه السلام من بث ما يخشاه، وطلب ما يرجوه من رحمة ربه في جو من التسبيح و التحميد والعبادة، نادته الملائكة ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ

---

1 ــ آل عمران : 37

2 ــ الأنبياء:89

3 ــ أخرجه أحمد: المسند . 307/1 . والحاكم : المستدرك على الصحيحين . باب ذكر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب .623/3 ــ 624. وأبو يعلى الموصلي :المسند . 101/1 . جميعهم من حديث ابن عباس في مجموعة من وصايا النبي ﷺ له

يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (6)﴾.

وفي هذه البشارة عدة مواهب ومزايا خص الله بها عبده زكريا وابنه يحي عليهما السلام:

الأولى ــ البشارة،ومدى وقعها في قلب زكريا عليه السلام المتعطش لرؤية الهبة التي طلبها،فهذا اللفظ رحمة من الله بعبده.

الثانية ــ وهب يحي على الكبر وامرأته عاقر .

الثالثة ــ سماه باسم مبتكر"يحي" لم يشركه فيه أحد من قبل .

الرابعة ــ بعث يحي مبشرا بدعوة عيسى عليه السلام ،وهو أول من آمن به .

الخامسة ــ سيدا بالعلم والعبادة والحلم والتقى.

السادسة ــ حصورا من الفواحش ،ممنوعا من كل ما حرم عليه .

السابعة ــ أوتي النبوة وهو صبي .

وهذه المزايا جمعت في قوله تعالى :﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾.[1]

وذكر ابن عاشور أن هذه المزايا التي وهبت ليحي وأبيه عليهما السلام « لا تقتضي تفضيله على باقي الأنبياء ؛لأن الأفضلية تكون بمجموع فضائل لا ببعضها وإن جلت ،ولذلك قيل :"المزية لا تقتضي الأفضلية" ».[2]

فرحمة الله بعبده زكريا عليه السلام كانت بهدايته إلى أعمال البر والتقوى والعبادة أولا، واستجابة دعائه بالبشارة ثانيا .

ولما كانت البشرى متعلقة أساسا بإنجاب الولد ، و لم تظهر علامات الحمل بعد ، بدا لزكريا عليه السلام الذي ألف الأسباب أن يستعلم عن سبيل تحققها[3]، ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

---

1 ــ آل عمران : 39

2 ــ التحرير والتنوير . بتصرف . 70/16

3 ــ انظر : طنطاوي : التفسير الوسيط . 18/9 ــ 19 . وزكريا الأنصاري:فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن. تحقيق :محمد علي الصابوني . مكتبة رحاب الجزائر . ط2(1408هـ ــ 1988م) . ص350 ــ 351

غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا(7) ﴾ .

وهذا الاستخبار لا يعني أن البشارة شككته في وعد الله ، بل هو مطمئن لجنب ربه تعالى،وقد صرح بهذا في قوله :﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (3) ﴾،وما رآه من تجلي قدرته تعالى في إنعامه على مريم عليها السلام بالرزق في غير أوانه رغم معارضة الأسباب.

وفي تقديم ذكر حال زوجته على حاله في آية التعجب والاستخبار، يدل على تأكيد استبعاد أسباب الإنجاب فيها، وقد يكون لبيان رغبته الملحة في معرفة الوسيلة التي سيهبه الله بواسطتها الغلام، هل من زوجته بإصلاح عقرها ، أم من غيرها؟

هنا يأتي الجواب من رب العالمين ،ليطمئن زكريا عليه السلام ومن جاء بعده ،ويذكرهم بقدرته المطلقة، وأن إرادته تتحقق لا محالة بقوله : "كن فيكون" رغم تعطل الأسباب ،﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا(8) ﴾ .

و جاء التذكير بالنعمة التي طالما غفل الناس عنها ،ألا وهي نعمة الخلق ؛لتعودهم على مباشرتها،وهي من الله رحمة وإحسان ينبغي أن تقابل بالشكر،« فالذي خلق من العدم الصرف بإيجاد الذوات والصفات والآثار ،قادر على الإيجاد بتبديل صفة من الصفات الكائنة ، فخلق الولد من شيخين عجوزين أحدهما عاقر أقرب وأهون من الخلق من العدم الصرف» .[1]

وعلى الرغم من هذا التذكير بنعمه وآلائه تعالى؛ إلا أن جهل زكريا عليه السلام بوقت العلوق ــ حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفي لا يوقف عليه ــ جعله يسأل ربه تعالى أن يتم نعمته عليه بسرعة انتقال القول إلى الفعل ؛ وذلك بإبراز علامة تدل على استقرار الجنين في بطن زوجته العاقر العجوز ،وما هذا الإلحاح منه عليه السلام إلا ليقابل النعمة بالشكر من أول آية ويعيش في كنفه،ولا يؤخره إلى ظهور النعمة ظهورا معتادا .

هنا استرسل الفضل والإحسان الإلهي بظهور آية أخرى ــ من آياته الدالة على كمال قدرته وطلاقتها ــ تضاف إلى سجل مواهب رب العالمين على عبده الشكور زكريا عليه السلام ،

---

1 ــ الرازي : التفسير الكبير . بتصرف . 189/21

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (9) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (10)﴾ .

وجاءت المعجزة هنا بانتفاء التكلم بطريق خرق العادة ،لا لاعتقال اللسان بمرض،فيتعذر عليه تكليم الناس ولا يطيقه حال كونه سوي الخلق سليم الجوارح ما به شائبة بكم أو خرس....أما التسبيح والدعاء فمستثنى بدليل قوله تعالى :﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ .[1]

و كانت هذه الآية الموهوبة لزكريا عليه السلام مناسبة للجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة ، حيث يؤدي بها حق الشكر لله الذي أكرمه بالغلام على الكبر.

ولما كانت سنته أن يأمر قومه بالصلاة بكرة وعشيا ، ناسب مقام المعجزة أن يأمرهم بتتريه الله تعالى وتسبيحه شكرا على تفضله وإحسانه ، « لا سيما النعم التي يترتب عليها خير كثير ومصالح متعددة ، وأنه ينبغي للعبد كلما أحدث الله له نعمة أحدث لذلك شكرا ، وأن أفضل أنواع الشكر الإكثار من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه »[2]،قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (10)﴾ .

و الوحي الذي سبيله الإيماء والإشارة بمثابة الأمر لقومه لاستئناف التسبيح الذي اعتادوه،ولئلا يعتقد القوم أن زكريا عليه السلام نذر صمتا فيقتدوا به ،إذ الصمت كان سنة محمودة في الأمم السابقة،وقد يكون التسبيح هنا بغرض الشكر لله تعالى على ما أنعم به على نبيهم عليه السلام [3]

و هكذا تختم السورة قصة زكريا عليه السلام بشكر المواهب والنعم الربانية بعد أن افتتحت بالطلب والمناجاة .

و ينتقل السياق مباشرة إلى تفصيل صفات هذا الولي الذي طلبه زكريا عليه السلام . فما هي هذه الصفات التي رشحت يحي عليه السلام للقيام بمهمة ميراث النبوة والحكمة وبلوغ مرتبة الرضا ؟ هذا ما سوف نتناوله في المقطع اللاحق من الآيات إن شاء الله تعالى .

---

1 ــ آل عمران : 41 ــ الألوسي : روح المعاني . 390/8 . و الشنقيطي : أضواء البيان . 167/4

2 ــ عبد الرحمن السعدي : المواهب الربانية من الآيات القرآنية . ص 24 ــ 25

3 ــ انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير . 74/16 ــ 75

المطلب الثاني ــ صفات الرضا في يحيى عليه السلام

قال الله عز وجل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (11) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (12) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (13) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (14)﴾.

بعد أن هيأ زكريا عليه السلام جميع ظروف استجابة الدعاء الذي طلب فيه وليا رضيا ، وبشره الله تعالى بتحققه بالآيات المعجزة الدالة على عظيم قدرته تعالى وسعة رحمته ،و أصبح يحي حقيقة واقعة لا ينكرها أحد ،وبعد فترة من حياته عليه السلام جاء البيان الإلهي بتتمة تحقيق الوعد المتعلق بالمهمة المنوطة بيحي عليه السلام في الحياة . وتنقسم الآيات الخاصة به عليه السلام إلى قسمين اثنين:

ــ الأمر الإلهي ليحي عليه السلام بأخذ الكتاب بقوة.

ــ صفات الرضا التي أنعم الله بها على عبده يحي عليه السلام .

القسم الأول: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾

تجلت نعمة الله وإكرامه لعبده يحي عليه السلام بعد ولادته بالطريقة العجيبة الدالة على قدرة الخالق على إبداع المستغرب ــ في طريقة الخطاب الذي استهله بالنداء الموحي بقرب المنادى من المنادي وبمنزلته عند ربه تعالى كمنزلة أبيه عليهما السلام.

والقوة التي أمر أن يأخذ بها كتاب التوراة تعني « الجد والصبر على القيام بأمر النبوة و حاصلها ملكة تقضي بسهولة الإقدام على المأمور به والإحجام على المنهي عنه ».[1]

القسم الثاني: صفات الرضا

1 ــ أنه أوتي النبوة وفقه الدين وفهم التوراة ورجاحة العقل وهو صبي، « ولما كانت النبوة لا يستضلع بأمرها و يقوى على حملها إلا عند استحكام العقل ببلوغ الرشد، وكان

---

1 ــ الرازي:التفسير الكبير . بتصرف . 21/ 191

التطويق على أمرها قبل ذلك من العظمة بمكان دلت عليه النون في قولـــه :﴿ وَءَاتَيْنَاهُ﴾ بما لنا من عظمة »[1]، وهذه الصفة خارقة لما اعتاده الخلق مـــن أن النبـــوة لا تتجســـد إلا إذا استحكم عقل النبي وبلغ أشده، تفضل الله بها عليه وميزه بها على غيره.

2 ـــ وانفرد يحي عليه السلام بهبة الحنان التي خصه بها الله تعالى ، واصطفاه به دون غيره مـــن المقربين ؛ إذ ذكر هذا اللفظ مرة واحدة في القرآن الكريم مقترنا به عليه السلام.

والحنان أصله من الحنين المتضمن الإشفاق ورقة الشعور وسلامة الطبع[2].ولابن عبـــاس قولان في مدلول هذا اللفظ: الأول ـــ تعطف الله ﷻ عليه بالرحمة. والثاني ـــ ما أعطيه مـــن رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك [3].وعلى هذا المعنى الأخير يكون الحنان « التعطف عليهم وحسن النظر لهم على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم كما وصف الله نبيه فقـــال ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ » .[4]

وبهذا النعيم الإلهي يكون يحي عليه السلام قد جمع بين رجاحة العقل وسلامة الطبع .

وحتى يخرج هذا العطاء عن الحد المتداول بين جميع المقربين منه تعالى ،جاء الأداء بلفـــظ يؤكد عظمته ،فقال: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾، أي « من مستقرب المستغرب من عظمتنا بلا واسطة تعليـــم ولا تجربة ».[5]

وهذه الصفة مع سابقتها ـــ الحكم في الصبا ـــ من المواهب التي رحم الله بها عبده يحـــي عليه السلام دون سعي منه لذلك ، بخلاف ما سيأتي من النعوت، فإن الله ﷻ أنعم بها عليه بعون منـــه تعالى وتوفيق .[6]

3 ـــ وحتى « لا تكون شفقته داعية له إلى الإخلال بالواجب ؛ لأن الرأفة واللين ربمـــا

---

1 ـــ البقاعي : نظم الدرر. 524/4

2 ـــ الراغب الأصفاني : المفردات . ص133 . ابن منظور : لسان العرب . 741/1 .وانظر : بـــاجودة : تـــأملات في سورة مريم . ص 40

3 ـــ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . 87/11

4 ـــ آل عمران : 159 ـــ الرازي : التفسير الكبير ،192/21

5 ـــ البقاعي : نظم الدرر. 524/4 ـــ 525 . وانظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير . 76/16

6 ـــ انظر : باجودة : تأملات في سورة مريم . ص 40

أورثا ترك الواجب »[1]، كقوله تعالى :﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[2]، أنعم عليه بتوفيقه فأتاه زكاة النفس وطهارة الخلق من الذنوب والمعاصي.

4 ــ كما أنعم عليه ربه ﷻ بنعمة التقوى والتي تعد المظهر العملي للخوف من الله وخشيته، فكان معصوما عن الإخلال بالواجبات، طاهرا عن الإتيان بالمعاصي ،ويؤكد هذا ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قوله :« ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحي بن زكريا ، ثم قرأ ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ »[3].و صفة الحصور على ما عليه حذاق المفسرين ونقاد العلماء تعني التفرغ للعبادة والانقطاع لها، والزهد في النساء مع القدرة،و العصمة من الذنوب والفواحش ، فلا يأتيها كأنه حصور عنها.[4]

5 ــ وهذا المؤهل يتعلق ببر الوالدين ، وهو صفة تالية للتقوى وأثر يدل على تمكنه عليه السلام من ملكة التقوى .

وبرهما بالتوقير والعطف والرعاية والدعاء من عظيم ما يتقرب به إلى الله ﷻ، ولهذا وفق عبده يحي عليه السلام إلى برهما ،وخاصة أنهما شيخان عجوزان، وقد بث زكريا عجزه وضعفه إلى الله معلنا بذلك حاجته إلى رحمة الغني المتعالي وفضله.

6 ــ صفة التواضع ولين الجانب وعدم التجبر ، « والجبار من نعوت الكمال في صفات الله ﷻ ، فهو يجبر نقص الناس بفائض نعمه ورحمته .

والجبار من نعوت النقص في الإنسان، يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها»[5].وعلى هذا الاعتبار كان من« رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ، ومن عرف ذلك كيف يليق به الترفع والتجبر » .[6]

---

1 ــ الرازي:التفسير الكبير . 192/21

2 ــ النور : 2

3 ــ آل عمران : 39 ــ ابن أبي حاتم : تفسير القرآن العظيم .643/2 ح3465 . عن يحي بن سعيد القطان،عن يحي ابن سعيد الأنصاري ،أنه سمع سعيد به .

4 ــ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم . عن القاضي عياض مختصرا . 35/2 ــ 36

5 ــ الراغب الأصفاني: المفردات . بتصرف .ص86

6 ــ الرازي: التفسير الكبير. 193/21

ولهذا كان من رحمة الله على عبده يحي عليه السلام أن وهبه صفة التواضع وخفض الجناح وعدم التطاول والانتصار للنفس من غير حق .

7 ــ كما نفى عنه الله عز وجل الوقوع في المعاصي،وورد اللفظ المعبر عن هذه الصفة بصيغة المبالغة، ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا(14)﴾ ، والمراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة .

8 ــ نعمة السلام والأمان في بداية أطوار ثلاثة :

ــ سلام من الله عليه يوم ولادته من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم .والأمان في هذا اليوم تفضل منه تعالى على عبده يحي ؛لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له.

ــ وسلام يوم ارتحاله عن الدنيا، وذلك بأن أمنه وحشة فراق الدنيا وهول المطلع وعذاب القبر.

ــ وسلام يوم يبعث حيا، أي من عذاب القيامة حين يحشر الناس لرب العالمين.[1]

وفي هذه المواطن الثلاثة المذكورة في الآية يكون العبد في غاية الضعف وقلة الحيلة والفقر ، الحال الذي يحتاج فيه إلى العناية والتوفيق الإلهي، فسلام الله كان نعمة على عبده يحي عليه السلام.

وهكذا زود الله تعالى يحي عليه السلام بصفات الرضا ليخلف أباه وينهض بتبعة النبوة ، وتتحقق بذلك البشارة التي وعد بها زكريا عليه السلام ، و قد وردت هذه النعوت أيضا في سورة آل عمران في قوله تعالى :﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾.[2]

---

1 ــ الرازي : التفسير الكبير . 193/21 ــ 194 .والألوسي : روح المعاني . 393/8 . وابن عاشور:التحرير والتنوير 77/16 ــ78

2 ــ آل عمران : 39

الخلاصة :

إن دراسة المقطعين الأولين من السورة أبرزت عدة قضايا ترتبط بموضوعها نلخصها فيما يلي :

ـــ قررت قصة زكريا عليه السلام اتصافه تعالى بشمول الرحمة ، المستمدة من اسمه "الرحمن"، هذا الاسم الذي طالما أنكره مشركو العرب، إذ استبعدوا أن تلتقي صفات القوة والعزة والجبروت والعلم مع الرحمة والإحسان في حق الخالق سبحانه وتعالى ،فمظاهر الرحمة في اعتقادهم من خصوصيات الآلهة التي يعبدونها من دون الله ،تعالى الله عما يصفون .

ـــ أظهرت كمال عبوديته عليه السلام في تذللـه وخضوعه و إخلاصه لربه عز وجل وبث حاجته إليه معلنا ضعفه وافتقاره اعترافا بكمال ربوبيته تعالى وتفرده بالفضل والإحسان.

ـــ ولما كان منبع هبة الله تعالى وعطاءه لعبده زكريا عليه السلام هو رحمته تعالى به، جاءت المواهب الجليلة المتعددة في صورة معجزة خارقة للمألوف لتؤكد أن رحمته تعالى بعباده المخلصين لا توقفها الأسباب والمسببات فظهرت بذلك صفة طلاقة القدرة وحرية المشيئة لله تعالى فتمت النعمة .

ـــ قررت أن العبد إذا دعا ربه تعالى ، وكان قد حقق كمال العبودية ـــ من تعظيم الله، والخوف من عقابه، ورجاء رحمته ورضوانه ـــ ، فإن استجابة الله وعطاء الله تعالى تكون أبلغ من طلبه. فزكريا عليه السلام حين طلب الولد ـــ عن يأس من أسبابه الظاهرة ـــ استهل دعاءه بخلاصة تعبده وقنوته لربه تعالى ، فوهبه يحي متميزا بالصفات التي تجعل منه عبدا رضيا حقا كما جاء في تضرعه ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(5)﴾ . فقد آتاه ربه تعالى صفات الرضا ـــ التي سبق تفصيلها ـــ وكان وارثا لدعوة أبيه ، ومصدقا لدعوة عيسى عليهم السلام جميعا.

المبحث الثاني ـ آية الله ورحمته في عيسى عليه السلام

قال الله ﷻ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (15) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (16) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (17) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (18) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (19) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (20) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (21) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (22) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (23) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (24) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (25) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (26) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (27) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (28) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (29) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (30) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (31) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (32) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (33) مَا

كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (34) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (35) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (36) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (37) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (38) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (39) ﴾ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

تبدو مناسبة تتالي القصتين في اشتراك أصحابها في الأمر المستغرب .فالقرآن الكريم بعد أن كشف عن وجه الغرابة في ولادة يحي على غير المعتاد من والد هرم وأم عجوز عقيم ، انتقل السياق إلى وجه آخر أدعى للعجب والغرابة من الأول ،إذ كان سبب ولادة عيسى عليه السلام مريم العذراء من غير وجود بعل، « فانعدم فيها سبب الذكورية أصلا ، وهذا فيه إشارة إلى أنه تعالى يخلق ما يشاء تارة بسبب قوي ،وتارة بسبب ضعيف ،وتارة بلا سبب . ومن كان كذلك كان مستغنيا عن الولد ».[1]

وذكر البقاعي أن قصة زكريا عليه السلام أعظم في تبكيت اليهود لمباشرتهم قتله ،وقتل ولده يحي عليهما السلام،فوقع تقديمها .[2]

« ونظرا لغرابة حادث ولادة عيسى عليه السلام فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته،وأن تدرك الحكمة من إبرازه ، فجعلت تضفي عليه صفات الألوهية ،وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، وتبتعد بذلك عن إدراك الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب،والمتمثلة في إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد بشيء »[3] ؛لأجل هذا كان تقديم قصة زكريا عليه السلام توطئة وتمهيدا لبيان حقيقة عيسى عليه السلام وآدميته، وطهارة مريم عليها السلام وبراءتها مما نسب إليها ؛ لأن كلا الفريقين ـــ من يهود ونصارى ـــ قد اعترف بأمر يحي عليه السلام.

وقصة مريم وابنها عليهما السلام من نوع القصص التي ذكرت مباشرة دون مقدمة ولا تلخيص، ويكون في تفاصيلها ما يغني عن ذلك .[4]

وقد اختصت هذه السورة ببسط قصتها أكثر من غيرها من سور القرآن،إلا ما ورد في سورة آل عمران من تفصيل، بغرض بيان درجتها الرفيعة واصطفاءها على غيرها من النساء .

---

1 ـــ البقاعي: نظم الدرر . بتصرف . 526/4 . وانظر : أبو حيان : البحر المحيط . 179/6 . و سيد قطب : في ظلال القرآن . 2304/4 ـــ 2305 . وباجودة . تأملات في سورة مريم . ص42

2 ـــ البقاعي: نظم الدرر . بتصرف . 526/4

3 ـــ سيد قطب : في ظلال القرآن . بتصرف . 2305/4

4 ـــ انظر : سيد قطب : التصوير الفني في القرآن . ص182

أما في هذه السورة فقد سيقت « القصة لدعوة الناس إلى الإيمان بالله وحـــده لا شريك له، تحقيقا للحق،وإبطالا لما عليه أهل الكتابين من الإفراط والتفريط في شأنهما ». [1]

ـــ فالإفراط من النصارى الذين أشركوا عيسى وأمه في الألوهية ،وقد وصفهم الله تعالى بالكفر في قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[2] ،وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾.[3]

ـــ والتفريط من طرف اليهود ،إذ نسبوا مريم عليها السلام إلى الفاحشة بهتانا ،وكـذا مباشرتهم لقتل الأنبياء ، قال عنهم الحق تعـالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾.[4]

وبيان عبودية عيسى وبراءة أمه عليهما السلام يبدأ بكشف المراحل التي مرت بهـا في حياتها إلى أن وقعت المعجزة بولادة عيسى عليه السلام، وما تلا ذلك من إعلانه لربوبية الله وحـده لا شريك له.

وهذه البداية كانت بذكر المواهب الجليلة التي خص الله بها مريم عليها السلام،وعلـى رأسها نعمة الاصطفاء ،فالله ﷻ حين اختار جملـة من الأنبيـاء والرسـل في قولـه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5] كانت مريم بنت عمران[6] من جملة ذرية آل عمران الذيـن وقـع لهـم

---

1 ـــ الألوسي . روح المعاني . بتصرف . 126/2

2 ـــ المائدة : 74

3 ـــ المائدة : 75

4 ـــ النساء : 156،155

5 ـــ آل عمران : 34،33

6 ـــ اختلف في نسب مريم عليها السلام هل هي بنت عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسـحاق بـن إبراهيم عليهم السلام ؟ فتكون بذلك أختا لموسى وهارون عليهما السلام . أم هي بنت عمران بن ماثـان مـن نسـل سليمان بن داود عليهم السلام،وأمها حنة بنت فاقوذا ؟ و سبب اختلافهم هو وجود أختا لموسى وهارون عليهما السـلام تسمى مريم . والراجح هو الرأي الثاني.أنظر:الألوسي روح المعاني 127/2 ـــ 128. وابن عاشور . التحريـر والتنويـر . 231/3 ـــ 332 . وقد حقق في هذه المسألة الشعراوي في قصص الأنبياء 2937/5 ـــ 2940

الاصطفاء والتفضيل، فنادتها الملائكة ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [1]،فوقع لها الاصطفاء منه تعالى من ناحيتين:

ـــ اصطفاء بالصلاح والتقوى واجتباء بالخلق السوي ، بداية من استجابة دعاء أمـــها ، وتحريرها لخدمة بيت المقدس ،وطهارتها من الرذائل ومما ألحقه بها اليهود عليهم لعنة الله تعالى .

ـــ واصطفاء باختيارها من بين نساء العالمين لأمر ولادة عيسى عليه السلام من غـــير تدخـــل للذكر في ذلك ، فخصها الله ﷻ بهذه النعمة والفضل.

وهكذا جمع الله تعالى لمريم عليها السلام عدة مواهب تتطلب دوام الشكر والعبادة،ولهذا تلا التبشير بالاصطفـــاء الأمر بالقنـــــوت ،فقـــال:﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾.[2]

المطلب الأول ـــ تمام قدرة الله تعالى في ولادة عيسى عليه السلام

كانت تلك المزايا السابقة بمثابة الإعداد الأولي لها عليها السلام ، وتهيئتها للموقف الذي سيفاجئها ـــ فضلا عن أهلها وقومها ـــ ، فما إن نمت ومرت أطوار من حياتها علـــى هـــذه الأصول الدينية والأخلاقية،واستفاضت صفاتها التعبدية واشتهرت، حتى جاءت المرحلـــة الـــتي انقطعت فيها تماما للقنوت فاعتزلت أهلها، ونبذت كل شيء يعيق كمال توجهها لربها ﷻ ، « فتزداد نفسها صفاء ،وروحها إقبالا على الله تعالى وفناء فيه » [3] ،فاستحقت الذكر منه تعـالى بقوله:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (15) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾.

---

1 ـــ آل عمران : 42

2 ـــ آل عمران : 43

3 ـــ باجودة . تأملات في سورة مريم . ص45

وذهب كثير من المفسرين إلى أن انتباذ مريم واعتزالها كان قضية تخصها لا للعبادة ،وخالفهم القرطبي في قوله : =

في هذا الجو الإيماني أرسل الله تعالى إليها جـــبريل عليه السلام ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(16)﴾ .

ومن أنس الله تعالى ورحمته بمريم عليها السلام أن كان وحيه إليها جليا عـــن طريـــق جبريل عليه السلام ، « فلو أنها أوحي إليها بخبرهـــا ــ أي بكلمـــة التكويـــن ــ لتمكـــن منـــها الشك،ولأمسكت بخناقها الهواجس فأفسدت عليها حياتها . ولكن رعاية الله عز وجل لها ورحمته بها جعلتا ظهور الوحي في صورة إنسان ضرورة لا غنى عنها لكي تظل مريم متمـــاسكة محتفظـــة بقدرتهـــا على مواجهـــة واحتمـــال مـــا ينتظرها » .[1]

وتمثل الملك الرسول في صورة بشر سوي الخلقة « بكل ما تقتضيه الطبيعة البشرية مـــن قوة وفتوة وجمال ، وكمال رجولة»[2]، يعتبر من تمام عظمة رحمته تعالى على أمته مريم ؛ « لأنـه لا يمكن أن يلتقي الملك بملكيته والبشر ببشريته »[3]، فكان مناسبا لبشريتها.

و مهما بلغت مريم من قوة إيمان، وكمال عفة وطهارة ، فإنها لا تخرج عن كونها امـــرأة ضعيفة، تشعر بالخوف الشديد على دينها وعرضها ، خاصة إذا فاجأها رجل سوي غريـــب في خلوتها .

ولما أحست مريم عليها السلام بالضعف الحقيقي والحاجة الملحة لمن يخرجها من مأزقها، استجارت بمن ألفت رعايته،فـــ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا(17)﴾ .

واستعاذتها بالرحمن دون غيره من أسماءه المقدسة تكشف عن إدراكها المسبق للمدلـــول الكامل لهذا الاسم الأعظم ؛لأنها تعرف ربها منذ ولادتها باستدرار رعايته وعطفه وحنانه ،فلمـــا رأت أنها أعجز من أن تدافع عن نفسها الطاهرة شر الرجل السوي الممتثل أمامها ، لم تتمـــالك نفسها أن انطلق لسانها بالاستعانة برحمة ربها عز وجل ولطفه ،ممـــا يؤكـــد إقرارهـــا بـــالضعف

=فقال:السدي : انتبذت لتطهر من حيض ... وقال غيره: لتعبد الله ،وهذا حسن ؛وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ..." الجامع لأحكام القرآن . 61/11

1 ــ عبد الواحد إسماعيل القاضي . قصة مريم بنت عمران والحقيقة البشرية . مقال : المجلة العربيـــة . العـــدد : 129 (شوال ، 1408هـــ يونيو ، 1988 م) . ص 12

2 ــ بيوض . في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه. ص 53

3 ــ قصص الأنبياء . 3025/5

والحاجة،وأنها مهما سمت روحيا فإنها لن تخرج عن إطارها الإنساني الملازم حتما للفقـــر والحاجة.

فمريم عليها السلام وعاء فياض بالمظاهر الإيمانية منذ صغرها ،وقد عودها ربهـا ﷻ أن لاتزن الأمور إلا بميزان طاعة الله أو غضبه ،انطلاقا من هذه الرؤية الخالصة حـــاولت عليـــها السلام إيجاد حل لموقفها مع الغريب ،إذ ذكرته بتقوى الله ﷻ ،فكان علاجها للمشكلة مـــن جنس ما تربت عليه من مظاهر التقوى والصلاح [1]؛ ولأن « التقي ينتفض وجدانه عند ذكـــر الرحمن،ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان » .[2]

ويمكن القول أن في الآية رد على الذين اختلفوا في أمر مريم عليها السلام:

ـــ رد على إفراط النصارى في ادعائهـــم الألوهية لمريم وإلحاقهـــا بصفـــات الكمـــال الإلهي ـــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـــ ، إذ الاعتراف بالحاجة والفقـــر يتنـــاف وصفـــات الجلال والكمال الثابتة لله ﷻ.

ـــ ورد على تفريط اليهود الذين نسبوها إلى الفاحشة بهتانا وزورا، مع علمهم بتراهتـها وتقواها ، وذلك أن توجهها لربها بالاستعاذة حال تفاجئها خوفا على نفسها وعرضها يقضـــي بطهارتها ونقائها .

ولما أوقع امتثال جبريل عليه السلام أمام مريم البتول مفاجأة عنيفة ،انتفضت لظهوره انتفاضـــة العذراء المذعورة، واهتزت لوقع الصدمة وعمتها الشكوك ، واستعاذت بالرحمن منه ،أجابهـــا جبريل عليه السلام بما يزيل خوفها ويهدئ من روعها ،فكشف عن هويته ودوره،﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا(18)﴾ .

فجوابه عليه السلام حمل نعمتين عظيمتين تفضل الله ﷻ بها على مريم عليها السلام:

---

1 ـــ استفاد الإمام ابن كثير من هذه الآية أن " المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل ،فالأسهل ، فخوفته أولا بـــالله عـــز وجل " . تفسير القرآن العظيم . 445/4

2 ـــ سيد قطب : في ظلال القرآن . 2305/4 . وانظر : البقاعي : نظم الدرر . 527/4

النعمة الأولى ــ أنه رسول من رب العالمين ، ومخاطبة جبريل لها مباشرة من النعم الجليلة التي خص الله بها ثلة قليلة من عباده المخلصين ، ويؤكده التعبير بلفظ "**ربك**" على لسانه مقرونا بكاف المخاطبة الذي إذا سمعته مريم اطمأنت له ؛ لأنها ما عهدت منه تعالى إلا التفضل بالإنعام والرعاية والإحسان لطفا بها.

النعمة الثانية ــ تتمثل في تنفيذ ما أمره الله ﷻ به ، وذلك بأن يهب مريم العذراء عليها السلام غلاما زكيا ، « فجملة " أهب" موحية بأن الغلام الموصوف بالزكاة ،إنما هو في حكم الهبة من الله العلي القدير ؛لأنه سيولد من غير أب » .[1]

هذه الهبة شبيهة بالهبة التي سبق وأن أشبعنا الكلام حولها في قوله ﷻ :﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا(4) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(5)﴾ ، في قصة زكريا عليه السلام ، وتشترك الهبتان في كونهما من عطاء الله الخالص من غير دخل للأسباب البارزة ، وفي كون الموهوب على صفة محددة من الرضا والزكاة فجاء بيانهما « بما هو أكثر خيرا وأقعد في باب البشرى وأنسب لموضوع السورة» [2]، إلا أن هبة الله لمريم أغرب وأبعد عن الظواهر المألوفة.وهذا من أدق مناسبات تتالي القصتين كما سبق وأن ذكرنا .

وفي مناسبة تقديم ذكر مريم على الغلام الموهوب في قوله : ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ،قال البقاعي :« وقدم المتعلق تشويقا إلى المفعول ليكون أوقع في النفس» . [3]

وبقدر ما طمئنها جبريل عليه السلام وبشرها كانت قوة المفاجئة ، الأمر الذي جعلها تكتسب شجاعة أكثر ــ رغم حيائها ــ ،وتنتقل من البحث عن حقيقة الرجل إلى البحث عن مجيء هذا الغلام بطريق لم تجر العادة به ، ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (19)﴾ .

---

1 ــ باجودة : تأملات فى سور ة مريم . بتصرف .ص 48

2 ــ البقاعي : نظم الدرر . 527/4

3 ــ المصدر السابق . بتصرف

واتسم حوارها مع الملك بنوع من الشدة ؛ لأن الموقف يقتضي ذلك ،فالدفـــاع عن العرض وإثبات براءته يتطلب استعمال كل البيانات والأدلة لدفع التهمة عن النفس،وخاصة إن كان من فتاة عفيفة مثل مريم عليها السلام، ولهذا أعلنت براءتها من الزواج وقـــد كـــانت خطيبة و مراكنة ليوسف النجار،كما أعلنت تنزهها عن الوصم بالبغاء من قبل تلك اللحظة،فلا ترضى أن ترمى به بعد ذلك.[1]

وفي جو هادئ تظلله الرحمة رد الملك عليه السلام على استفهامها بأن الأمر أخـــذ مســـلكه للتنفيذ بإرادة رب العالمين، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا(20)﴾ .

وهنا يظهر اختلاف معنى﴿هَيِّنٌ﴾ في هذا الموضع عن معناه في جواب الله ﷻ لزكريـــا عليه السلام ،« والكلام في الموضعين على لسان الملك من عند الله ،ولكنه أسند في قصـــة زكريـــا إلى الله؛لأن كلام الملك كان تبليغ وحي من عند الله جوابا من الله عن مناجاة زكريا ،وأســـند في هذه القصة إلى الملك ؛لأنه جواب عن خطابها إياه» .[2]

فكان جواب الملك إياها لما خشيته من إلحاق الضر بعرضها بأن عرضها ليـــس بـــالأمر العظيم في جانب ما أراد الله من هداية الناس لرسالة عيسى عليه السلام ، فلا راد لأمره تعالى حـــتى وإن ألحق ذلك بعض الضرر بعبيده ؛لأن مصلحة الديـــن مقدمـــة علـــى مصلحـــة العـــرض والشرف.[3]

فاقتضت حكمته أن تكون ولادة عيسى عليه السلام دون أب، « وبه تمام القسمة الرباعيـــة في خلق البشر، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، وحواء من ذكر بلا أنثى ، وآدم لا من ذكر ولا من أنثى، وبقية أولاده من ذكر و أنثى معا » .[4]

وكان خلقه عليه السلام **أدل آية على عظيم قدرته تعالى على الخلق والبعث** ، لتميزه عـــن غيره بوجود أقوى الأنواع بأضعف الأسباب. ولهذا جاء وصفهما عليهما الســـلام بالآيـــة في

---

1 ــ انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير . 82/16

2 ــ المصدر السابق . 83/16

3 ــ انظر : المصدر السابق

4 ــ البقاعي :نظم الدرر . 528/4

أكثر من موضع في القرآن الكريم ،منها قوله ﷻ : ﴿وَجَعَلْنَا ابن مريم وأمه ءاية ﴾ [1]،

وقوله:﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.[2]

وحتى لا يتصور بعض الناس أن قدرة الله تعالى وإرادته مقيدة بأسباب الكون ونواميسه،فكانت آية مريم وابنها عليهما السلام **رحمة من رب العالمين** تنبه العقول السليمة من مغبة الانحراف والشك في القدرة الكاملة لله ﷻ.

وذكر ابن عاشور أن « الالتفات من طريقة الغيبة إلى طريقة المتكلم في الآية يفيد أن كرامة الله لمريم تتمثل في الغلام الزكي، وكرامته لابنها تتمثل في كونه آية للناس ورحمة ».[3]

ويرى محمد قطب أنه « مما يلفت النظر أن قصة مريم في الموضعين اللذين وردت فيهما ـــ في سورة آل عمران وسورة مريم ـــ قد جمعت بين قصة ولادة الغلام لزكريا وولادة الغلام لمريم ، ذلك أن المعجزة فيهما من نوع متقارب ، ففي قصة زكريا يولد له الولد بغير الإمكانيات المعتادة في عالم البشر ، فالعاقر لا تلد ، واحتمال النسل للشيخ الذي بلغ من الكبر عتيا احتمال ضئيل في حد ذاته ، فإذا كانت الزوجة عاقر فهو مستحيل بطبيعة الحال .. ومن ثم تكون المعجزة في هذه الحالة معجزة " كن فيكون " ، ولكن مع وجود أساس يمكن إصلاحه .

أما معجزة ولادة عيسى بغير أب فهي معجزة "كن فيكون"، ولكن بغير الأدوات المعتادة في حياة البشر أصلا. ولذلك نجد السياق يقول حين تعجب زكريا:﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [4]، و حين تعجبت مريم أجاب: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ » .[5]

ولما كان الغرض من القصة التركيز على محطات الإعجاز والمواهب الربانية لمريم وابنها؛ فإن القرآن لم يول أهمية لكيفية حملها ولا مدته،« لأنه كان أمرا بفضل الله وحده ،ولا ينبغي

---

1 ـــ المؤمنون :51

2 ـــ الأنبياء : 90

3 ـــ التحرير والتنوير : بتصرف 83/16 . وانظر : الألوسي . روح المعاني . 400/8

4 ـــ آل عمران : 40

5 ـــ آل عمران : 47 ـــ محمد قطب : دراسات قرآنية . دار الشروق . ط6 (1411هـ ـــ 1991م) . بتصرف ص332 ـــ 333

إطلاقا أن يزج الإنسان بنفسه لتوضيح كيف تم ذلك »[1]،ويؤيده قوله ﷻ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، وقوله ﷻ :﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.[3]

وبحملها له عليهما السلام ، و انتباذها مكانا قصيا تكون قد دخلت مرحلة جديدة من الابتلاء « في موقف أشد هولا من موقفها السابق ، فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ، ثم هي تواجه الآلام الجسمية إلى جانب الآلام النفسية ،وهي وحيدة فريدة » .[4]

وفي شدة الحزن الذي يحيطها من كل جانب تمنت أن تكون قد ماتت قبل حدوث هذا الأمر ، فقالت:﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23)﴾ ، « وإنما قالت ذلك لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود ، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة ، وبضد ما قرفت به ،من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام ».[5]

وما أن انتهت الصديقة عليها السلام من تمنيها ، حتى أدركتها رحمة الله ﷻ ،وحفتها ألطافه من حيث لا يحتسب أحد ، جاءت من ذات الولي الذي ابتليت بحمله وولادته[6]،﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ ،« فأنطقه الله ﷻ تطييبا لقلبها وإزالة لوحشتها، حتى تشاهد

---

1 ــ محمد البهي : تفسير سورة مريم . بتصرف . ص14

2 ــ الأنبياء : 90

3 ــ التحريم : 12

4 ــ سيد قطب: في ظلال القرآن . 2307/4

5 ــ القاسمي: محاسن التأويل .4133/11 ــ 4134

6 ــ اختلف القراء في قراءة قوله تعالى :﴿مِن تَحْتِهَا﴾ ،قرأها عامة قراء الحجاز والعراق بكسر الميم، وقرأها بعض أهل الكوفة والبصرة بالفتح واختلف المفسرون في المنادي ،كما ذهب ذهب ابن عباس ،و الضحاك ، و السدّي ، و قتادة وغيرهم إلى أن المنادي جبريل عليه السلام. وقال مجاهد والحسن ووهب بن منبه وسعيد بن جبير وأبي وغيرهم أنه عيسى عليه السلام، ورجحه أبو جعفر الطبري في جامع البيان . 326/8كما ذهب البقاعي في نظم الدرر. 529/4 . وابن عاشور في التحرير والتنوير .86/16 . والرازي في البتفسير الكبير . 205/16

في أول أمرها ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ».[1]

وكلامه عليه السلام بأفصح بيان وأبلغ لسان وهو لا يزال في طور الخروج من بطن أمه يعتبر معجزة عظيمة ثانية ـــ بعد معجزة ولادته من غير أب ـــ دالة على عظمة الخالق وكمال قدرته. ونداءه لها له العديد من المعاني على قلب البتول عليها السلام من نجاح في ابتلائها مع قومها ؛ لأنها ستكون قوية بمعية الله تعالى، وأن مولودها ستكتب له الحياة ويكون آية للناس ورحمة منه تعالى .[2]

والظروف المكانية والزمانية التي أحاطت بمريم حين ذاك ساعدت على تمكين الحزن منها، إذ لم تكن قادرة على تأمين الطعام والشراب لتحقق أسباب الضعف الكلي ، فظهرت مريم بثوب الضعف الإنساني في صورة الكاملة ، الأمر الذي يستلزم حاجتها لله الغني المتعالي .

وبواسطة صغيرها أدركتها رحمة الله تعالى بالتكفل برزقها ـــ كما تعهد لها به من قبل في محرابها ـــ بإيجاد سري تحتها لم يكن جاريا من قبل ، ورزقها الرطب في غير أوانه ، فدفع بذلك شر البطن وآلام المخاض وتأثيراته . فكانت رحمته سبحانه وتعالى على صورة معجزتين أخريين ، تدلان على شرف البتول ومكانتها عند الله تعالى ،كما تطمئنها من جديد أن ربها ﷻ معها ولن يتركها أسيرة الهموم والأحزان مما ستلاقيه حين تواجه أهلها وقومها ، وهذا ما يؤكده اقتران توجيه الخطاب إليها بلفظ " ربك " .

وفي قوله ﷻ: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(24)﴾، بيان أن قدرة الله تعالى لم تتوقف عند جعل النخلة بقوله "كن" قادرة على الإثمار المجرد فقط ، بل تعدت ذلك إلى وجود الرطب دون المرور بالمراحل المعتادة لإنهاء نضجها ـــ من بلح فزهو فرطب ـــ، ولا يقدر على خرق الأسباب إلا خالقها ﷻ.[3]

وذكر الرطب مناسب لضعف مريم عليها السلام ،لأن « الرطب يسهل سقوطه لأدنى اهتزاز تتعرض له النخلة، ثم إن الرطب لا يحتاج إلى مجهود لاستخراج نواه ومضغه وهضمه بعد ذلك ، ثم إنه حينما يسقط على البتول التي لن تستطيع الحركة ، فإنه لن يؤذيها مطلقا ، وفوق

---

1 ـــ الرازي: التفسير الكبير . بتصرف . 205/16

2 ـــ انظر : طهماز ـــ التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص40 ـــ 41

3 ـــ انظر :باجودة : تأملات في سورة مريم . ص58 ـــ 59

كل هذا فقد ثبتت مناسبة الرطب للنفساء ،كيف لا ونحن بصدد شهادة من القرآن الكريم على صحة ذلك » .[1]

والذي يدل عليه قوله : "جنيا" أن الرطب حين يتساقط عليها من علو لا تلوثه تربة الأرض بل يقع وكأنه ملتقط في حينه في وعاء .[2]

كما نلحظ أيضا تناسب شكل الخطاب لضعفها في قوله :"إليك"، إذ التحريك الطبيعي للجذع يكون بعملية الهز إلى الأمام ثم إلى الخلف والعكس ، حتى يتساقط منه الثمر ، لكن مراعاة لضعفها اكتفى الخطاب بالأمر بهز الجذع إليها وجعله كافيا لسقوط الرطب ، وما هذا الهز إلا مجرد حركة بسيطة تقوم بها ليتحقق الغرض المرجو ، وفيه دلالة على بذل الجهد والسعي لكسب الرزق حتى في الأوقات العصيبة التي يشعر فيها الإنسان بالضعف الشديد .

ونفهم من سياق ما تقدم المناسبة بين المعجزتين، إذ المعجزة الأولى ـــ السري ـــ « تعتبر بشارة موطئة للبشارة الأخرى في المعجزة التي نحن بصددها ، فالبشارة الأولى خالصة من كل جهد ، بينما في البشارة الثانية مجهود بسيط».[3]

وبعد البشارة أمرت عليها السلام بأن تغدق في النعيم ولا تأبه بما يساورها من حزن ، ولتقر عينها ،وهذا ما يفهم من سياق قوله تعالى:﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ فهو يدل على « أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة ؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به ، فوجود هذه الخوارق من تفجير نهر ،وإنبات رطب وكلام مولود، تطمئن إليها نفسها وتزول به عنها الريبة ، وبذلك يكون قرة عين لها ».[4] ولا ينفك معنى ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ من الاستمتاع بالمولود، «وفي كونه قرة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه» .[5]

ولما كان المغدق عليها بالنعم و الكرامات يعطي ويهب بغير حساب، استرسلت نعمه وفضله على أمته البتول عليها السلام بأن أعفاها من عناء مواجهة قومها ومجادلتهم وتكفل لها

---

1 ـــ باجودة : تأملات في سورة مريم .ص 59

2 ـــ انظر : بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص68

3 ـــ باجودة : تأملات في سورة مريم . ص 59

4 ـــ الشبقيطي : أضواء البيان . 191/4

5 ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . ص89

بهذا الموقف فأمرها بالصيام عن الكلام ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا(25)﴾ وكما أن الصيام يعتبر امتداد لحياتها التعبدية الخالصة ومظهر من مظاهر شكرها لله تعالى على عظيم فضله وإحسانه، يعتبر أيضا رحمة من الله ونعمة؛ « لأنه لو خلي بينها وبين الناس لبلغ بهم الحال إلى التنطع و الحط من كرامتها...ونحن نعلم أن النقاش لم ينقطع عن مريم وعيسى من تلك اللحظة إلى اليوم ».[1]

وأكد هذا المعنى ابن مسعود فيما أخرجه ابن أبي حاتم عن حارثة بن مضرب[2] ،قال: «كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما و لم يسلم الآخر ، ثم جلسا فقال القوم ما لصاحبك لم يسلّم؟ قال: إنه نذر صوما لا يكلم اليوم إنسيا ، فقال ابن مسعود: بئس ما قلت، إنما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذرا لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا فكلّم وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر خير لك ».[3]

وجاءت الساعة التي طالما خشيتها مريم ورهبتها بانتهاء مراحل الحمل والولادة ، فأتت به قومها تحمله وكلها ثقة بوعد ربها أنه لن يضيعها لحظة ، مع تمثلها اللوم الشديد والاستنكار الكلي والأسئلة الحرجة التي ستنهال عليها .

وعن وهب بن منبه ، قال :« أنساها كرب البلاء والخوف من الناس ما كانت تسمع من الملائكة من البشارة بعيسى، حتى إذا كلمها، يعني عيسى ،وجاءها مصداق ما كان الله وعدها ،احتملته ثم أقبلت به إلى قومها »[4]، ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(26) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(27))﴾ .

فكانت البداية باستنكار المولود من غير أب ؛لأنهم ما سمعوا بهذا في الأولين ، ولا عرفوا عن مريم ما يستنكر.ثم عبروا عن شناعة ما جاءت به ورفضهم له بنفي تلك الصفة عن أهلها،

---

1 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه. بتصرف . ص73

2 ــ حارثة بن مضرب ــ بتشديد الراء المكسورة ــ العبدي الكوفي ، ثقة ، غلط من نقل عن المدين أنه تركه . ابن حجر . التقريب .ص89

3 ــ ابن أبي حاتم : التفسير . وانظر : الألوسي : روح المعاني . 405/8

4 ــ أخرجه الطبري في جامع البيان . 334/8

إذ كان بيتها بيت صلاح وعبادة وتحنث ،فما عرف هذا الفعل عن أبيها التقي ، ولا عن أمها التي بلغت من صلاحها وتقواها وحبها لله تعالى أن نذرت ما في بطنها محررا لله ،فأبواها بلغا من الصلاح شأوا بعيدا حتى ضربوا بهما المثل.[1]

و نداء القوم لها بقولهم :﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ﴾ يؤكد هذا المركز الديني المتميز الذي تحتله مريم وأهلها . و لا يهمنا اختلاف المفسرين حول حقيقة هارون ونسبه[2] بقدر ما يهمنا صلاحه وتقواه مما جعل القوم يقرنون مريم به وينسبونها إليه .

والغرض من قول قومها ــ كما قال الشيخ بيوض ــ :«المبالغة في كونها من أبوين طاهرين صالحين، وهذا التفسير أحلى ، فلا نلتفت إلى هؤلاء الذين ينشدون السهل من التفاسير،ولا يعنُّون أنفسهم بالبحث والتفكير في الحكم»[3]

وذكرهم لأبويها وهارون كان بغرض التهكم من فعلها الذي لا يفكر فيه من كان في مثل حالها،وفيه تقرير « على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش، وفيه دليل على أن الفروع غالبا تكون زاكية إذا زكت الأصول ،وينكر عليها إذا جاءت بمثل ذلك » .[4]

---

1 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه.ص76 ــ 77 . وباجودة : تأملات في سورة مريم .ص70

2 ــ وردت عن المفسرين أربعة أقوال في شأن هارون: ا ــ هو هارون أخو موسى عليهما السلام . ب ــ هارون أخوها وكان صالحا .ج ــ هو رجل صالح مشهور عندهم . د ــ هو رجل فاسق وهو قول سخيف ومردود . والرأي الثالث هو الراجح ، لما روى مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرؤون :﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ﴾ ،وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال :" ألا أخبرهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم" . كتاب الصحيح . الآداب . باب "النهي عن التكني بأبي القاسم ، وبيان ما يستحب من الأسماء" . 1685/3 ح2135

3 ــ في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه .ص79

4 ــ الألوسي : روح المعاني . 407/8

المطلب الثاني ـ اعتراف عيسى عليه السلام لنفسه بالعبودية ولربه بكمال الإنعام

قال الله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (29) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (30) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (31) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (32)﴾.

إن الله عز وجل لما أراد أن يخرق السنة المطردة في خلق الإنسان، علم أن الناس سيغالون في عيسى عليه السلام، فيرفعونه عن مقام العبودية إلى مقام الألوهية، فيدّعون أنه إله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، لذلك أنطقه الله عز وجل في أول استهلاله في مهده بإقرار عبوديته لله جل جلاله، وتنزيه الله عن صفات النقص.[1]

وإذا كانت المعجزة الأولى التي وهبها الله لعيسى عليه السلام تتعلق بخلقه دون تدخل لنطفة آدمي، فإن المعجزة الثانية ـ كلامه في المهد ـ علامة على صدق ما جاءت به مريم عليها السلام، وتصديق لوعد الله إياها في قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]، فتمحو العجب الذي يساورهم والسخرية التي تجيش بها نفوسهم، ويعود بذلك ما عرفوه من عبادتها ونسكها.[3]

وكلامه عليه السلام في مهده بقدر ما هو معجزة في ذاته، فهو دليل على بشرية عيسى وآدميته؛ لأن الذي يولد صغيرا ويوضع في المهد، حتما لا يبقى كذلك طوال حياته، بل يمر

---

1 ـ انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. 98/16. بيوض: في رحاب القرآن. تفسير سورتي مريم وطه. ص82. وطهماز: التوحيد والتنزيه في سورة مريم. ص45. و الحلال والحرام في سورة المائدة. دار القلم. دمشق. ودار العلوم الثقافية. بيروت. ط1 (1407هـ ـ 1987م). ص 90 ـ 95. والشعراوي: قصص الأنبياء. 3059/5

2 ـ آل عمران: 46

3 ـ انظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن. ص 198. ومحمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية. شركة الشهاب. الجزائر. ص88. و الشعراوي: قصص الأنبياء. 3068/5.

بمراحل وتحدث له تغيرات كثيرة ليصير بذلك كهلا أي ناضج التكوين. ومن كان هـــذا حاله فكيف يدّعون أنه إله ،وهل الألوهية وهو في المهد ،هي نفسها حال كهولته؟!

فكانت العبارات التي نطق بها المسيح في المهد قاطعة لكل وهم ،ومعارضة لكـــل مـــن يعتقد في عيسى شيئا غير العبودية لله ﷻ، فقوله : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إعلان عبوديته لربه ،وأنـــه متصف بكل صفات النقص من العبودية والذل والحاجة المنتفية في حق الله سبحانه وتعـالى، و لم يتميز عن غيره من البشر إلا بما أنعم الله عليه من النعم والمواهب التي في مقدمتها خلقه من أنثى دون ذكر ،واصطفاءه بالنبوة والرسالة في قوله تعالى :﴿ءَاتَنِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ .

والغرض من استعمال صيغة الماضي في الجملتين " آتى" و" جعل" « أن ذلك ســـابق في قضاءه تعالى، وسابق في حكمه ، ويحتمل أن يجعل الآتي لتحققه كأنه قد وجد ».[1]

كما تفيد صيغة الماضي في الجملتين السابقتين« أن هذه النعم التي كانت مـــن نصيبـــه عليه السلام ، إنما هي هبة منه تعالى له . فلم يكن منه عليه السلام ، أدنى سعي لذلك ،وكيف يكون هنـــاك سعي منه وهو الذي يتكلم الآن في سن المهد ».[2]

ومن النعم التي خصه الله بها أيضا أن جعله مباركا، « تقارنُ البركةُ أحوالَه في أعمالـــه ومحاورته ونحو ذلك»[3] ، وتتمثل مظاهر بركته في أن الله أرسله رحمة لبني إسرائيل بالهدايـــة إلى الحق بعد أن قست قلوبهم ، وبتوفيقهم إلى الخير ، كما أن بركته تمثلت في الآيات المعجزة الـــتي أجراها الله تعالى على يديه هبة منه لعبده الزكي ،حيث وقع نفعها في كل الأماكن التي حل بهـــا عليه السلام ،وامتدت بركته حتى شملت بني إسرائيل الذين آمنوا بالنبي ﷺ الذي بشرهم به .[4]

---

1 ــ أبو حيان : البحر المحيط . 187/6

2 ــ باجودة : تأملات في سورة مريم . ص76

3 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 99/16

4 ــ انظر: ابن عاشور : التحرير والتنوير . 99/16 . بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه. ص84

ووصية الله إياه بالصلاة والزكاة أمر خاص به دون غيره ،« وقرينته قولـــه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ لدلالته على الاستغراق مدة حياته ، في غير أوقات الدعوة أو الضـــرورات »[1]؛ لأن هذه الوصية أمر زائد على القدر المفروض منهما على أمته.

وفي وصية الله له ببر والدته ، تأكيد لما نطق به أولا، إذ نسبته لأمه إثبـــات لبشـــريته وتأكيد لضعفه وعجزه؛ لأن في مشاعر الأبوة والبنوة تعويض عن شـــعور الإنســـان بعجـــزه وافتقاره،كما أن بر الوالدة إشارة إلى ضعفها وأنها تحتـــاج إلى مـــن يجـــبر ضعفـــها ويشـــد أزرها،والولد والوالدة يحويان معنى الحدوث والتطور، ومن اتصف بكل هذه الصفات الناقصـــة لا يصلح أن يكون إلها،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وتصريحه ببر والدته يؤكد تبرئة عرضها مما اتهمها به اليهود عليهم لعنة الله ، فانتسابه لها من غير ذكر للأب يثبت أنه ولد منها من غير بعل.وأنه ولد كما يولد غيره من البشـــر ، والله تعالى منزه عن الحدوث والتجدد.

ونفي التجبر والشقاوة في حقه عليه السلام مناسب لكونه آية ورحمة للناس؛ إذ الرسالة الـــتي كلف بتبليغها تقتضي العمل على تغيير مسار الفساد الذي ألفه بنو إسرائيل ، وهذه المهمة بالغة الصعوبة مما يقتضي لين الجانب وسعة الصدر حتى يستميل القلوب لتهتدي إلى الحق ، ولهذا قال الله تعالى للرسول ﷺ : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾.[2]

وختم عيسى عليه السلام كلامه في المهد بالسلام والأمان، هبةٌ وفضلٌ من الله خصـــه بـــه في الأحوال التي يكون فيها الإنسان أحوج ما يكون إلى رحمة الرحمن﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(32) ﴾ ،فيوم الميلاد ، ويوم الوفاة ، ويوم البعث هي المحطات التي يتحـــول فيها الإنسان من طور إلى طور، و يحتاج فيها إلى السلام والأمان الرباني .

وهذه الأطوار التي أجراها المولى عز وجل على لسان نبيه عيسى عليه السلام، تؤكد مرة أخرى أنـــه مخلوق من خلق الله ، وتنفي ألوهيته أو نسبته إلى الله ؛ بل الله تعالى هو الذي يُجري على عبـــده

---

1 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . بتصرف . 16/99 ــ 100

2 ــ آل عمران : 159

تلك الأطوار، فهو الذي يحي ويميت ويبعث من في القبور، « وكأنه عليه السلام يخاطب بكلامه هذا كل من يأتي بعده ممن يضلهم الشيطان فيعتقدون تأليهه »[1]، و في المقـــابل كلامـــه عليه السلام «مؤذن بتمهيد التعريض باليهود إذ طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثلاثة ، فقالوا: ولـــد زنى ، وقالوا: مات مصلوبا ، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة ؛ لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكـــام التوراة».[2]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . بتصرف . ص84

2 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 101/16

المطلب الثالث ـ تقرير ربوبية الله تعالى وتنزهه عن الولد

قال الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (33) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (34) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (35) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (36) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (37) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (38) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (39) ﴾ .

بعد أن تناولنا أحداث قصة مريم وابنها عليهما السلام التي عرضتها السورة ، وقد كان حادث ميلاد عيسى هو الهدف فيها ، تلتها هذه الآيات التعقيبية لرسم « الغرض المقصود في أنسب موضع من السياق ، بلهجة التقرير ،وإيقاع التقرير»[1] ؛ وذلك لأن السياق كان في جو تملأه لمسات الرحمة واللطف، فناسبه الوقف بالياء الممدودة اللينة، حتى إذا انتقل إلى تلخيص الغرض وتقرير حقيقة عيسى عليه السلام،انتقلت الفاصلة من القصر إلى الطول ، والنغمة الموسيقية للقافية من الياء اللينة إلى الميم أو النون الساكنة .

والآيتان الأوليتان معترضتان لمقوله عليه السلام، في قوله :﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ مع قوله :﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾، وهما من قول الله تعالى « ليتره نفسه، وليبين حقيقة عيسى أنها ليست كما يزعم النصارى واليهود ،وهذا مهم ؛ لأنه يقرر عقيدة من العقائد التي ضل فيها كثير من الناس ».[2]

---

1 ــ سيد قطب : في ظلال القرآن . 2308/4

2 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه .ص 93

ونلاحظ أن اسم الإشارة في الآية الأولى ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لم يكتف فقط بذكر من سبقت نعوته الجليلة،وامتاز بالمناقب الحميدة عيسى عليه السلام؛ بل أعلن انتسابه إلى أمه ، ليؤكد تقرير حقيقة بشريته وأنه ابن مريم فقط،و﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ يوضح أن عيسى وجد بكلمة الله ألقاها إلى مريم ، ويبكت كل الذين يعتقدون في عيسى غير الحق ممن يدّعون انتسابهم للإنجيل؛لأنه لو كان له أب كما تدَّعي بعض طوائف النصارى لألحق به دون أمه عليهما السلام.

و قوله:﴿يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون فيه، ومعناه: « يعتقدون اعتقادا مبناه الشك والخطأ»[1]، فقالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله ،وثالث ثلاثة ، وهو الله، تعالى الله عن إفكهم وتقوّلهم علوا كبيرا.

« والذي يهمنا في هذه الآية أن نبين أنه عليه السلام محورها، فهناك تقليب للكلام عنه على ثلاثة أوجه، فهو ابن مريم، وهو قول الحق، وهو الذي فيه يمترون. ويكون هذا التتابع والإلحاح تعبيرا في طريق التهويل عن الخطأ الجسيم الذي ارتكبه بعض أتباع السيد المسيح ».[2]

وبعد أن قرر المولى سبحانه وتعالى عبودية عيسى عليه السلام في الآية السابقة ، أعقبه بالتقرير الحاسم بتنزهه تعالى عما لا يليق بجلاله من اتخاذ الولد وغيره، فقال تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(34)﴾.

وسياق قوله :﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ يدل على القطع في انتفاء الولد عن الله [3]، وبالتالي الدلالة على ضلال أولئك المنحرفين . فصفة الألوهية تقتضي أن لا يكون لله صاحبة ولا ولد ، فلا تشابه مطلقا بين الخالق والمخلوقين ،« وأكد هذا النفي بمِن، و"من" تزاد في هذا

---

1 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 103/16

2 ــ باجودة : تأملات في سورة مريم .بتصرف . ص79

3 ــ التركيب " ما كان " تارة يدل على الجزر مثل : " ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله " ، وتارة على التعجيز مثل :" ما كان لكم أن تنبتوا شجرها " ، وتارة على التنزيه مثل هذه الآية . أبو حيان: البحر المحيط .189/6.

المقام للاستغراق، لشمول النفي وعمومه أيًّا كان جنس الولد ، لا عيسى ولا غـــيره، لا قبله ولا بعده ».[1]

وهذا النفي ؛لأن الولد يحتاج إليه الإنسان الفاني الذي يدرك أنه ميت لا محالة ، فيكـون اتخاذه للولد إما لاستدامة ذكره في الأجيال ، أو يكون اتخاذه للنصرة والمساعدة عند الضعـــف، والذي يحتاج إلى ذلك يكون ضعيفا ،والله تعالى قوي لا يحتـــاج معينـــا ، وبـــاق لا يخشـــى فناء.فتنزيهه تعالى مطلقا في ذاته وصفاته وأفعاله.

ومن صفات ألوهيته تعالى قدرته على كل شيء ، فلا يعجزه شـــيء في الأرض ولا في السماء،فإذا تعلقت قدرته بأمر كان ، هذا ما يدل عليه قولـــه :﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٤﴾،وقوله :﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2]، «فمـا يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين ».[3]

والتنكير في "أمرا" يفيد الشمول والإحاطة، فمهما عظمت الأمور في أعيننا نحن، فـــهي من أهونها على الله تعالى. فعيسى عليه السلام كائن كغيره من الكائنات التي توجد بقوله: "كـــن"،ولا يتميز عنها في شيء سوى أنه كلمته ألقاها إلى مريم، فخلقه من غير أب .

واستدل الإمام الرازي عقليا على تنزيهه تعالى عن الولد انطلاقا من التتـــابع في قولـــه: ﴿سُبۡحَانَهُۥ﴾ وقوله:﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٤﴾ ، قال: « كان كالحجـــة على تنزيهه عن الولد، وبيان ذلك: أن الذي يجعل ولدا لله ، إما أن يكون قديما أزليا أو يكـــون محدثا.

فإن كان أزليا فهو محال؛ لأنه لو كان واجبا لذاته لكان واجب الوجـــود أكـــثر مـــن واحد،هذا خلف. وإن كان ممكنا لذاته كان مفتقرا في وجوده إلى الواجب لذاته غنيا ، فيكـــون الممكن محتاجا لذاته فيكون عبدا ؛فإنه لا معنى للعبودية إلا ذلك .

وأما إن كان الذي يجعل ولدا يكون محدثا فيكون وجوده بعد عدمه يُخلق بخلق ذلك

---

1 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه .ص 90

2 ــ يس : 81

3 ــ سيد قطب : في ظلال القرآن . 2308/4

القديم وإيجاده، وهو المراد من قولـه: ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فيكون عبدا له لا ولدا،فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد ».[1]

ولما كان توحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات المخلوقين هو جوهر الدين وأساسه ، ورد تقرير براءة الله عن اتخاذ الولد وتنزيهه في عدة آيات من القرآن الكريم ، منها :

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[2]، فالعباد المكرمون لا يضفي عليهم صدقهم وتقواهم صفة القداسة والعظمة الإلهية، فهم مع قربهم لا يسبقونه بالقول ويطيعونه في كل أمر.

وقولـه تعـالى:﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[3]، فاتّخاذ الولد من أحكام الحاجة ، والله غني ،وجوده بذاته ،وبـه وجـود كـل شيء،وهو مستغن بملكه لعبيده عن اتّخاذ أحدا منهم ولدا.

وعود بعد فصل إلى مقول عيسى عليه السلام، قال تعـالى علـى لسـانه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ(35) ﴾ ،فكما بدأ نطقه في المهد بإقرار عبوديتـه لله تعالى، ختمه بإقرار ربوبيته ﷻ، وأنه وحده المستحق للعبـادة؛ لأن العبـادة نتيجـة حتميـة للربوبية،والناس جميعا مربوبون له وحده لا شريك له ، فالذي يستحق أن يعبد هـو المتفضـل على خلقه بالنعم و المتولي لتربيتهم ، والتربية تقتضي رعاية قيُّومية حتى يستوفوا آجالهم.

فعبادة الله وحده هي جماع قول نبي الله عيسى عليه السلام وجوهر دعوته ،والتي يشترك فيها مع غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقد صورت الآية العبادة الحقّة بالصراط المسـتقيم، أي طريق غير ملتو ولا متشعب؛ لأن الطريق إذا التوى أو كثرت تشعباته أدى إلى الانحـراف والزلل.

---

1 ــ الرازي : التفسير الكبير . 217/21 ــ 218

2 ــ الأنبياء : 26 ، 27

3 ــ يونس : 68

و يناسب هذا المقام ذكر آيات أخرى برأ الله ﷻ فيها المسيح عليه السلام مما نسب إليه من التصورات المنحرفة، وشهد أنه قد دعا بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾.[1]

وقد وصف القرآن الكريم مشهدا من مشاهد يوم القيامة أعلن فيه عيسى عليه السلام براءته من دعوى التأليه والتثليث مقرا إيمانه بوحدانية الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2]

ومع وضوح دعوة عيسى ابن مريم عليهما السلام وتقريرها ، إلا أن الخلاف دب بين أحزاب بني إسرائيل وانشقت العصا بينهم وتفرقوا طرائق قددا ، وذلك لسوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف ، فاختلف اليهود والنصارى فيما بينهم إفراطا وتفريطا، وقد بينت الآية التالية هذه الحقيقة ،فقال تعالى:﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (36) ﴾.

والاختلاف ليس غريبا على بني إسرائيل ، « فالمستعرض لتاريخهم يأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار »[3] . فبنو إسرائيل« أمة قاسية عاصية ، تارة يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يعبدون

---

1 ــ المائدة : 74

2 ــ المائدة : 118 ، 119

3 ــ سيد قطب : في ظلال القرآن . 66/1

الله ، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق ، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل . فلعنوا أولا على لسان داود ...ثم بعث الله المسيح بن مريم ، رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وجعله وأمه آية للناس ، حيث خلقه من غير أب إظهارا لكمال قدرته وشمول كلمته ...فتفرق الناس فيه ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب:

— قوم كذبوه وكفروا به وزعموا أنه ابن بغي ، ورموا أمه بالفرية ونسبوه إلى يوسف النجار ، وزعموا أن شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء ...

— وقوم غلوا فيه وزعموا أنه الله و ابن الله ، وان اللاهوت تدرع الناسوت ... وجعلوا الإله الأحد الصمد ، قد ولد واتخذ ولدا ، وأنه إله حي عليم قدير جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم[1] ...» .[2]

وفصل الإمام ابن القيم القول أكثر في اختلاف النصارى،وبين عقيدة كل فرقة منهم في كلام طويل ، فكان من بين ما ذكر قوله:« لا تعلم أمة أشد اختلافا في معبودها ونبيها ودينها من النصارى، فلو اجتمع عشرة منهم يتذاكرون الدين لتفرقوا عن أحد عشر مذهبا ، مع اتفاق فرقهم المشهورة اليوم على القول بالتثليث ،وعبادة الصليب ، وأن المسيح بن مريم ليس بعبد صالح ،ولا نبي ، ولا رسول ، وإنما هو إله في الحقيقة ، هو أب والد لم يزل ، وأن ابنه نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ومن مريم ، وصار هو وابنها الناسوتي إلها واحدا ، ومسيحا واحدا ، وخالقا واحدا ، ورازقا واحدا ، حملت به مريم وولدته ، هذا هو الله في زعمهم ، وهو ابن الله ،وكلمة الله .

ثم اختلفت فرقهم بعد ذلك في شخصية المسيح عليه السلام إلى أقوال عدة :

---

1 — الأقانيم ترادف الثالوث ، فالثالوث هو ثلاثة أقانيم منفصلة عند بعض طوائف النصارى ، متحدة عند طوائف أخرى والأقانيم الثلاثة هي : أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم روح القدس . انظر : محمد أحمد صالح : النصرانية من التوحيد إلى التثليث . دار القلم .دمشق . دار الشامية . بيروت ط1 (1413هـ — 1992م) . ص 207 — 239

2 — أحمد بن عبد الحليم بن تيمية : الرسالة القبرصية . عناية علاء دمج . دار ابن حزم . ط3 (1418هـ — 1997م) . بتصرف . ص 24— 27

ـــ قالت اليعقوبية [1] إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتـــين ،إحداهمـــا طبيعـــة الناسوت ،والأخرى طبيعة اللاهوت . وإن هاتين الطبيعتين تركبتا فصـــار إنســـانا واحـــدا ، وجوهرا واحدا ، وشخصا واحدا هو المسيح،وهو إله كله ،وإنسان كله ،وأن مريم ولدته ، وأنه صلب،ومات ودفن ثم عاش بعد ذلك .

ـــ وقالت الملكية[2]: إن الابن الأزلي الذي هو الكلمة ، تجسدت من مريم تجسدا كـــاملا كسائر أجساد الناس ، وركبت في ذلك الجسد نفسا كاملة ، فصار إنسانا بالجسد والنفس اللذين هما من جوهر الناس ، وإلها بجوهر اللاهوت ،كمثل أبيه لم يزل .

وقالوا : إن مريم ولدت المسيح ،وهو اسم يجمع اللاهوت و الناسوت ، والذي مـــات هو الذي ولدته مريم ، واللاهوت لم يمت و لم يدفن ، ثم قالوا هو إله تام بجوهر لاهوته ،وإنسان تام بجوهر ناسوته ، وله مشيئتان : لاهوتية وناسوتية

ـــ وذهب النسطورية[3] إلى القول بأن المسيح شخصان وطبيعتان ،لهما مشيئة واحـــدة ، واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصانا ، ولا يمتزج بشيء ، والناسوت يقبل الزيادة والنقصـــان ، وأن مريم ولد ت المسيح بناسوته ، و أن اللاهوت لم يفارقه قط .

ـــ وقالت الأريوسية: إن المسيح عبد الله كسائر الأنبياء والرسل، وهو مربوب مخلـــوق مصنوع ، وكان النجاشي على هذا المذهب ».[4]

---

1 ـــ اليعقوبية : أتباع يعقوب البرذعي ، ولقب بذلك لأن لباسه كان من خرق براذع الدواب يرقـــع بعضـــها ببعـــض ويلبسها ، وتعرف اليوم بالأرثوذوكس . ابن القيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى . الجامعة الإســـلامية المدينة المنورة . ص 164 . وابن عاشور . التحرير والتنوير . 106/16

2 ـــ الملكية : هم الروم نسبة إلى دين الملك ، لا إلى رجل يدعى ملكانيا هو صاحب مقالتهم ، كما يقوله بعض مـــن لا علم له بذلك ، وتعرف اليوم بالكاثوليك . ابن القيم : هداية الحيارى . ص 164 . وابن عاشور : التحريـــر والتنويـــر . 106/16

3 ـــ أصحاب نسطور الذي كان أسقفا على القسطنطينية ، وقد حرمه مجمع أفسس الأول سنة (431م) . ذكـــره محمـــد أحمد صالح : النصرانية من التوحيد إلى التثليث . "نقلا عن موسوعة تاريخ الأقباط لزكي شـــبودة . 177/1" . ص202 . بينما ذكر أحمد الشهرستاني أنهم " أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأنـــاجيل بحكـــم رأيه" . الملل والنحل . تحقيق : محمد سيد كيلاني . دار المعرفة . بيروت .(1404هـــ) . 224/1

4 ـــ ابن القيم : هداية الحيارى . بتصرف . ص164 ـــ166

فهذه الفرق ـــ عدا الأريوسية ـــ وإن اختلفت في طبيعة المسيح إلا أنها اتفقت في الأخير في نسبة الولد لله تعالى ، والغلو في عيسى عليه السلام حتى رفعوه إلى مقام الألوهية، واستنكفوا أن يكون عبدا لله تعالى مع شهادته عليه السلام لنفسه بالعبودية.[1]

وقد كشف القرآن الكريم النقاب عن حقيقة ادعاءاتهم وافتراءاتهم ، وحكم الله تعالى عليهم بالكفر ،فقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .[2]

كما خصهم بالنداء وأمرهم بالانتهاء عن الغلو والإطراء في الدين ، والرجوع عن غيهم،فقال : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾[3] ، وقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ .[4]

وتوعد الله تعالى بالعذاب الشديد كل الأحزاب المكذبة بالحق، المفترية على الله زاعمة أن له ولدا، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(36) ﴾ ، فأنظرهم في هذا الوعيد إلى يوم القيامة ،وهذا يعتبر حلم منه تعالى ورحمة ، ولكنهم مع ذلك بقوا ماكثين في ضلالهم ، وعموا عن إبصار الحق وصمت آذانهم عن سماعه ،فجاء السياق القرآني مبينا مدى إعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا وهم في يوم المشهد وهم أشد ما يكونون سمعا وأحد ما يكونون بصرا ،قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(37) ﴾، «فهم

---

1 ـــ وقد فصل في بيان فرق النصارى المنحرفة وجذور نشأتها ، آراءها العقدية ، ومناقشتها : تقي الدين ابن تيمية الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . دار ابن خلدون . الأسكندرية . ورحمة الله الكيرانوي الهندي . إظهار الحق . تحقيق: عمر الدسوقي . منشورات دار الكتب. 543/1 ـــ 593 . 25/2 ـــ 39 . و أحمد عبد الغفور عطار. الديانات و العقائد في مختلف العصور . ط1(1401هـ ـــ 1981م) . الجزء الثالث .الدكتور محمد شلبي إبراهيم شتيوي ،في " عقيدة التثليث عند النصارى نشأتها ، تطورها ، إبطالها " . مقال . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية . س3 . عدد 5 .(شوال 1406هـ ـــ يوليو 1986م) . و الدكتور عبد العزيز إسماعيل صقر . افتراءات النصارى في ضوء القرآن الكريم مقال . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية . س9 . عدد 23 . (ربيع الأول 1405هـ ـــ أغسطس 1994م) .ص46 ـــ 62

2 ـــ المائدة : 74

3 ـــ المائدة : 79

4 ـــ النساء : 170

أسمع وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة خزي ولإسماعهم ما يكرهون، وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم ».[1]

ولما كان سبب عدم وقوف هؤلاء على دلائل الهداية هو انشغالهم بأهوائهم وشهواتهم ومآربهم الدنيوية، جاء الأمر الإلهي لنبيه ﷺ بالإنذار والتخويف باليوم الذي يتحسر فيه المسيء على إساءته، والمحسن على قلة إحسانه ،﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(38)﴾.

وتختتم القصة بإقرار كماله تعالى وغناه وتفرده بالبقاء والدوام ، وزوال جميع الممالك والملوك، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(39) ﴾، ففي هذا السياق تقرير لصفة من صفات كماله تعالى ، فهو "الوارث" الحقيقي الذي يرث كل شيء ، وهذا يستلزم قدرته المطلقة التي لا تقيدها الأسباب، وهذا من بين الأغراض التي حققتها ولادة عيسى ، وكلامه في المهد .

ومما يستفاد أيضا من سياق الآية التعريض بأولئك الذين ضلوا الطريق واستهوتهم أنفسهم وتعلقوا بالدنيا ، ألم يعلموا أنهم فانون كفناء دنياهم ، وأن الموت لاقيهم والحساب ينتظرهم ، « والتعبير بالإرث فيه إشارة إلى موتهم ؛ لأن الوارث لا يرث إلا بعد موت المورث».[2]

---

1 — سيد قطب : في ظلال القرآن . 2309/4

2 — بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه .ص 98 . وانظر: طهماز: التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص51

الخلاصة :

وبعد هذا التفصيل الدقيق لدروس القصة وما احتوته من أغراض ، نخلص في الأخير إلى العناصر الكلية التي تربطها بمحور السورة وموضوعها :

ـــ إن السياق العام للقصة يهدف إلى تقرير الحق الذي امترى فيه كثير من أهل الكتاب،ووضع الأمور في نصابها ، فبين الله تعالى أنه خالق كل شيء ومالكه ،وجميع الناس عبيده خاضعون له، فقراء إليه، فهو ربهم ،ولا رب سواه ، « فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا من شيئين متناسبين ، فالله تعالى لا نظير له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فهو الكامل في علمه وحكمته ورحمته ، ولا شبيه ولا عديل ولا مكافئ له ، فانتفى أن يكون له ولد ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ».[1]

فتنزيه الله تعالى عن الولد يقتضي أن يكون عيسى عليه السلام عبدا من عباد الله الصالحين، ونبيا من أنبيائه، أرسله ليدعو بني إسرائيل ـــ بعد انحرافهم عن تعاليم التوراة ـــ إلى عبادة الله وحده لا شريك له.فأكرمه الله عز وجل بمواهب ونعم جليلة بأن جعله آية ورحمة .«وبهذا تهيئ آيات القصة السبيل أمام غلاة النصارى للرجوع عن غلوهم ، وتفتح الباب لهم ولأمثالهم ليوحدوا الله تعالى ويتخلصوا مما هم فيه من شكوك وخلاف، وتسد على كفار العرب الطريق الاحتجاجي والمماحكة ، وتلزم اليهود حدهم فيما كانوا يرسلونه من مطاعن شنيعة في عيسى وأمه عليهما السلام ».[2]

ـــ كما أبرزت آيات القصة أيضا أن ما اختص به عيسى عليه السلام من الآيات المعجزات و المقامات الرفيعة تعد إكراما و تفضلا منه تعالى وحده ، ودالة على عظمة رحمته بعباده المتقين .

و قد ضل من اعتقد دلالة هذه الآيات على ألوهية عيسى عليه السلام؛ لأنها لا تعمل إلا بإذن الله عز وجل و إرادته ، أما نسبة هذه الأفعال لعيسى عليه السلام لأنه سبب فيه فقط .فكما خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب، خلق عيسى عليه السلام من غير أب و أيده بهذه الآيات فضلا منه تعالى ورحمة.

---

1 ـــ ابن كثير : المسيح عيسى ابن مريم . تحقيق : عبد الرحمن حسن محمود . المطبعة النموذجية . الحلمية الجديدة . بتصرف . ص50 ـــ 52

2 ـــ دروزة : التفسير الحديث بتصرف . 45/3

المبحث الثالث ـ أسباب نيل رحمة الله تعالى

قال الله ﷻ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(58) ﴾ .

توطئة:

نستطيع إبراز المناسبة بين القصتين من خلال قوله تعالى:﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(40) ﴾، وذلك أن الخطاب موجه للنبيﷺ بإنذار جميع منكري التوحيد ، سواء كانوا من أهل الكتاب الذين أثبتوا معبودا سوى الله تعالى حيا عاقلا ، أو كانوا ممن أثبتوا معبودا من دون الله جمادا ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم ،والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن الفريق الثاني العابد للجماد أضل .فلما فرغ من الإنكار والرد على أهل الكتاب ثنى بالرد على عبدة الأوثان.[1]

وحلقات قصة إبراهيم عليه السلام عرضت في حوالي عشرين موضعا من القرآن الكريم ، وانفردت هذه السورة بالحلقة التي تفي بالغرض المقصود ، فأوردت حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه بشأن قضية توحيد الله في ألوهيته.

وجاءت آيات القصة متسقة مع الطابع العام للسورة الذي تملأه الرحمة التي أنعم الله بها على أنبياءه عليهم السلام وفاضت بها قلوبهم المشبعة بالإيمان. فجو الأبوة والبنوة المخيم على حوار إبراهيم مع أبيه مناسب لتلك الرحمة وذلك الإنعام .[2]

ومهدت السورة لهذه القصة بتوطئة قصيرة ذكر فيها ما أنعم الله تعالى به على عبده إبراهيم عليه السلام،فقال تعالى:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41)﴾ .

وهذه الآية عطف على آية المطلع ، فبعدما ذكر أمر زكريا ويحي عليهما السلام،

---

1 ــ أبو حيان : البحر المحيط .193/6 . و الرازي . التفسير الكبير . 222/21

2 ــ انظر : التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص57

ونبأ عيسى وأمه عليهما السلام أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بذكر خبر إبراهيم عليه السلام، وما كان من صدقه ونبوته وبراءته من عمل المشركين .

وأول ما أنعم الله به على إبراهيم عليه السلام المبالغة في الصدق، فقال: ﴿ صِدِّيقًا ﴾، وهو وصف أبلغ من المخلص، وقد كانت هذه المبالغة في دينه وعبادته ودعوته ،وفي شؤونه كلها ، فهو مجبول على ذلك.[1]

كما أنعم عليه بالنبوة ، فوقع له الإنعام من الله ﷻ بالمقامين ، وشرفه بالمنزلتين. وهذه المكانة الرفيعة أبرزها حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه الذي أوردته السورة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 ــ البقاعي : نظم الدرر . 536/4 . وطهماز : التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص 58

المطلب الأول ـ حكمة إبراهيم في التوجيه إلى ضرورة نبذ الشرك

قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾.

أول ما يلفت انتباه المتدبر لهذا الحوار أن إبراهيم عليه السلام صدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ متوسلا إليه ومستعطفا، باستعمال « المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن ورتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه في أرشق مساق،منتصحا في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا».[1]

وبعد أن أوضحت لنا القصتان السابقتان قوة عاطفة الأبوة عند نبي الله زكريا عليه السلام،وبينت قوة عاطفة البنوة عند يحي عليه السلام في قوله تعالى:﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ ،وعيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ ، جسدت لنا قصة إبراهيم عليه السلام أروع صورة للبر والإحسان، بر الولد بأبيه.[2]

وبدأ إبراهيم عليه السلام نداءه لأبيه بتخلية قلبه عن تعظيم الأصنام،فقال : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)﴾ ، فبين له أنها لا تستحق شيئا من العبادة ، « لأن العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام ، وهو الخالق الرازق المحي المميت المثيب

---

1 ـ الزمخشري : الكشاف . بتصرف . 510/2 ـ 511 . وانظر ابن عاشور : التحرير والتنوير . عن جده الوزير . 113/16 ـ 114

2 ـ انظر : طهماز : التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص 58

المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها ، فإذا وجهت إلى غيره لم يكن ذلك إلا ظلما وعتوا وغيا وكفرا وخروجا عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم».[1]

و إبراهيم عليه السلام يريد بذكره للصفات التي نفاها عن الأوثان أن يثبتها لله الخالق القادر الذي له ملك السماوات والأرض ، فهو السميع البصير الغني بذاته ، رب كل شيء ومليكه المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

وبعد أن هدم الأساس الزائف للمعبود بغير حق بأسلوب هادئ الرخاء ، انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي دعوة الحق ،وذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم ؛ لأنه كان كبير ديانة في قومه ، فألفت نظره إلى ما أكرمه الله به ومن به عليه من نعمة العلم [2] ، فقال: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾ « فدعاه مترفقا متلطفا فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك » .[3]

وفي إسناد المجيء إلى العلم دلالة على أن هذا العلم وهبي أنعم الله وتفضل به عليه دون سابق سعي ، وعلى هذا فالعلم الذي أوتيه هو الوحي والنبوة .

والصراط السوي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو عين ما دعا إليه عيسى عليه السلام قومه في قوله :﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)﴾ .

وبعد هذه المرحلة التي دعا فيها إبراهيم عليه السلام أباه لاتباعه بالنظر والاستدلال وترك التقليد، جاء سياق الحوار صريحا في النهي عن عبادة غير الله عز وجل فقال تعالى:﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (43)﴾ .

---

1 ــ الزمخشري :الكشاف . بتصرف . 510/2

2 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . عن جده الوزير . 114/16 . وطهماز : التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص 58 . و باجودة: تأملات في سورة مريم . ص90

3 ــ الزمخشري : الكشاف . بتصرف . 510/2 ــ 511

ونهى إبراهيم عليه السلام أباه عن عبادة الشيطان ؛ « لأن الأصنام ليس لها دعوة أصلا... فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان ، فكان هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ».[1]

وعلل نهيه عن عبادة الشيطان بقوله :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ ؛ لأن العصي للرحمن خليق بأن يعصى ولا يطاع ؛ وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالسبب الذي من أجله أوجد الله عز وجل الإنسان ، وهو عبادته وحده لا شريك له .[2]

وذكر ابن عاشور أن وصف "عصيا" « الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان مع زيادة فعل "كان " للدلالة على أنه لا يفارق عصيان ربه ، وأنه متمكن منه ، فلا جرم أنه لا يأمر إلا بما ينافي الرحمة ؛ أي بما يفضي إلى النقمة ، ولذلك اختير وصف الرحمن من بين صفات الله تعالى تنبيها على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته ، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع ».[3]

ولم يذكر إبراهيم عليه السلام من جنايات الشيطان إلا كونه عاصيا لله عز وجل ، وأغفل معاداته لآدم عليه السلام «كأن النظر في عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان أغمر فكره وأطبق على ذهنه ».[4]

ولما بين إبراهيم عليه السلام لأبيه ما يدل على منع عبادة الأوثان ، ثم بين له السبيل إلى ذلك، وحذره من التمادي في غيه وكفره ، تدرج معه لبيان الوعيد الشديد لمن أقدم على عبادة غير الله تعالى. فقال:﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (44) ﴾ .

وتكرر اسم الله عز وجل" الرحمن" في الآيتين الأخيرتين يتماشى وروح السورة التي تظللها رحمة الله وفضله وإحسانه .

ونلاحظ في هذه الآية أن خوف إبراهيم عليه السلام وشفقته على أبيه ينبعان من قلبه الفياض بالرحمة والحنان من أن يمس أباه عذاب من الرحمن،« وكأننا نسمع دقات قلب إبراهيم عليه السلام،

---

1 ــ البقاعي : نظم الدرر . بتصرف . 537/4 . وانظر : باجودة: تأملات في سورة مريم . ص92 ــ 93

2 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . عن جده الوزير . 114/16 .و بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه.ص105. و باجودة: تأملات في سورة مريم . ص93

3 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 117/16 . وانظر : الألوسي : روح المعاني . 415/8

4 ــ الزمخشري : الكشاف . بتصرف . 2/ 511

إشفاقا على أبيه ،وهو يستعمل جملة " أن يمسك" و كلمة " عذاب" المنكـــرة ، اللتـــان تدلان على خوفه المفرط أن يمسه من الرحمن أقل عذاب .و في استعماله هذا يذكرنا بخـــوف زكريا عليه السلام على شؤون الدين ، وذلك في قوله تعالى :﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ ».[1]

و سياق الآية ــ بإضافة العذاب للرحمن ــ يشعر أن وصف الرحمانية لا يدفع حلـــول العذاب كما في قوله ﷻ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[2]، كما أن السياق يشير أيضـــا إلى «أن أصل العذاب هو الحرمان من الرحمة؛ لأن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنمـــا يكـــون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته من شأنه سعة الرحمة ».[3]

وفي الأخير فهذه المناصحات « تدل على شدة تعلق قلبه بمعالجته لأبيه و الطماعيـــة في هدايته قضاء لحق الأبوة وإرشادا إلى الهدى» .[4]

المطلب الثاني ــ مقابلة آزر نعمة التوحيد بالكفر والعناد

قـــال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا(46)﴾.

لما عرض إبراهيم عليه السلام القضية الكبرى، قضية التوحيد على أبيه المشرك ، « وأطلعه علـى سماجة صورة أمره وهدمَ مذهبه بالحجج القاطعة وناصحه المناصحة العجيبة »[5]، منتـــهجا في ذلك أسلوبا حكيما ، مع ما أوتي من رحمة ولطف ورفق، قابله أبـــوه المشـــرك آزر بالجهالـــة والسفاهة، ورد على قوله المؤدب المهذب بالقسوة والشدة ، فلم يقدر مقتضى المقـــام عندمـــا دعاه ابنه بـــ ﴿يَا أَبَتِ﴾ بأن يجيبه "يابني" ، بل ناداه باسمه ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾.

---

1 ــ باجودة : تأملات في سورة مريم . بتصرف . ص94

2 ــ الانفطار : 06

3 ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير . بتصرف . 118/16

4 ــ أبو حيان : البحر المحيط . 194/6

5 ــ الزمخشري : الكشاف . 2/ 511

وكان أبوه آزر يدرك ما ذكره ولده الحليم من أن الآلهة التي يظل لها عاكفـــا لا تحرك ساكنا،لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئا ،وأن الشيطان عدو لله عاص له ، وأن مآل مـــن يتبعه العذاب الشديد يوم القيامة ،إلا أن تعلقه بآلهته ملأ عليه كل قلبه وغمر جميـــع فكـــره ، فأجابه بمنتهى الفظاظة والغلظة بأسلوب يوحي ببعده عن الفهم وتصلبه في الكفر، فقال تعـــالى على لسانه: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

ولأن رغبة إبراهيم عن آلهتهم تشكل موضوعا حساسا بالنسبة لمكانة آزر من قومـــــه، بدأه أبوه بالإنكار والتعجب من رغبته عنها ، إذ لم يتصور أن يأتي عليه يوم يقف أمامـــه مـــن يدعوه لترك آلهته، فكيف والفاعل ابنه ، ولذلك ازداد غيظا وحنقا. وحتى يظل ابنه على طريقته لجأ إلى جمع الإله بدل الإفراد ، « فكأن لسان حاله يقول: هب أنك رغبت عن هذا الإله مثلا، هلا عنى ذلك رغبتك في إله آخر من جنسه . أما أنك ترغب عن كل آلهتي إلى ما لا يعـــرف . فهذا هو الشيء الذي لا يحتمله عقل ».[1]

وثورة آزر القاسية الشديدة تشعر بما كان يختلج صدره من حاجته إلى مناصرة ابنه لـــه حتى يرث خدمة الآلهة من بعده ، ولا تنتقل إلى غيره ، فلما فاجأه بإعراضـــــه عنـــها جميعـــا واختياره عقيدة التوحيد منهجا وسلوكا ، جاء تهديده إياه بالقتل إن لم ينته عن دعوته ، وكـــلن الأمر القاطع بمهاجرته.وبهذا نقف على وجه المفارقة الشاسعة بين خوف زكريا عليه السلام على إرث دعوة التوحيد وعبادة الله وحده ، وخوف آزر على إرث عقيدة الشرك وعبادة الأوثان .

وفي حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر تسلية للنبي ﷺ وتأسية بأبيه الأعظم فيما كان يتلقى من أذى المشركين ، فموقف مشركي قريش ـــ من أعمامه وغيرهم ـــ من عقيـــدة التوحيـــد كموقف آزر وقومه من دعوة إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده .

---

1 ـــ باجودة: تأملات في سورة مريم . بتصرف . ص97

المطلب الثالث ــ مواهب الله تعالى لعبده إبراهيم عليه السلام

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾ .

فإبراهيم الخليل عليه السلام ذاق حلاوة إخلاص العبادة لله وحده ، وما كان يريد أن يبقى أبوه شقيا باتخاذه آلهة غير الله ﷻ، فلما تدرج معه في دعوته بحكمة وأدب واستنفذ كل سبل الحوار الهادى المقنع، وكان رد أبيه بفظاظة الكفر وغلظة الشرك مهددا إياه بالقتل، كان جوابه عليه السلام كله أمان ورحمة على أبيه لعل الله تعالى يهديه ، ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)﴾ . والسلام هو الأمان المقترن بالموادعة والمفارقة ، ومن حلمه عليه السلام أن متاركته أباه مثوبة بالإحسان في معاملته آخر لحظة.

ولا تعني هجرته لأبيه أنه سيتركه بالمرة ، بل سيظل حريصا إلى أن يهديه الله للإيمان ــ إن شاء ذلك ــ، ولذلك قرن سلامه بوعده بالاستغفار، أي يطلب له الهداية من الله تعالى إلى توحيده وإخلاص العبادة له وحده ، فيغفر سابق شركه .

ونلاحظ في الآية أن إبراهيم عليه السلام أضاف الاستغفار إلى ربه ﷻ، وهذا تقرير منه بأن الرب المحسن إليه والمتفضل عليه بالرحمة و تمام النعم هو المنعوت بتلك الصفات التي نفاها عن الآلهة ، فالذي يملك الهداية إلى التوبة ويغفر الذنوب هو الله ﷻ المتصف بصفات الكمال والجلال. ويؤكد هذا التقرير قوله:﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أي: بالغ الحفاوة بعبده إبراهيم عليه السلام بالإحسان إليه بالنعم ، وتعويده اللطف به وإجابة دعاءه [1]، فكما لم يعوده الشقاء في الماضي ، يطمع أن يمن عليه ويتم عليه إنعامه بمغفرة ذنوب أبيه بأن يوفّقه للإسلام .

---

1 ــ انظر : الخازن : لباب التأويل في معاني التنزيل . 201/4

وفي توجيه السلام لأبيه ووعده بالاستغفار له دعوة لآزر إلى التأمل والتدبر في حقيقة آلهته هل تحمل أدنى صفة من تلك الصفات التي نفاها عنها ابنه الحليم عليه السلام ، وأثبتها لله الواحد القهار؟

ورأى عليه السلام أن هجرة أبيه دون قومه لن تجدي ما داموا على طريقة أبيه، ولذا أعلن اعتزاله لكل من يعبد من دون الله،فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ، وهذا فيه إشعار بأن الأصنام التي يدعونها غير مؤهلة للدعاء والعبادة.

وفي قوله:﴿ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ ، « عبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله وحده، فهو ربه وحده من بينهم ، وهذا يعني اعتزازه بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك » .[1]

ومع هذا الإخلاص الذي يتحلى به إبراهيم الحليم عليه السلام فهو يرجو ألا يشقى بدعاء ربه وعبادته، فقال: ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ ،أي عسى أن يرحمني ربي باستجابة دعائي، ونظير هذه الآية قول الله في قصة زكريا عليه السلام:﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (3)﴾ ، و هذا فيه إشارة إلى « أن رحمة الله هي الأهم في الموضوع ، فما قيمة العبادة إذا لم يقبلها رب العزة لسبب من الأسباب ، و لم يتغمد إبراهيم برحمته ؟ » [2]

ويشير هذا الشطر من الآية إلى إخلاصه عليه السلام لله تعالى وتواضعه له وهضم نفسه،كما يشعر بالتعريض بشقاوة المشركين في عبادتهم للأوثان التي لا تستطيع أن تجلب لهم نفعا ولا أن تصرف عنهم سوءا .[3]

---

1 ــ ابن عاشور :التحرير والتنوير . بتصرف . 123/16

2 ــ باجودة: تأملات في سورة مريم . بتصرف . ص 102 ــ 103

3 ــ علاء الدين الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل. دون معلومات طبع . 201/4 . و أبو حيان : البحر المحيط . 496/6

وبعد أن هاجر إبراهيم عليه السلام بدينه إلى حيث يعبد ربه مخلصا له في العبادة أنعم عليه بعدة مواهب جليلة إكراما منه لعبده الشكور،فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا(49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا(50) ﴾ .

ونلاحظ من خلال هاتين الآيتين سعة رحمة الله تعالى وعظيم عطائه لعبده إبراهيم عليه السلام جزاء هجرانه للشرك وأهله والفرار بدينه ، وتكرار جملة ﴿وَهَبْنَا﴾ في الآيتين يؤكد هذا العطاء الجزيل .

ـــ وأول هذه المواهب أن منّ الله عليه بالولدين الصالحين إسحاق ويعقوب عليهما السلام ، أما إسحاق فيعد الموهبة الشاملة له ولزوجه ، فإبراهيم عليه السلام لما هاجر قومه رافقته زوجته سارة مؤيدة بذلك زوجها فأنعم الله عليهما بإسحاق على كبر سنهما، قال الله عز وجل على لسانه عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1]. وأنجب إسحاق يعقوب فسر إبراهيم عليه السلام به حفيدا ، فكانت نعمة هذين الولدين موهبة معاشرة ومؤانسة إبراهيم عليه السلام وزوجه .[2]

وقد سبقت هذه الموهبة نعمة البشارة، عندما بشرت الملائكة زوجته عليه السلام في قوله عز وجل :

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .[3]

ـــ و لم يتوقف عطاء الله تعالى عند نعمة الأولاد الصالحين بل ازداد إلى ذلك موهبة أخرى هي أعظم وأبلغ من سابقتها ، فقال عز وجل : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، فالنبوّة عطية الله لخواص عباده.

ـــ ويستمر فضل الله تعالى على خليله عليه السلام لتشمله الرحمة في الدين بالنبوة له ولعقبه،وفي الدنيا بالملك والمال والولد ، فجاء نص الآية عاما ، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ ،

---

1 ـــ إبراهيم : 41

2 ـــ انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير . 124/16

3 ـــ هود : 70

ويؤيد هذا العموم قوله ﷻ: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾.[1]

ـــ ومن رحمة الله على إبراهيم عليه السلام وآله أن جعل لهم ثناء حسنا عند الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ ، وهذا استجابة لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾.[2]

« وهكذا رتب جزاء الله إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيبا بديعا إذ جوزي بنعمة الدنيا ، وهي العقب الشريف ، ونعمة الآخرة وهي الرحمة ، وبأثر تلك النعمتين وهو لسان الصدق ، إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين ».[3]

وبعد هذا البيان تكون قصة حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه قد أقامت الحجة على مشركي العرب ، فإنهم ينتسبون إلى إبراهيم ويدّعون الاعتزاز به ، فإذا بين لهم النبي ﷺ خراب عقيدتهم وفساد عبادتهم ردوا بما حكاه القرآن ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[4] فبيّن القرآن أنهم إن كانوا يعتزون بإبراهيم حقا ويفتخرون بالانتساب إليه ، فإنه تبرأ مما كان يعبد أبوه وقومه وقال :﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا(48) ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[5] ، والكلمة الباقية هي عبادة الله وحده لا شريك له ونبذ ما سواه من الأوثان،جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى.[6]

---

1 ـــ النساء : 53

2 ـــ الشعراء : 84

3 ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 126/16

4 ـــ الزخرف : 21

5 ـــ الزخرف : 26،25

6 ـــ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . 222/6 ـــ224 . و دروزة : التفسير الحديث . 52/3

وجملة ﴿وَهَبْنَا﴾ في الآيتين السابقتين تعد أهم وشيجة تربط بين القصص الثلاث ــ زكريا، و إبراهيم، ومريم عليهم السلام ــ ، وذلك أن زكريا عليه السلام وزوجه وهبهما الله تعالى يحي عليه السلام على كبر سنه و عقر امرأته ، و مريم عليها السلام اصطفاها الله على نساء العالمين بإنجاب عيسى عليه السلام من غير أب ، وإبراهيم عليه السلام وهبه الله الذرية وقد تقدمت به و بزوجيه السن،فالرحمة في قوله تعالى :﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ترتبط مباشرة بمطلع السورة ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (1) ﴾ ، وبقوله تعالى على لسان الملك مخاطبا مريم عليها السلام : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا(21) ﴾ ، فعنصر الرحمة هو الرباط الذي يربط آيات قصة إبراهيم مع آيات القصتين السابقتين .[1]

وآثار صفة الرحمة التي تثبتها هذه القصص الثلاث اتخذت في تحققها طريق المعجزات و خرق المألوف ــ كما رأينا في تفصيل القصص ــ، مما يثبت طلاقة قدرته ﷻ وحرية مشيئته ، ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(35)﴾ ، وطلاقة القدرة صفة تدل على أن الموصوف بها كامل ــ في صفاته وأسماءه وأفعاله ــ، منزه عن النقص والضعف والعجز والحاجة ، وكمال الصفات يستلزم إفراده وحده بالربوبية المستحقة للعبادة ، فالرب الكامل هو من يغدق على معبوديه بالفضل والإنعام والإحسان؛لأن الناقص لا ينعم ولا يهب بل يحتاج إلى رحمة الغني سبحانه وتعالى .

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الرازي من أن الله ﷻ أمر النبي ﷺ بذكر خبر إبراهيم عليه السلام ؛ « لأنه ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب ، فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخبارا عن الغيب ومعجزا قاهرا دالا على نبوته ».[2]

---

1 ــ انظر : باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 104 ــ 105

2 ــ التفسير الكبير . 222/21

المطلب الرابع ـ نعم الله تعالى على عباده موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام

أولا ـ نعم الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام

قال الله ﷻ : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (51) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)﴾ .

بعد أن نوهت السورة بالأنبياء السابقين وذكرت مظاهر رحمته تعالى بهم ، أشادت بموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام وذكرت جليل نعمه ﷻ عليهم ،إلا أن ذلك كان باختصار شديد بخلاف القصص الثلاث الأولى .

ولما كان موسى عليه السلام أشرف نبي من ذرية إسحاق ويعقوب عليهما السلام، وأول من نوه الله بأسمائهم على لسانه في التوراة، وأظهر محامدهم وشهر مناقبهم أفضت مناسبة ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام إلى استرسال السياق في بيان ما أنعم الله به على عبده موسى عليه السلام .[1]

1 ـ اختصه الله تعالى بنعمة الإخلاص، فقال: ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾ ، والإخلاص على الوجهين ـ بفتح اللام أو كسرها[2] ـ « عنوانه عليه السلام ومزيته؛ لأنه:

أ ـ أخلص في طاعته لربه تعالى ، وذلك بتوحيده وعبادته والدعوة إليه وحده ، فاستخف بفرعون وجادله مجادلة الأكفاء ، واثبت له أنه لا جبار بعد الله تعالى ، فكان مخلِصا في ذلك .

---

1 ـ انظر : البقاعي : نظم الدرر . 539/4 . و ابن عاشور : التحرير والتنوير . 126/16

2 ـ قرأ حمزة ، وعاصم ، و الكسائي "خلف" بفتح اللام ، وقرأ الجمهور بالكسر ـ انظر : البقاعي : نظم الدرر . 539/4 . و ابن عاشور : التحرير والتنوير . 126/16

ب ــ استخلصه الله تعالى له ، فاصطفاه لكلامه مباشرة و محضه لدعوته، فكان مخلَصا، أي مصطفى ، قال تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ » .[1]

2 ــ نعمة النبوة والرسالة :بأن جعله رسولا عاليا قدره رفيعا شأنه يخبر بالأخبار الجليلة.

3 ــ عطف على نعمة النبوة والرسالة بما يبرز صفة الرحمة التي صدرت بها السورة، « فرحمه بتأنيس وحشته وتأهيل غربته بتلذيذه بالخطاب وإعطائه الكتاب » [2]، فاختصه الله بالنداء المباشر، فقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ ،والنداء هو الكلام الموجه إليه من جانب الله تعالى، كما في قوله: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ .

4 ــ خصه بالتقريب، في قوله :﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ، ومعناه : أدنيناه بتقريب منزلته، فكان التقريب هنا تقريب تشريف وإكرام ، حال كونه مناجيا.[3]

5 ــ ومن مواهب الرحمن للنّجي موسى عليه السلام أن شد إزره بأخيه هارون ، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا(53)﴾ ، فرحمة الله بموسى عليه السلام أن عززه بأخ فصيح اللسان ،وأكمله بالإنباء ليفقه مراده مما يبلغه عن ربه تعالى ، وهذا كله استجابة لدعائه عليه السلام،حين دعا ربه قائلا: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ .[4]

---

1 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير .بتصرف . 126/16 . و انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن . 2313/4 . و بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص 113

2 ــ البقاعي : نظم الدرر . 540/4

3 ــ أبو حيان : البحر المحيط . 199/6 . و الألوسي : روح المعاني . 422/8 . و الشوكاني : فتح القدير . 418/4

4 ــ طه : 28 ــ 34

« ومن لطيف التوافق في هذه القصص الواردة في السورة أنه تعالى ذكر زكريـــا وأنه وهب له يحي ، وذكر مريم وأنه وهب لها عيسى ، وذكر إبراهيم وأنه وهب له إســـحاق ويعقوب ، وذكر موسى وأنه وهب له هارون عليه السلام » .[1]

ثانيا ـ نعم الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام

قـــال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)﴾ .

أراد الله ﷻ أن يعيش إسماعيل الابن البكر لإبراهيم عليه السلام بعيدا عن أبيه في مكة ليكـون جارا لبيت الله تعالى وشريكا لأبيه في بناء الكعبة ، وإنه لجوار أعظم مـــن جـــوار إســـحاق ويعقوب أباهما ، استحق بذلك كمال الاعتناء بالتشريف والرفعة والاستقلال بالذكر عقـــب ذكر أبيه وابنه إسحاق .[2]

وقد وصفه الله ﷻ بالصدق ، فقال :﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ ، واشتهر به وتركـه خلقا كريما في ذريته ، وندرك مدى عظم هذه الصفة لديه عند وفائه لأبيه وقد عزم على ذبحـه لولا أن فداه الله بذبح عظيم[3] ،كما أخبر عن ذلك ﷻ في قوله : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .[4]

---

1 ــ الطباطبائي : تفسير الميزان . 40/14 ــ41

2 ــ الألوسي : روح المعاني . 422/8 . و ابن عاشور : 124/16 ، 129

3 ــ انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير . 124/16 ، 129 . و باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 109

4 ــ الصافات : 102

وتفضل عليه أيضا بالنبوة والرسالة ، وفي هذا زيادة مكانة ورفعة على أخيه إسحاق وابن أخيه يعقوب عليهما السلام اللذين أنعم الله عليهما بنعمة النبوة فقط .

وفي ثنائه تعالى عليه بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ،بيان أن هاتين العبادتين من أهم ما يربط العبد بربه تعالى ويتجلى فيه إخلاص العبادة التي هي رسالة المرسلين عليهم السلام جميعا. ولمكانة الصلاة جاء الأمر الإلهي لنبيّنا ﷺ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ .[1]

وختاما للمناقب السابقة ذكره بصفة هي غاية كل صادق مخلص ،فقال : ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا(55)﴾ ، فرضى الله تعالى أعظم نعمة يسدي بها الله ﷻ على عباده المصطفين، ولعل هذا هو السر في قول زكريا عليه السلام في مناجاته حين طلب الولي ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا(5)﴾ ، «فالرضى سمة من السمات البارزة في هذه السورة وهي شبيهة بسمة الرحمة وبينهما قرابة » .[2]

ثالثا ـ نعم الله تعالى على نبيه إدريس عليه السلام

قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56)وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)﴾.

انتقل سياق السورة بعد ذكر المنعم عليه إسماعيل عليه السلام إلى الكلام عن إدريس عليه السلام[3]،مشيرا إلى ما منّ الله ﷻ به عليه من فضل وإحسان.

---

1 ـ طه : 131

2 ـ سيد قطب : في ظلال القرآن . 2313/4

3 ـ إدريس عليه السلام : اسم علم على جد أبي نوح عليه السلام ، ويسمى في التوراة "أخنوخ" ، واسمه عند اليونان "هرمس"، وقيل اسمه عندهم "طريسمجيسطيس" يعني ثلاثي التعليم ، هو أول نبي بعد آدم عليه السلام . انظر : أبو حيان . البحر المحيط . 199/6 ـ 200 . والزمخشري : الكشاف . 513/2

وإدريس عليه السلام ورد ذكره على سبيل الإشارة في سورتين من سور القرآن الكريم،في هذا الموضع من سورة مريم ،وفي سورة الأنبياء .

ومن لطيف المناسبة أن جاء ذكره في السورتين بعد ذكر إسماعيل عليه السلام ، ففي "الأنبياء" قال ﷻ: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾[1]،أي أثنى عليهم بعظيم الصبر.

فصدق الوعد الذي شرف الله ﷻ به إسماعيل عليه السلام صفة سبيلها تحمل الشدائد والصبر عليها، فلما ذكره بهذا التنويه ناسب المقام ذكر إدريس عليه السلام لاشتراكهما في صفة الصبر .

وبعد أن أثنى الله ﷻ على إدريس عليه السلام بالصدق والنبوة ــ وقد سبق الكلام عنهما ــ ذكر فضله عليه بالمكانة الرفيعة، فقال: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) ﴾، والمكان العلي هنا على مذهب كثير من المفسرين ــ شرف النبوة والمنزلة عند الله تعالى[2]، « لما أوتيه من العلم الذي فاق به على من سلفه » .[3]

---

1 ــ الأنبياء :84

2 ــ وقال جماعة : هو رفع حقيقي إلى السماء الرابعة على ما ورد في حديث الإسراء والمعراج الطويل من رواية مالك بن صعصعة عند أحمد في مسنده . 408/4 ــ ووافقه عليه أصحاب الصحاح ــ : " أن النبي ﷺ التقى بنبي الله إدريس في السماء الرابعة" . وانظر في هذه المسألة : أبو حيان : البحر المحيط . 199/6 ــ 200 . والزمخشري : الكشاف . 513/2 الألوسي : روح المعاني . 423/8 والخازن : لباب التأويل . 202/4 .و النسفي : مدارك التنزيل وحقائق التأويل . دار الكتاب العربي . بيروت (1402هـ ــ 1982م) . 3/ 39 . وابن عاشور : التحرير والتنوير 131/16

3 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 131/16 ــ والعلم يقصد به أنه أول من نظر في علم النجوم ، والحساب ، وأول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل . ويدخل فيه أنه أول نبي مرسل بعد آدم عليهما السلام ، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة . انظر : الزمخشري : الكشاف . 513/2 و أبو حيان: تفسير النهر الماد من البحر المحيط . تقديم وضبط : بوران وهديان الضناوي . مؤسسة الكتب الثقافية ودار الجنان بيروت. ط1 (1407هـ ــ 1987م) . 394/2 . و أبو الحسن الماوردي : النكت والعيون . مراجعة وتعليق : عبد المقصود بن عبد الرحيم . دار الكتب العلمية .ومؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . 378/3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الخامس ـ آثار إخلاص العبادة لله

قال الله ﷻ : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(58)﴾ .

بعد الاستعراض الطويل للسير الجليلة التي اتصف بها المنعم عليهم من الأنبياء عليهم السلام الذين أوردهم السورة ـ ابتداء من قوله تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (1) ﴾ إلى غاية قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)﴾ ـ وإبراز غرض كل قصة، ختم هذا الاستعراض بآية لخص فيها تلك الأغراض البارزة . ونحن نحاول من خلال تدبرها ربط ما تحويه من عناصر بالموضوع الرئيسي للسورة .

فاسم الإشارة في أول الآية يعود على المذكورين سابقا بأنهم كانوا جديرين بنعم الله تعالى التي نلخصها فيما يلي:

1 ـ المعجزات التي أيد الله بها بعضهم لتكون عونا لهم في أداء الرسالة ، و التي جاءت « في سياق تعريف الناس بربهم: أنه هو القادر سبحانه ، الذي لا تقف قدرته عند حد، والذي لا يعجزه شيء في الكون ؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون » .[1]

2 ـ الاصطفاء بالنبوة والرسالة، والمباركة في الأهل والذرية، ورفعة المكانة والشرف في دنياهم وأخراهم، و« هذه النعم تسرد في مقام تعريف الناس بربهم: أنه هو المنعم الوهاب » . [2]

ونسبة النعم لله تعالى في قوله :﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾، دليل على اتصافه بصفات الكمال « التي بها أقام آدم عليه السلام وخلقه من عدم وهم في صلبه ، ونجى بها نوح عليه السلام من الكرب

---

1 ـ محمد قطب : دراسات قرآنية . ص51

2 ـ المصدر السابق

العظيم وهم في ظهره، وإبراهيم عليه السلام وهم في قواه مع إضرام النار وإطفاء السن و إصلاد العظم، وأعلى بها إسرائيل عليه السلام وبنيه في سوط الفراق وامتهان العبودية ،وانتهاك الاهام حتى كان أبناءه معدن الملوك والأنبياء ومحل الأتقياء والأصفياء.[1]

وفي المقابل دل السياق في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ على أن هؤلاء الأنبياء موصوفون بالتوالد والانتقال من طور إلى طور مما يبرز حدوثهم وضعفهم وعجزهم ، وعبوديتهم لله تعالى ، وينفي عنهم صفات الكمال الإلهي .

وفي قوله : ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ دليل على أن الهداية إلى أقوم طريق ـــ طريق عبادة الله وحده ـــ ،والاجتباء ـــ بإسباغ النعم بما يجل عن وصفه ـــ هما من شأن الله وحده القادر على أن يهبهما لمن يشاء من عباده ، فمن رحمته ـــ بما له من صفات الكمال ـــ بأنبيائه والصالحين من ذريتهم أن أنعم عليهم بالهداية والاجتباء .

واستعرض السياق المعلم البارز في حياة هؤلاء الذين أنعم عليهم بعلو المكانة والشرف والهداية والاجتباء ،بقوله تعالى مستأنفا :﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(58) ﴾ فهم من شدة تقواهم لربهم المنعم ، إذا سمعوا آياته تتلى، لا يجدون ما يسعفهم للتعبير عما يخالج مشاعرهم من التأثر، فوصفهم بسرعة الخشوع من ذكر الله الناشئ عن دوام الخضوع ، والناشئ عنه سرعة السجود والبكاء ، تقربا إلى الله وخوفا منه وشوقا إليه .[2]

و في عطف السجود على البكاء بالواو دلالة على عراقة المتحلي بهما في كل منهما على انفراد، « وعبر بالاسم في كل منهما إشارة إلى أن خوفهم وخضوعهم دائمان لعظمة الكبير الجليل ؛ لأن تلك الحضرة لا تغيب عنهم أصلا ، فهم في أعلى درجات الكمال في حضور الفكر للخشوع والخضوع للخالق ﷻ ».[3]

وهذا ما أكده محمد البهي في قوله:« في التعقيب ـــ أي على القصص الست ـــ ما يقطع أن هؤلاء الرسل الذين أنعم الله عليهم بالرسالة قاموا بتبليغ الدعوة إلى وحدة الألوهية

---

1 ـــ البقاعي : نظم الدرر . بتصرف . 543/4 ـــ 544

2 ـــ المصدر السابق : 544/4 ـــ 545 . و سيد قطب : في ظلال القرآن . 2314/4

3 ـــ البقاعي : نظم الدرر . بتصرف . 544/4 ـــ 545

خير مقام ، فهم كانوا من الخضوع لله إذا تليت عليهم آياته في أية رسالة خروا سـجدا وبكيا من فرط إيمانهم وطاعتهم لله جل جلاله » .[1]

واقتران السجود باسم الله " الرحمن " في سياق الآية يدل على اعتراف المنعم عليهم لله تعالى بالرحمانية ، إذ الإيمان بربوبيته لا يتحقق حتى يكون شاملا لكل عناصرها التي تدل عليها صفاته وأسماؤه الحسنى ، ومنها اسمه "الرحمن " الدال على رحمته التي وسعت كل شيء . وهذا في مقابل المشركين الذين أنكروا هذا الاسم لله تعالى، ونفروا من السجود له، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .[2]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 ــ القرآن في مواجهة المادية "تفسير سورة مريم" . ص 6 ــ 7

2 ــ الفرقان : 60

الفصل الثالث

رحمة الله في بشارة المتقين و نذارة الكافرين

المبحث الأول ـ علامات الرحمة في إخلاص العبادة لله وحده

المطلب الأول ـ معالم الغي ومعالم الرشد

المطلب الثاني ـ إقرار الملائكة بربوبية الله تعالى وشمول علمه

المبحث الثاني ـ حقيقة البعث والنشور و موقف الكافرين منه

المطلب الأول ـ إثبات حقيقة البعث والنشور

المطلب الثاني ـ استدراج الكافرين بالنعم الظاهرة

المطلب الثالث ـ تهكم الكافرين بنعم الله واستخفافهم بالبعث

المبحث الثالث ـ تجلي رحمة الله في الوعد والوعيد

المطلب الأول ـ كمال العبد في عبادة الله وحده

المطلب الثاني ـ التشنيع بمن اتخذ لله ولدا

المطلب الثالث ـ "التبشير والإنذار" رسالة القرآن الكريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال الله ﷻ : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا (75) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (76)

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (77) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (78) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (97) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (80) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (81) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (82) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (83) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (84) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (85) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (86) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (87) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (88) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (98) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (90) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (91) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (92) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (93) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (94) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (95) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (96) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (97) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (98) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (99) ﴾ .

توطئة :

بعد أن عرضت السورة في قسمها الأول المنعم عليهم ، ، انتقل السياق إلى بيان حـــال من خلف بعدهم من الضالين الذين بدلوا عقيدة التوحيد الخالصة بعقـــائد الشـــرك و إنكـــار البعث، و شكر نعم الله ورحمته بالكفر والتعنت والظلم . كما قرر السياق مشـــاهد القيامـــة ومصائر البشر فيها .

والسياق في كل ذلك ينتقل « بمشاهده بين الدنيا والآخرة، فإذا هما متصلتان ، تعـــرض المقدمة هنا في الأرض، وتعرض نتيجتها هنالك في العالم الآخر ، فلا تتجاوز المسافة بضع آيـات أو بضع كلمات ، مما يلقي في الحس أن العالمين متصلان مرتبطان متكاملان » .[1]

كما نلاحظ أيضا في هذا القسم من السورة أن السياق يسير دائما في خط مقابلة بـــين المؤمنين "منعم عليهم" ، و ضالين "مغضوب عليهم" و هذا إلى آخر السورة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1 ـــ سيد قطب : في ظلال القرآن . 2317/4

المبحث الأول ـ علامات الرحمة في إخلاص العبادة لله وحده

المطلب الأول ـ معالم الغي ومعالم الرشد

قال الله ﷻ : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)﴾ .

بعد أن ختمت السورة ما تناولته من قصص الأنبياء عليهم السلام وما من الله ﷻ به عليهم من نعمة الهداية والاصطفاء ، فكانوا بذلك نموذجا يحتذى ، نددت بأعقابهم الذين خالفوا سنتهم وحادوا عن طريقتهم .

والمراد بالخلف[1] ـ على رأي ابن عاشور ـ عقب السوء من جميع الأمم التي ضلت ؛ لأنها راجعة في النسب إلى إدريس جد أبي نوح عليهما السلام ، سواء أدلت إليه من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهم العرب ، أو أدلت من نسل يعقوب عليه السلام وهم بنو إسرائيل.[2]

وذكرت السورة وصفين للضلال الذي وقع فيه الخلف:

ـ إضاعة الصلاة بتركها والتفريط في أدائها ،وهذا في مقابل قوله: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾.[3]

---

1 ـ المراد بالخلف ـ بسكون اللام ـ عقب السوء ، بخلاف الخلف ـ بفتح اللام ـ عقب الخير . قال ابن منظور : "لا يكون الخلف ـ بتحريك اللام ـ إلا من الأخيار ، قرنا كان أو ولدا ، ولا يكون الخلف إلا من الأشرار " .لسان العرب 884/2

2 ـ ابن عاشور: التحرير والتنوير . بتصرف . 134/16

3 ـ الرازي : التفسير الكبير . 236/21 . و ابن عاشور : التحرير والتنوير . 134/16

ـــ واتباع الشهوات بعدم مخالفة ما تميل إليه أنفسهم، وهـــذا « في مقابلـــة قولـــه: ﴿وَبُكِيًّا﴾؛لأن بكاءهم يدل على خوفهم،واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم ».[1]

فجاء وصفهم بضد ما وصف به الأنبياء عليهم السلام ،فإذا كان ســـبيلهم الإخـــلاص والخشوع في عبادة الله وحده والخوف من عقابه ،« فلا بد أن يوصف ـــ الخلف ـــ بأقبح مـــا يوصف به العاصي ، وهل هناك أقبح من إضاعة الصلاة واتباع الشـــهوات ، ولذلـــك كـــان الوصفان في مقابل الزكاة والطهارة والعفاف والتقوى والصلاح ».[2]

« وهذان الوصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق ، فالشرك إضاعة للصلاة ؛ لأنـــه انصراف عن الخضوع لله تعالى ، فالمشركون أضاعوا الصلاة تماما ، قال تعـــالى :﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[3]، والشرك : اتباع للشهوات ؛ لأن المشركين اتبعوا عبادة الأصنام لمجرد الشـــهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصودون هنا . وغير المشركين كاليهود والنصارى فرطوا في الصلاة واتبعوا شهوات ابتدعوها ، ويشمل ذلك كله اسم الغي ».[4]

وبين سبحانه وتعالى الخاتمة الوخيمة لإضاعة الصلاة واتباع الشهوات ، فقال:﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، أي :« شرا يتعقب ضلالا عظيما ...ويجوز أن يراد بالغي الهلاك ».[5]

وفي وضع اللفظ "فسوف" في السياق يشير إلى « أن الله ﷻ أمهل هؤلاء القوم ، وأتـــاح لهم الفرصة الكافية كي يعودوا إلى جادة الصـــواب »[6]، كمـــا في قولـــه تعـــالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.[7]

---

1 ـــ الرازي : التفسير الكبير . 236/21

2 ـــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص 123 ـــ 124

3 ـــ المدثر : 42

4 ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 135/16

5 ـــ البقاعي : نظم الدرر . 546/4

6 ـــ باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 117

7 ـــ فاطر :37

وهذا الإمهال رحمة من الله تعالى ، فبالرغم من أن الآية كلها تهديد ووعيد إلا أن جو الرحمة يخيم عليها ؛ لأن رحمة الله لا تتوقف على البشارة فقط بل تمتد لتشمل النذارة أيضا ، فبيان طريق الضلال في حد ذاته رحمة لمن يريد لنفسه النجاة ،فكيف إذا كان مع هذا البيان مهلة تمتد إلى أن يلقى العبد ربه ﷻ .

فمن استفاق من غفلته ، وارعوى عن ضلاله ،وعاد إلى رشده ، فهو مستثنى من لقاء الغي، بقوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) ﴾[1]،والآية حددت معالم الرشد في ثلاثة شروط، هي: التوبة، والإيمان ، والعمل الصالح .فإذا تمكن العبد منها كان من الذين شملتهم رحمته تعالى بالهداية والتوبة.

و« دفعا لما عسى أن يخالج نفوسهم من الانكسار بعد الإيمان بظن أنّ سبق الكفر يحط من حسن مصيرهم »[2]،بين سبحانه وتعالى أنهم يؤتون أجورهم كاملة غير منقوصة ولا يظلمون شيئا .

وهذا وعد من الرحمن ،فكما أنعم عليهم بالتوبة فسينعم عليهم بدخول الجنة،﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)﴾ ،واستعمال اسم الله "الرحمن" مجانس لجو الرحمة في وعده عباده المتقين بجنات عدن وعدا محققا .وهكذا نجد أنفسنا نعيش في مظاهر رحمة الرحمن بعباده ومودته لهم في كل آية مرت معنا ، حتى آية الوعيد الشديد لا تخلو من لمسات رحمته تعالى وعطفه .

ووقع تفريع في سياق الآيات بغرض ذكر بعض مظاهر ما أعده الرحمن لعباده في جنات النعيم لاستجلابهم ودفعهم للسعي أكثر من أجل حظ أوفر، قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)﴾ ، فلما كان « كلام اللغو سببا في الأحزان

---

1 ــ قال تعالى في سورة الفرقان :"وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا "؛ "لأنه أوجز هنا في ذكر المعاصي ، فأوجز في التوبة،وأطال ثمّ فأطال ". الكرماني . أسرار التكرار في القرآن . تحقيق : عبد القادر أحمد عطا . دار بوسلامة للطباعة والنشر . تونس . ص137 . و زكريا الأنصاري : فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن . ص 357 ــ358

2 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 136/16

والفتن في الدنيا ، أراد الله تعالى أن يبين أن أصحاب الجنة لا يعكر صفوهم أو يقلق راحتهم شيء أبدا من كلام السوء ؛ فهم لا يسمعون فيها إلا سلاما،إلا ما يلذ لهم مما فيه السلامة من كل شيء،والسلام يعم كل نعمة وكل خير »[1].

والجمع بين البكرة و العشي «كناية عن استغراق الزمن ، أي لهم رزقهم غير محصور ولا مقدر ، بل كلما شاءوا ؛ فلذلك لم يذكر الليل » .[2]

وفي استئناف السياق بقوله :﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا(63) ﴾ ، تنويه بالجنة وبمن يرثها ، ولم يقع التعبير في الآية بالهبة أو العطية ؛ لأن حق الميراث أكبر من كل حق آخر من هبة أو عطاء ، فالوارث لا يبذل أي عوض أو مشقة في كسب مال موروثه ، والمسلم وإن كان يعمل في الدنيا لينال الجنان ، إلا أن ما يعطيه الله تفضل منه، فلو أن الله تعالى يحاسب الإنسان على ما أنعم به عليه من النعم، لما كانت أعماله في الدنيا كلها في مقابل نعمة واحدة »[3]، ومن إحسان الله تعالى على عباده المتقين أن جعلهم كأنهم أصحاب حقوق بما كانوا يعملون ، والجنة ميراثهم .

فهذا هو الجزاء والميراث الحقيقي للمتقين ، كما قال ﷻ :﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .[4]

---

1 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص 140

2 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 138/16

3 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص 142

4 ــ المومنون : 10،11

المطلب الثاني ـ إقرار الملائكة بربوبية الله تعالى و شمول علمه

قال الله ﷻ :﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(65)﴾ .

إن سبب نزول هذه الآية ـ الذي تناولناه في الفصل الأول[1] ـ لا يحمل أي معنى يربط نزول الآية بسؤال اليهود أو المشركين لا من قريب ولا من بعيد ، فكل ما يحويه هو طلب النبي ﷺ من حبيبه عليه السلام أن يكثر التردد عليه ،قال: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت هذه الآية ».[2]

ولذلك فمحاولة البحث عن مناسبة هذه الآية لما قبلها من خلال سؤال القوم عن الأمور الغائبة فيه بعد ؛ لأن الحديث لم يرد فيه الموقف الذي ورد من أجله سؤال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام . ولعل هذا الذي جعل ابن عاشور يتجنب الكلام في هذه المسألة واكتفى بالإشارة إلى وقت السؤال وإثباته في السورة فقط، قال:« ولا شك أن النبي ﷺ قال ذلك لجبريل عليه السلام عند انتهاء قصص الأنبياء في هذه السورة فأثبتت الآية في الموضع الذي بلغ إليه نزول القرآن » .[3]

وهذا الذي رجحه عزة دروزة ـ من بين عدة وجوه ذكرها ـ فذكر أنه « لما لم يرد شيء موثق عن النبي ﷺ في صدد هذه الآيات فالأولى أن يوقف في هذه المسألة الإيمانية الغيبية وأمثالها عند ما وقف عنده القرآن من دون تزيد ولا تمحل » .[4]

وهذا التوجيه مع سداده و أحوطيته لا ينفي قوة اجتهاد بعض المفسرين

---

1 ـ الفصل الأول . المبحث الثاني . المطلب الثالث " أسباب نزول بعض آيات السورة " . ص36

2 ـ البخاري : الجامع الصحيح. كتاب التفسير . باب (وما نتنزل إلا بأمر ربك) . 1760/4 . ح4454 . كتاب بدء الخلق. باب "ذكر الملائكة ". 1177/3 ح3046 وكتاب التوحيد .باب (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) . 2713/6 ح7017 . والطبري :جامع البيان . 103/16 . و الواحدي: أسباب .ص226 . أخرجوه من عدة طرق عن ابن عباس .

3 ـ التحرير والتنوير . 139/16

4 ـ التفسير الحديث . 57/3

مثل: أبو حيان والبقاعي .

فأبو حيان يرى في مناسبة هذه الآية لما قبلها، « أنه تعالى لما ذكر قصة زكريا ومريم ، وذكر إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ، ثم ذكر أنهم أنعم تعالى عليهم ، وقال :﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾، وكان رسول الله ﷺ من ذرية إبراهيم ، وذكر تعالى أنه خلف بعد هؤلاء خلف ، وهم اليهود والنصارى أصحاب الكتب ؛ لأن غيرهم لا يقال فيهم أضاعوا الصلاة ، وكان اليهود هم سبب سؤال قريش للنبي ﷺ تلك المسائل الثلاث ، وأبطأ الوحي عنه ففرحوا بذلك، وكان ذلك من اتباع شهواتهم ، وهم عالمون بنبوة رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ تنبيها على قصة قريش واليهود ، وختما لقصص أولئك المنعم عليهم لمخاطبة أشرافهم محمدا ﷺ و استعذارا من جبريل عليه السلام للرسول بأن ذلك الإبطاء لم يكن منه إذ لا يتنزل إلا بأمر الله تعالى».[1]

ويرى البقاعي أنه « لما كان العلم واقعا بأن جميع ما في الكهف شارحة لمسألتين من مسائل قريش، وبعض سورة سبحان شارح للثالثة ...جاءت سورة مريم كاشفة ــ تبكيتا لأهل الكتاب الكاتمين للحق ــ عن أغرب من تلك القصص وأقدم زمانا وأعظم شأنا، فثبت بذلك أن هذا كله مرتب لإجابة سؤالهم وأنه كلام الله قطعا ، ولما ثبت مضمون قوله : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ، وأن هذا الكتاب قيم لاعوج فيه ،فعطف عليه بالجواب عن سؤال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام » [2]

ولعل الآيتان استهدفتا بصورة رئيسية ــ فيما ذكره دروزة ــ تقرير الدعوة الربانية في بيئة يتخذ غالب أهلها الملائكة أولياء وأربابا وشركاء قادرين على النفع والضر ، فكان اعتراف الملائكة بحدودهم إزاء العزة الربانية وتقريرهم بإحاطة الله سبحانه وقدرته على كل شيء ، وعدم طروء ما يطرأ على البشر من غفلة ونسيان عليه تأكيد لتلك الدعوة .[1]

---

1 ــ البحر المحيط: وقد ذكر في هذا المقام احتمالات أخرى . 203/6

2 ــ نظم الدرر .بتصرف 546/4

3 ــ التفسير الحديث . 58/3

وإخبار الملائكة بأنهم لا يتنزلون إلا بأمر ربهم جاء معللا بقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ الذي « يفيد إحاطة ملكه تعالى بهم ملكا حقيقيا لا يجري فيه تصرف غيره ، ولا إرادة سواه إلا عن إذن منه ومشيئة »[1]. وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ من تمام ذلك التعليل ، إذ لا ينسى شيئا من ملكه حتى يختل بإهماله أمر التدبير ، فهو دائم الاطلاع على حركاتنا و سكناتنا ،فنحن له في غاية المراقبة .[2]

ومن كان متمكنا من هذه الصفات فهو حق ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ، و الربوبية سبب لعبادته وحده، لذا قال مرتبا ومعقبا بالفاء :﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا (65) ﴾، « فلا يليق أن يعبد إلا من هو رب ، ولا يليق بالرب إلا أن يكون معبودا ومستحقا للعبادة » .[3]

ولهذا فالشطر الأخير من الآية تفريع على صدرها مسوق « لتوحيد العبادة وليس أمرا بالعبادة وأمرا بالثبات عليها وإدامتها إلا من جهة الملازمة »[4]. وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مسوق لنفي الشريك في ربوبيته تعالى ، إذ « المراد بالسمي المشارك في الاسم، والمراد بالاسم هو الرب ؛ لأن مقتضى بيان الآية ثبوت الربوبية المطلقة له تعالى على كل شيء فهو يقول: هل تعلم من اتصف بالربوبية فسمي لذلك ربا حتى تعدل عنه إليه فتعبده دونه » .[5]

ورجح ابن عاشور في معنى السمي : « المسامي والمماثل في شؤونه كلها »[6]، وذكر أنه قد يكون المعنى: « لا تعلم له مماثلا في اسمه "الله" ، فإن المشركين لم يسموا شيئا من أصنامهم "الله" باللام، وإنما يقولون للواحد منها إله ، فانتفاء تسمية غيره من الموجودات العظيمة باسمه

---

1 ــ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن . 82/14 . وانظر : الرازي : التفسير الكبير . 240/21 . و البقاعي : نظم الدرر 549/4

2 ــ الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن . 82/14 .و البقاعي : نظم الدرر 549/4

3 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . بتصرف . ص 148

4 ــ الطبرسي . مجمع البيان في تفسير القرآن . 84/14

5 ــ المصدر السابق . 83/14 ــ 84

6 ــ التحرير والتنوير . 143/16

كناية عن اعتراف الناس بان لا مماثل له في صفة الخالقية ؛ لأن المشركين لم يجترئوا على أن يدعوا لآلهتهم الخالقية ،قال تعالى:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] ، وبذلك يتم كون الجملة تعليلا للأمر بإفراده بالعبادة ».[2]

و قد اشتملت هذه الآية على أصول عظيمة، هي:

ـــ توحيد الربوبية ، وأنه تعالى رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره.

ـــ توحيد الألوهية والعبادة، وأنه تعالى المعبود وحده ، وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بإلغاء قوله فاعبده الدالة على السبب أي فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقا فاعبده .

ـــ الاصطبار على عبادة الله تعالى، وهو جهاد النفس وتدريبها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو : الصبر على الواجبات و المستحبات و الصبر على المحرمات والمكروهات ، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات فإن الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله :﴿ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ ﴾.

ـــ وأن الله تعالى كامل الصفات و الأسماء ، عظيم النعوت جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات .

و دل على هذا أكبر الأدلة على أنه الذي لا تنبغي العبادة الظاهرة والباطنة القلبية والبدنية والمالية إلا لوجهه الكريم خالصة مخلصة كما خلص له الكمال و العظمة ، و الكبرياء و المجد والجلال .

ـــ ومنها بطلان الشرك ، فكيف يليق بالعاقل أن يجعل المخلوق الناقص الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا و لا ضرا و لا موتا ولا حياة ولا نشورا ندا لمن لا كفء ولا سمي ولا مشابه بوجه من الوجوه فهل هذا إلا من السفه والضلال والجهل المفرط و الضرر من كل الوجوه .

---

1 ـــ الزمر : 36

2 ـــ التحرير والتنوير .بتصرف . 143/16

ـــ ودلت على أن الشرك قد تقرر في العقل قبحه وأن التوحيد قـــد تقـــرر في العقـــل حسنه، فكما لاسمي لله فلا أحسن من عبادته وإخلاص العمل له ، و لا أنفع للعبد من ذلك ولا أصلح ولا أزكى.

ومن المقرر شرعا أن الإحسان في عبادة الله تعالى الذي هو سبب كل خير عـــاجل و آجل بل سبب لأعلى المراتب و أكمل الثواب، كما قال النبي ﷺ: « أن تعبد الله كأنك تـــراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1]، فكلما حقق العبد هذا الأمر كان له نصيب وافر من العبادة بـل هو أهم الأمور».[2]

---

1 ـــ أخرجه مسلم : الصحيح . الإيمان . باب "السؤال عن أركان الإسلام". 41/1 ـــ 42 ح12 من حديث ثابت عـــن أنس بن مالك . و ابن خزيمة : الصحيح . كتاب الزكاة . باب" بيان أن إيتاء الزكاة من الإسلام بحكم الأمينين : أمـــين السماء جبريل ، وأمين الأرض محمد النبي ﷺ". تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي . ط2 (1412هـــ ـــ 1992) . 5/4 ح2244

2 ـــ عبد الرحمن السعدي:المواهب الربانية . ص 60 ـــ 61

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني ـ حقيقة البعث والنشور و موقف الكافرين منه

المطلب الأول ـ إثبات حقيقة البعث والنشور

قال الله ﷻ : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾ .

تبدو مناسبة هذه الآيات لما سبقها من عدة وجوه،منها: أنه لما أثبت الله تعالى شمول علمه وتمام قدرته بالبراهين الساطعة في القصص السابقة ، الحد الذي تنكشف معه الشبه وتنتفي موجبات المراء ، « عجب منهم في إنكارهم البعث وهم يشاهدون ما ذكر من قدرته وعلمه »[1]، فعطف متعجبا بقوله: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾.

ويرى الرازي « أنه تعالى لما أمر بالعبادة و المصابرة عليها فكأن سائلا قال هذه العبادات لا منفعة فيها في الدنيا ، وأما في الآخرة فقد أنكرها قوم ، فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أن الاشتغال بالعبادة مفيد فلهذا حكى الله تعالى قول منكري الحشر » .[2]

وذهب بيوض إلى « أن الله تعالى ذكر قبل هذه الآيات وعده للأبرار ، وأنهم يدخلون الجنة و لا يظلمون شيئا ، وذكر وعيد الكفار الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأنهم

---

1 ـ البقاعي : نظم الدرر . 550/4

2 ـ التفسير الكبير . 240/21 ـ 241

سيلقون غيا ، والوعد والوعيد لا يتحققان إلا في الآخرة ، فكان من المناسب جدا أن يقرر عقيدة البعث » .[1]

والذي أراه من خلال تدبر القسم الأول للسورة ، ومن خلال الرؤى السابقة ، أن إخلاص العبادة لله تعالى يتوقف على إعلان ربوبيته المقتضي توحيده وتنزيهه المستدعي للإيمان بالحشر والحساب والثواب والعقاب ، وهذا التلازم في هذه العلاقة يترتب عليه أنه لا ينكر أحد من المخلوقين صفة من صفات الكمال الإلهي ــ وخاصة كمال القدرة ــ إلا وأنكر البعث بعد الممات وما يترتب عليه من ثواب وعقاب.

ولهذا فبعد أن برهن على تفرده بالربوبية وما يترتب عليها من إفاضة النعم على عباده ، وأنه الإله المعبود وحده لا شريك له ، انتقل لبيان فظاعة ما يعتقده الكافرون من إنكار البعث مع ما يدركونه من قدرته تعالى التي لا يحدها شيء.

وأول ما بدأ به حكاية قولهم على وجه الإنكار والاستبعاد ليوم البعث ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) ﴾ ،يقول هذا الكافر في كل زمان ومكان على سبيل المداومة والتجدد ــ كما يفيده لفظ المضارع "يقول" ــ ، وهذا القول مبني على قصور التصور عن إدراك قوة قادرة على إحياء العظام وهي رميم. وقد ورد مثل هذا في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ .[2]

وهذا الإنكار والتعجب ما هو إلا « اعتراض منشأه الغفلة عن نشأته الأولى. فأين كان؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر»[3]، ولما كان ذهن هذا المنكر للبعث محصورا في المستقبل وغفل عن نشأته الأولى،وأنه من سلالة آدم عليه السلام جاء البيان الإلهي بذكر هذه الحقيقة التي تجاهلها هذا الإنسان، فقال :﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) ﴾ .

---

1 ــ في رحاب القرآن "تفسير سورتي مريم وطه" . ص 153

2 ــ يس : 77

3 ــ سيد قطب : في ظلال القرآن . 2317/4

وبتدبر جملة "يذكر" نجدها تستعمل « تنبيها لطيفا لهذا الإنسان الذي يعلم هذه الحقيقة ولا يجهلها،ومع ذلك هو ينساها أو يتناساها . ولو فرض أنه أنصف في التأمل والتدبر لانتهى إلى أن البعث لا يختلف عن خلق الإنسان الذي لم يك شيئا » .[1]

وتبرز معاني رحمة الله بعباده في هاتين الآيتين من خلال تكرار لفظ "الإنسان" الموحي بالمواصفات التي كرمه الله بها وميزه عن باقي الكائنات، والتي على رأسها صفة العقل ، تلك النعمة التي تستدعي الشكر من صاحب الضمير اليقظ والفكر الحي . وقد لاحظ هذه المعاني ذاتها الدكتور باجودة في قوله : «وكان بالإمكان أن يستغني عن اللفظ في الآية الثانية تماما ، ولكنه الكريم المتعالي، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وكرمه وحمله في البر والبحر يكرمه في هذه الآية أيضا . فيشعره بإنسانيته وكرامته والمواهب التي وضعها فيه وخصه بها ، وفي مقدمتها نعمة العقل . فلماذا لا ينتفع بهذه النعمة العظيمة؟ » .[2]

وعلى الرغم من هذا التكريم الإلهي إلا أن الذين اجترءوا بإنكار البعث جحدوا فضل الله ورحمته وكفروا به وأخلدوا للحقارة ، فجاء السياق لتحقيره وبكونه عدما، وذلك بحذف النون « لتناسب العبارة المعتبر فقال:﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أصلا، وإنا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته فلا يتنكر لذلك » .[3]

ولما كان إنكار البعث موجبا للاحتقار، المؤذن بغضب الله تعالى ، جاء القسم الإلهي بالوعيد الشديد لهؤلاء ،فقال:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾ .

وأقسم تعالى باسمه الدال على ربوبيته لكل شيء المضاف لخير البشرية النبي ﷺ تفخيما لشأنه، وتعظيما لأمره ، وإحسانا إليه بالانتقام من أعداءه.[4]

---

1 ــ باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 127

2 ــ المصدر السابق . ص 128

3 ــ البقاعي : نظم الدرر . 550/4

4 ــ انظر: المصدر السابق . و طهماز : التوحيد والتنزيه في سورة مريم . ص 71 ــ 72

وجواب القسم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ يفيد « أن العقاب الذي تشير إليه الآية يتخطى عملية الإخراج التي أنكرها ذلك الإنسان إلى عملية الحشر التالية لها نكاية فيه » [1] . ولانصرافهم عن الحق غير آبهين بالدلائل النيرات ، لم تتوقف النكاية بهم عند حد حشرهم حول جهنم ، بل عطف الشياطين على ضمير المنكرين في قولهم: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ « لقصد تحقيرهم بأنهم يحشرون مع أحقر جنس وأفسده، وللإشارة إلى أن الشياطين هم سبب ضلالهم الموجب لهذه الحالة . فحشرهم مع الشياطين إنذار لهم بأن مصيرهم هو مصير الشياطين » .[2]

ويرى سيد قطب أن السياق « يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، وهي صورة رهيبة وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها ، تشهد هولها ويلفحها حرها ، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها ، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع » .[3]

ثم انتقل السياق إلى تصوير موقف أشد من الجثو ، إنه موقف انتقاء أشد العظماء المتجبرين من كل طائفة ، ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (69)﴾ فإذا اجتمعوا طرحوا في النار على الترتيب . وذكر صفة الرحمن هنا « تلويح أن تمردهم عظيم لكونه تمردا على من شملت رحمته كل شيء وهم لم يلقوا منه إلا الرحمة والتمرد على من هذا شأنه عظيم » .[4]

ورأى ابن عاشور أن ذكرها ــ أي صفة " الرحمان " ــ « لتفظيع عتوهم ؛ لأن شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان لا بالكفر به والطغيان » [5]. وتبرز الآية « أن له سبحانه مع صفة الرحمة التي غمرهم بها صفات أخرى من الجلال والكبرياء والانتقام » .[6]

---

1 ــ باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 130

2 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 147/16

3 ــ في ظلال القرآن . 2317/4

4 ــ الطباطبائي : الميزان . 89/14

5 ــ التحرير والتنوير . 148/16

6 ــ البقاعي : نظم الدرر . 550/4

ولما كان من أغراض السورة إبراز صفات الكمال الإلهي ، وسبق له أن أقسم على كمال قدرته تعالى على البعث ، ألحقه بإثبات صفة شمول علمه ، « فهو أعلم بمن أولى بالنار مقاساة لحرها ،أي إن الأمر في دركات عذابهم ومراتب استحقاقهم لا يشتبه على الله تعالى»[1]،قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (70) ﴾.

ونلاحظ أن هذه الجمل الثلاث عطفت بأداة البعد "ثم"مقرونة بنون العظمة في قوله:"لنحشرنهم" ، "لنحضرنهم"، "لننزعن"، للدالة على بعد تلك المواقف و مراتبها وتصاعدها ، تحذيرا من استبعادهم لهول ذلك المقام وعظمته .

وبعد أن أقسم تعالى على حقيقة البعث وما توعد به المنكرين ، انتقل السياق ليخاطب جميع الناس ابتداء ، مخبرا بحتمية ورود جهنم لكل من المؤمنين والكافرين [2]، وليس معنى الورود هو الوقوع في النار، وإنما القرب على ما تؤكده الدلائل المتعددة كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [3] ، إذا وصل قربه ووقف عند حافته. فالمراد من الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا(71) ﴾ أن المسلمين يمرون على ظهر جهنم ليقارنوا بينها وبين النعيم المقيم ، ويطمئنوا بأعينهم على صدق وعده لهم ، ووعيده للكافرين والمنافقين الذين ضلوا السبيل.وإذا أضفنا إلى ذلك « استنطاق معاني الألفاظ اللغوية في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [4]، وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [5]،ندرك فعلا أن الناس جميعا حتى المسلمين يصلون إلى النار، ففي ذلك متعة ولذة للمسلمين، وغيظ وتعذيب للكافرين ».[6]

---

1 ــ الطباطبائي: الميزان . 89/14

2 ــ اختلف العلماء في تفسير هذه الآية من حيث شمولها للمؤمنين وعدمه . فذهب الجمهور إلى عمومها ، ورأى بعضهم أنها خاصة بالكافرين وهي غير منفصلة عن السياق السابق . من هؤلاء ابن عاشور الذي رجح تخصيصها بالمنكرين . التحرير والتنوير . 149/14 ــ 152

3 ــ القصص : 22

4 ــ آل عمران : 185

5 ــ الأنبياء : 100

6 ــ بيوض:في رحاب القرآن. تفسير سورتي مريم وطه.ص 162 ــ 163

وعلى هذا يرى بيوض أنه « لا يستشكل بكون جهنم تلفح بحرها من بعيد ، ويسمع لها تغيظ وزفير، فقدرة الله صالحة لكل شيء ، وقد أظهر لنا هذه الحقيقة في قصة حرق إبراهيم التي أحرقت كل ما ألقي فيها إلا إبراهيم كانت عليه بردا وسلاما ، فالذي فعل هذا بإبراهيم كذلك يفعل بالمسلمين الذين يردون النار».[1]

وكما أدركنا رحمة الله تعالى بعباده المتقين في ورود جهنم، ندركها أيضا بتأمل آخر آية من هذا المقطع: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)﴾ ، فرحمة الله تعالى تشمل من اتصف بصفة التقوى بمختلف دراجاتها ، « فهذه الآية إذن في الوقت الذي تحذر الناس من أن يظلموا أنفسهم ، تفتح لهم باب الأمل العريض على مصراعيه ».[2]

والتفريق بين قوله تعالى: ﴿ اتَّقَوا ﴾ وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ « يؤذن بترجيح جانب الرحمة، وأن التوحيد هو المنجي ، والإشراك هو المردي ، فكأنه قيل: ثم ننجي من وجد منه تقوى ما هو الاحتراز من الشرك ، ونهلك من اتصف بالظلم أي بالشرك وثبت عليه ، وفي إيقاع ﴿نَذَرُ﴾مقابلا ﴿نُنَجِّي﴾ إشعار بتلك اللطيفة أيضا ».[3]

---

1 — بيوض:في رحاب القرآن. تفسير سورتي مريم وطه.ص 162

2 — باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 134

3 — الألوسي : روح المعاني . 439/8

المطلب الثاني ـ استدراج الكافرين بالنعم الظاهرة

قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (74) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا (75) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (76) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (77) . ﴾

لما ذكر في الآيات السابقة إنكارهم للبعث ، وأجابهم بالحجة القاطعة على وقوعه ، وأشار إلى تبعة ذلك من الخسران المبين في الآخرة ، عطف عليه بفصل آخر من تجرئهم ومعارضتهم لتلك الحجة الدامغة ، وكان سبيلهم في ذلك المقايسة المادية البحتة بينهم وبين أصحاب العقيدة من أتباع النبي ﷺ ؛ لأنهم يتصورون أن مقامهم الرفيع في دنياهم دليل على كرامتهم عند الله تعالى .

فبعد سماع الآيات البينات ـ الواضحة المعاني البالغة الإعجاز الظاهرة الحجة القطعية المصدر ـ ، لم ينتفعوا بحقيقتها مع علمهم بصدقها؛ لأن قلوبهم صدأت فلا تنفذ الآيات إلى اللباب والجوهر .

والناس أمام سماع الآيات البينات فريقان :

ـ فريق يسمعها ويتدبرها وينتفع بها ، وهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم المذكورون في الشطر الأول من السورة .

ـ وفريق يسمعون آيات الرحمن ، « لالتقاط مواطن الضعف ، وتصيد العورات فيه ، وإن لم يجدوا ادعوا دعاوى باطلة، وإن أعجزهم كل هذا لغوا فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] ... فهؤلاء الكافرين لما

---

1 ـ فصلت : 25

بهرتهم الحجة وغشاهم البرهان الساطع ، وأعشى بصائرهم ، و لم يحيروا جوابا ولا ردا راحوا يتلمسون كالعميان كلاما لا شأن له ولا قيمة مطلقا ».[1]

فبدلا من تدبرهم للقرآن ، إذا بهم يعرضون ويحملهم إعراضهم إلى استصغار شأن النبي ﷺ وأصحابه بإقامة مفارقة ترتكز على زاوية المادة التي يؤمنون بها فقط فسألوا:﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) ﴾ ، فكفرهم صور لهم أن منزلتهم الرفيعة بما يملكونه من متاع الحياة الدنيا دليل على أنهم خير عند الله تعالى ، فقيدوا الخيرية بالإنعام في الدنيا، فلو كان المؤمنون على حق لرزقوا رفاهية العيش ومنعوا الضنك . ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ .[2]

ورد الله تعالى على هذا التصور الفاسد والذي قد يغري كثيرا من الغافلين عن الحق،فذكرهم بمصير من سبقهم من الأمم الذين يعتبرون أكثر ثراء وقوة ،قال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) ﴾ .[3]

والحكمة المقصودة منها « هي أنه لو كان الثراء والمال ، وهذا الندي يدل على رضى الله فلماذا أهلك من هو أعلى منكم مقاما ؟ فاعلموا أنكم إذن مخطئون ، تزنون رضى الله وسخطه بميزان لذاتكم ومتاعكم »[4] ، ويقاربه قول الألوسي: « حاصله أن كثيرا ممن كان أعظم نعمة منكم في الدنيا كعاد و ثمود و أضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله تعالى فلو دل حصول نعمة الدنيا للإنسان على كونه مكرما عند الله تعالى وجب أن لا يهلك أحدا من المتنعمين في الدنيا ، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، كأنه قيل أنظر هؤلاء أيضا » .[5]

---

1 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . بتصرف .ص 162 ــ 163

2 ــ الأحقاف : 10

3 ــ رئيا: المنظر والهيئة ، فعل بمعنى مفعول من رأيت ...أو من الري الذي هو النعمة والترفه من قولهم ريان من النعيم ، وأصله من الري ضد العطش ، لأن الري يستعار للتنعم كما يستعار التلهف للتألم . الزمخشري . الكشاف. 521/2 وابن عاشور . التحرير والتنوير . 155/16

4 ــ بيوض: في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . 168

5 ــ روح المعاني . 441/8

فأي قيمة للحياة الدنيا وملذاتها إذا لم يشعر الإنسان بحقيقة وجوده، ومآله إلى العذاب الأليم يوم القيامة، فإن لحظة من عذاب الله تعالى تنسي كل نعيم كان في الدنيا ، وقد أكد حتمية هذه الخاتمة النبي ﷺ فيما يرويه عنه أنس بن مالك ﷺ أنه قال: « ثم يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط ؟ » .[1]

وبعد هذا السياق التعقيبي « لقن الله تعالى رسوله ﷺ كشف مغالطتهم ، فأعلمهم بأن ما هم فيه من نعمة الدنيا إنما هو إمهال من الله إياهم ؛ لأن ملاذ الكافر استدراج »[2]، فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا (75)﴾ .

وهذه الآية « تدل على استمرارهم في الضلالة، لا مجرد تحقق ضلالة ما، وبذلك يتم التهديد بمجاوزتهم بالإمداد والاستدراج الذي هو إضلال بعد إضلال ... فقد أوجب الله على نفسه أن يمده بما منه ضلالته كالزخارف الدنيوية فينصرف بذلك عن الحق حتى يأتيه أمر الله من عذاب أو ساعة بالمفاجأة والمباهتة فيظهر له الحق عند ذلك ولن ينتفع به » .[3]

وهذه الآية تقتضي التمييز بين نعمتين اثنتين لتنبيه المسلمين أن لا يغتروا بإنعام الله على أهل الضلال:

ـ نعمة ناشئة عن رضى الله تعالى على عبده، كما في قوله تعالى:﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .[4]

---

1 ـ أخرجه مسلم : الصحيح . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب "صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة " . 2162/4

2 ـ روح المعاني . 441/8

3 ـ الطباطبائي : الميزان . بتصرف . 441/8

4 ـ النحل : 97

ـــ نعمة الاستدراج لمن كفر به ﷻ وصد عنه، كقوله تعالى:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1]. ومعيار التفرقة بين هاتين النعمتين « هو النظر إلى حال من هو في نعمة بين حال هدى وحال ضلال » .[2]

فإمداد الله تعالى للكافرين بالنعم إمهال لهم وتمهيد لأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فإذا حلن ما توعدهم به فسيعلمون من هو أسعد ممن هو أشقى، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (76)﴾ .

وما وعدوا به من العذاب سواء كان عاجلا في الدنيا أم آجلا في الآخرة، فإن الغرض محقق من الوقوف على عين حقيقة ضلالهم وجرمهم في زمن لا ينفع فيه الندم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ .[3]

والآية انطوت على تحد قاطع من المولى سبحانه وتعالى بأن هؤلاء الذين خولت لهم أنفسهم وشياطينهم أنهم أرفع وأعز، سيكونون شرا مكانا وأضعف جندا. ولهذا ورد قوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ في مقابل قولهم:﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، وفي التعبير بالمكان هنا بدل المقام هناك للمبالغة في إظهار سوء حالهم، وإذا كان افتخارهم بحسن الندي وذلك باجتماع علية القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم، فإنهم سيشاهدون عكس ما كانوا يقدرون فيعلمون حينئذ أنهم " أضعف جندا " وأنصارا .[4]

والذي نلاحظه أن الآيات السابقة من هذا المقطع كلها متعلقة بالحديث عن الذين كفروا وأشركوا، وبيان مآلهم إن بقوا على تلك الطريقة. بعدها مباشرة انتقل السياق لتتمة

---

1 ـــ المومنون : 56، 57

2 ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 155/16

3 ـــ الانعام : 159

4 ـــ انظر . الألوسي : روح المعاني . 442/8 ـــ 443

القسمة بالحديث عن المؤمنين ونصيبهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (77)﴾.

فزيادة الهدى للذين آمنوا جاء في مقابل زيادة الضالين ضلالا في قوله:﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾.

فإذا أمد من كان في الضلالة ليزداد ضلالا وكفرا، كذلك من كان في الهداية يزيد الله تعالى في هدايته ليجمع له خير الدارين. ومدلول الشطر الأول من الآية عند البيضاوي : « أن قصور حظ المؤمن ــ في الدنيا ــ ليس لنقصه بل؛ لأن الله ﷻ أراد به ما هو خير له وعوضه منه » .[1]

والشطر الثاني من الآية ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مسوق « للارتقاء من بشارتهم بالنجاة إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي الباقيات الصالحات خير من السلامة من العذاب التي اقتضاها قوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾، أي فسيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزة هو أقل مما كان عليه المسلمون من الشظف والضعف باعتبار المآلين ، إذ كان مآل الكفرة العذاب ومآل المؤمنين السلامة من العذاب، وبعد فللمؤمنين الثواب » .[2]

---

1 ــ تفسير البيضاوي .دار الفكر .(1402هـ ــ 1982م) . ص411

2 ــ ابن عاشور: التحرير والتنوير . 157/16 ــ 158

المطلب الثالث ــ تهكم الكافرين بنعم الله واستخفافهم بالبعث

قال الله ﷻ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (78) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا (97) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا (80) وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (81) ﴾ .

لما تضمنت الآيات السابقة التهديد بيوم الوعيد لأولئك المنكرين للبعث و متعلقاته ، وكان الموقف يستوجب رجوعهم عن كفرهم ، فلما أصروا على ضلالهم ، وبخهم الله تعالى لأجل ذلك ، فناسب المقام ذكر نموذجا من عنادهم واستهزائهم واستكبارهم كلما تليت عليهم آية بينة .

و هذه الآيات ــ كما سبق وأن ذكرنا[1] ــ نزلت في العاص بن وائل، كما روى ذلك خباب بن الأرت ﷺ قال: « كنت قينا في الجاهلية ، وكان لي على العاص بن وائل دين،فأتيته لأتقاضاه،قال :لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ ،فقلت :لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث،قال:دعني حتى أموت وأبعث ، فسأوتى مالا وولدا فأقضيك ،فنزلت هذه الآيات » .[2]

والذي ينبغي التركيز عليه هو سياق هذا المقطع في سياق آيات السورة ؛ لأن سبب النزول الثابت لا يعني أن هذه الآيات نزلت منفصلة عن بقية السورة ،إذ قد يصح السبب ويتأخر النزول ، علاوة على أن هذا السبب يتوافق ومحتوى الآيات في سياق ما تقدمها وما تأخر عنها .

وكانت البداية بالاستفهام التعجبي للفت الذهن إلى معرفة هذه القصة ابتداء، أو تذكيرا لمن يعلمها،قال :﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾. « ولما كانت رؤية الأشياء سبيلا إلى

---

1 ــ المبحث الثاني.المطلب الثالث " أسباب نزول آيات السورة" . ص37

2 ــ البخاري : الجامع الصحيح. كتاب البيوع .باب "ذكر القين والحداد ". 736/2 ــ 737 . ح1985 . والتفسير باب(أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) . 1761/4 ــ 1762 .ح4455 ، 4456 ،4457 . ومسلم : الصحيح. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب "سؤال اليهود النبي ﷺعن الروح ...." .2153/4 .ح279

الإحاطة بها وصحة الخبر عنها استعمل أرأيت بمعنى أخبر ، والفاء للعطف أفادت التعقيب ؛ كأنه قيل أخبر أيضا بقصة هذا الكافر عقب قصة أولئك ».[1]

وأول ما ألفت إليه السياق هو الانتباه إلى الذي كفر بآيات الله تعالى الباهرة الدالة على عظمته وقدرته على البعث ،والتي حقها أن يقر بها كل من وقف عليها وأدركها.

لكن الحماقة والغفلة والغرور تجعل الحجب تتكثف أمام إدراكه للحق والإيمان به ، فيمضي مثل سالفيه في طريق الغي ، ويتكلم من منطلق ثقة مطلقة بنفسه ـــ تؤكدها نون التأكيد في قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ ـــ بأنه سيؤتى مالا وولدا قياسا منه للآخرة على الدنيا .

وهذه الثقة منه لا تعدو رجما بالغيب لا طريق له إلى العلم ، ولذلك جاء الرد الإلهي بالاستفهام الاستنكاري: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا(97)﴾ ، « ولاختيار هذه الكلمة ـــ أَطَّلَعَ ـــ شأن، يقول: أوقد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار ».[2]

ولاختيار اسم "الرحمن" من أسمائه تعالى أيضا شأن: « لأن استحضار مدلوله أجدر في وفائه بما عهد به من النعمة المزعومة لهذا الكافر ؛ ولأن في ذكر هذا الاسم تورك على المشركين الذين قالوا :" وما الرحمن " ».[3]

وبتأمل ادعاءه بأنه يؤتى مالا وولدا نجده « لا يخلو مستنده فيه من واحد من ثلاثة أشياء :

ـــ أن يكون قد اطلع على الغيب ، وعلم أنه سيؤتى مالا وولدا يوم القيامة مما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ .

ـــ أن يكون الله أعطاه عهدا بذلك ؛ فإنه إن أعطاه عهدا لن يخلفه .

ـــ أن يكون قال ذلك افتراء على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب .

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله : ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ

---

1 ـــ أبو حيان : البحر المحيط . 213/6

2 ـــ الزمخشري : الكشاف . 522/2

3 ـــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 161/16

عَهْدًا ﴾ مبطلا لهما بأداة الإنكار . ولا شك أن كلا من هذين القسمين بـــاطل؛ لأن العـــاص المذكور لم يطلع على الغيب ، و لم يتخذ عهدا . فتعين القسم الثالث وهو أنه قال ذلك افـــتراء على الله » .[1]

ولهذا جاء التبكيت في الآية التالية مصدرة بحرف الزجر والردع، ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (80)﴾ .

وفي استعمال حرف "كلا" « للتنبيه على الخطأ الجسيم الذي هو واقع فيه ، عله يرعوي عن غيه إلى طريق الرشاد »[2]. وفي هذا الإنذار رحمة من الله تعالى للضالين مـــن خلقـــه ، إذ ذكرهم بالرجوع إليه قبل أن يأتي عليهم يوم لا ينفع فيه الندم شيئا .

لكن إذا تمادى في غيه فإن المولى ﷻ توعده بطول العذاب ومضاعفته مكان ما يدعيـــه لنفسه من الإمداد بالمال والبنين ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ ، « وأكد بالمصدر ـــ مَدًّا ـــ إيذانا بفرط غضب الله تعالى عليه لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ».[3]

وختمت الآيات بذكر مصير هذا المتنكر من حقيقته والجاحد لنعمة ربه تعالى، بـــأن الله سيسلبه ما أعطاه في الدنيا من المال والولد بالهلاك ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (81)﴾ .وكـــأن الله ﷻ يقول: « هب أنا أعطيناه ما اشتهاه أما نرثه منه في العاقبة ،ويأتينا فردا غدا بلا مـــال ولا ولد، كقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[4]، فما يجدي عليه تمنيـــه وتأليه».[5]

---

1 ـــ الشبقيطي : أضواء البيان . بتصرف . 277/4 ـــ 278

2 ـــ باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 141

3 ـــ الألوسي : روح المعاني . 447/8

4 ـــ الأنعام: 95

5 ـــ الزمخشري : الكشاف . بتصرف. 523/2

المبحث الثالث ـ تجلي رحمة الله في الوعد والوعيد

المطلب الأول ـ كمال العبد في عبادة الله وحده

قال الله ﷻ : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (82) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (83) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (84) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (85) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (86) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (87) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (88) ﴾ .

بعد أن تناولت الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث وتماديهم في ضلالهم، وما أعده الله لهم جراء كفرهم، انتقل السياق لبيان موقف آخر للمشركين يتعلق بشركهم في ألوهيته تعالى، وكان توبيخهم في هذا الموقف من زاويتين اثنتين : اتخاذهم آلهة دون الله تعالى، واعتقادهم أن لله ولدا.

وعلى الرغم من الآيات البينات التي تؤكد أن العزة لله جميعا، إلا أن المشركين ابتغوا العزة والنصرة عند غيره، ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (82) ﴾ . والاتخاذ الذي يعني الاعتقاد والعبادة « إيماء إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر به الله تعالى » [1]، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ .[2]

وتشير الآية من طرف خفي إلى أن الحق يقتضي تقرير ألوهية الله وحده، وأنه وحده الموصوف بالعزة الكاملة ، التي يلجأ إليها كل من أقر بهذه الحقيقة ،أما أن يتخبط الهلكى في البحث عن النصرة والعزة عند الضعفاء والفقراء و المعدومين الذين لا نفع ولا ضر لهم ، فذاك هو عين الكفر الذي جاءت الآيات لتوبيخه وبيان خسارة أهله .

---

1 ـ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 163/16

2 ـ الصافات : 95

ولما كان طلب العزة صفة مجبولة في النفس البشرية لا تستطيع العيش دونها ،هذا يعني اتصافه بالضعف الذي يستدعي الحاجة إلى قوي يكمل ضعفه ، فكيف به يطلب المنعة والنصرة والعزة عند ضعيف مثله أو ممن أشد ضعفا ؟ فمن سعى في طلب العزة من معدن الذل أذله الله.

فالله تعالى وحده النافع الضار، وهو وحده المعز المذل، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1]، فالعزيز من شد نفسه بحزام العقيدة الصحيحة واعتز بالله الواحد القهار.هذا ما أومأت إليه الآية الأولى﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (82) ﴾ .

وبعدها أعلن الله تعالى في رد قاطع أن لهثهم الخرافي وراء الآلهة لن يدوم، بل سينتهي بمجرد مغادرتهم الحياة وإقبالهم على الله تعالى ،﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (83)﴾ .

ولشد انتباه المتدبر ، وإشعاره بخطورة الموقف استعمل السياق وسائل قوية لذلك ،منها: الحرف "كلا" ، واتجاه الآيات نحو القصر ، للدلالة « على جدية الأمر فلا يمكن إلا أن تنفعل النفس وتتتابع ضربات القلب، وكأن الكلام العنيف القصير لكمات قصار عنيفة أو ضربات متلاحقة توجه إلى كل كافر ومشرك » .[2]

ومن يكفر بعبادة من في هذه الآية ؟ هل المعبودون يكفرون بالعابدين ؟ أم العابدون يكفرون بالمعبودين ؟ «كلا المعنيين مقصود ، فالمشركون أنفسهم يقولون : ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[3]ما عبدنا أحدا غيرك »[4]، إلا أنه غالبا ما يكون الإنكار والتبرؤ يوم القيامة من الذين عبدوا من دون الله تعالى .

و لم يتوقف الأثر المترتب على شركهم عند إعلان معبوديهم براءتهم منهم فقط يوم القيامة ، بل يكونون عليهم ضدا فيزيد ذلك من ذلهم وعذابهم. فالمعبودون العقلاء كالملائكة ،

---

1 ــ النساء : 138

2 ــ باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 142

3 ــ الأنعام : 24

4 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص 178

و الأنبياء كعيسى وأمه،هؤلاء يدفعهم خجلهم من الله تعالى ــ لأنهم عبدوا من دونـــه ــ إلى طلب مضاعفة عذاب هؤلاء المشركين .أما المعبودات غير العاقلة كالتماثيل والصلبان فتجمـــع كلها ويعذب بها عابدوها زيادة لهم في الخزي والتنكيل[1]،كما قال تعـــالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾.[2]

« فليت هؤلاء الذين اتخذوا الآلهة من دون الله كفرت بهم معبوداتهم ، و لم تنفعهم وقـت الشدة فحسب، وإن كانت هذه خسارة كبرى ، ولكن المصيبة الكبرى والعظمى أنها ســتكون عليهم ضدا، فالخسارة إذن من جهتين ، وذلك هو الخسران المبين في الدارين ».[3]

فالإقرار بألوهيته تعالى وحده لا شريك له ، ونبذ ما سواه هو سبيل الرشد الذي يحصـن الإنسان من كيد الشيطان ومكره. و هو ذاته أساس دعوة النبي ﷺ ، وكان « يجيش في نفســه إيغال الكافرين في الضلال جماعات وآحاد »[4]، وعدم استجابتهم لنداء الحق تعـــالى ، فكـــان خطاب الله تعالى له تسلية وتثبيتا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (84) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (85) ﴾.

وفيه « تعجيب للرسول ﷺ مما تضمنته الآيات السابقة ، وحكته عن هـــؤلاء الكفـــرة والمردة العتاة من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل والتمادي في الغي والانهماك في الضـــلال والإفراط في العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيهم ، و الإجمـــاع على مدافعة الحق بعد إيضاحه.والتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائـــهم ؛لا لأن هناك قصورا في التبليغ ».[5]

---

1 ــ انظر : بيوض: في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه.ص 179

2 ــ الأنبياء : 97

3 ــ بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص179

4 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 165/16

5 ــ الألوسي : روح المعاني . باختصار . 450/8

والأز في الآية بمعنى « الهز والاستفزاز الباطني ، مأخوذ من أزيز القدر إذا اشتد غليانه. شبه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم واختلاف أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون ».[1]

ولتجرد الكافرين عن الإيمان بالله تعالى واستجابتهم للشياطين ، كان تخصيص إرسال الشياطين عليهم أكثر من غيرهم؛ لأن الذين استجابوا لله ورسوله لهم قوة وعزة إيمانية تحميهم من مكر الشيطان، إلا إذا غفلوا عن الذكر والتسبيح، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.[2]

ونفهم من التفريع ــ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ ــ على الآية السابقة منزلة النبي ﷺ الرفيعة ومكانته العالية عند ربه تعالى، إذ أكرمه بأن أنزله منزلة الذي هلاكهم بيده، فأرشده بأن لا يضيق صدره بهم ولا يستعجل عليهم العذاب، فيستريح المسلمون من شرورهم و تطهر الأرض بقطع دابرهم[3]؛ « فإنهم ممهولون إلى أجل قريب، وكل شيء من أعمالهم محسوب عليهم ومعدود. والتعبير يصور دقة الحساب تصويرا محسوسا، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾. وإنه لتصوير مرهوب ، فيا ويل من يعد الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه ، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير. إن الذي يحس أن رئيسه في الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان، فكيف بالله المنتقم الجبار ؟ ».[4]

ويرى طهماز أن قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ لا يعني أنه استعجل عذاب المشركين الذين عارضوا دعوة الحق؛ لأن النبي ﷺ ما كان يستعجل عذاب المشركين ، بل يتعجل إيمانهم وهدايتهم لما انطوى على قلبه من الرحمة والرأفة بالآخرين ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً

---

1 ــ الألوسي : روح المعاني . باختصار . 450/8

2 ــ الأعراف : 201

3 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير . 165/16 . و سيد قطب: الظلال . 2320/4 . و باجودة: تأملات في سورة مريم . ص 142

4 ــ سيد قطب . الظلال . 2320/4

لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1]، وكان يتألم عندما يرى إعراضهم وعنادهم[2]، حتى أنزل الله عليه قوله :﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .[3]

ولما اشتد أذى الكفار بالمسلمين طلبوا منه ﷺ أن يدعو عليهم ، فقال:« إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة »[4]

وهذا الذي ذكره طهماز يتماشى والغرض الأساسي للسورة.

كما يبرز مظهر رحمة الله تعالى أيضا في إمهالهم ؛ لأنهم لو تدبروا الأمر بعقولهم في هذه المدة لتبينوا وجه الحق واتبعوه .

ولما ذكر تعالى من أمر المشركين وتعظيمهم لمعبوداتهم دونه ﷻ، و ما سيكون من إنكار تام بهم، تلاه بذكر زمن ذلك ، فقال :﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (86) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (87) ﴾ .

والمتأمل يجد أن الآيتين قسمتا الناس إلى فريقين يوم البعث:

ـــ عريقون في صفة التقوى، وهؤلاء يحشرون وفدا إلى الرحمن ،الذي عودهم الرأفة والحنان وغمرهم برحمته من قبل ، واختصهم بها يوم القيامة. وللفظ "الرحمن"دور في تلطيف هول يوم البعث على المؤمنين ، « إذ لفظ الحشر فيه جمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر ، فجاءت لفظة الرحمن مؤذنة بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم » .[5]

ويدل اسم "الرحمن" أيضا على ما اختصت به هذه السورة من نعم الله تعالى الخاصة بعباده المتقين، كما أبرز ذلك البقاعي حيث ذكر ـــ في مناسبة ورود لفظ "الرحمن" في هذه الآية ـــ أن هذه السورة وردت في سياق عدة سور تناولت جميعها صور النعم ، قال : « لما تقدمت سورة النعم العامة النحل ، و أتبعت سورة النعم الخاصة بالمؤمنين وبعض العامة ، مثل

---

1 ـــ الأنبياء: 106

2 ـــ التوحيد والتنزيه في سورة مريم . بتصرف. ص 80

3 ـــ الكهف : 6

4 ـــ أخرجه مسلم : الصحيح . كتاب البر والصلة والآداب . باب " النهي عن لعن الدواب وغيرها ". عن أبي هريرة 2006/4 . ح 2599

5 ـــ أبو حيان : البحر المحيط . 216/6

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1]، ثم سورتي الخاصة بالصالحين الكهف وهـذه ، قال:﴿ إلى الرحمن﴾ فيدخلهم دار الرضوان ، فذكر الاسم الدال على عموم الرحمة ، وكرره في هذه السورة تكريرا دل على ما فهمته » .[2]

وذكر الوفد هنا لطيفة من لطائف رحمة الله بعباده الصالحين يوم القيامة ؛ لأنها لفظة مشعرة بالكرامة والرفعة ؛ « إذ الوفد يتألف أساسا من سراة الناس وأعيان البلاد، يفدون في أحسن الأشكال وأبهى المناظر على الملوك راغبين في كرامتهم. فهذا هو حال المتقين يوم القيامة » .[3]

ـ وفي مقابل هؤلاء المبجلين المكرمين ذكر ﷻ المجرمين ووصف من حالهم ما يقشعر منه الجلد ويهتز له الفؤاد، حيث يساقون سوق الأنعام التي تهاب زجر الرعاة وسياطهم، فتسير في خوف شديد. و لم يتوقف السياق عند هذا الوصف بل تعداه إلى ما هو أشد فوصفهم بأنهم يساقون وردا إلى جهنم، أي نسوقهم كالأنعام التي ترد الماء ، ولا ترده إلا لعطش، وفي هذا الوصف « تهكم واستخفاف عظيم لاسيما وقد جعل المورد جهنم » .[4]

وسوق المجرمين بهذه الصورة إلى نار جهنم مقام يحتاجون فيه إلى من يشفع لهم عند العزيز الجبار ليخفف عنهم العذاب، فكان التأكيد القاطع بقوله : ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا(88)﴾ ، فالمجرمون لا حظ لهم في الشفاعة، لأنها مقيدة بالعهد المتخذ بين الله وعبده وهم لا عهد لهم عنده ، والعهد هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، و عمل الصالحات دون تقصير في ذلك .

---

1 ـ الإسراء : 70

2 ـ البقاعي : نظم الدرر . 557/4

3 ـ باجودة : تأملات في سورة مريم . ص 145

4 ـ الألوسي: روح المعاني . 451/8 . وانظر : شهاب الدين الخفاجي : حاشية الشهاب المسماة " عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي " . ضبط و تخريج عبد الرزاق المهدي . دار الكتب العلمية .بيروت . ط1 (1417هـ ـ 1997م) . 315/6

و لم يغفل سياق هذه الآية أيضا اسم الله "الرحمن"، الذي يشير إلى أن من يستحق الشفاعة هم الذين اعترفوا لله تعالى بالربوبية المطلقة، وأنه المتفضل عليهم بكل نعمة ومن حقه أن يشكر وتخلص له العبادة .

وتعتبر الآية في مجملها معلما من معالم رحمة الله تعالى بعباده، فهي تفتح للجميع باب الأمل على مصراعيه. فمن أحس في نفسه تقصيرا عليه أن يرعوي إلى طريق الهدى ويسعى ليكون من الذين اتخذوا عند الرحمن عهدا .

المطلب الثاني ـ التشنيع بمن اتخذ لله ولدا

قال الله ﷻ : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (89) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (90) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (91) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (92) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (93) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (94) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (95) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (96) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (97)﴾ .

لما وقع الرد في قصة عيسى عليه السلام على دعوى النصارى واليهود ممن اعتقدوا البنوة لله تعالى وأبطل قولهم في ذلك ، وثنى في قصة إبراهيم عليه السلام بإبطال عبادة الأوثان من غير الله وأنها لا تملك من الأمر شيئا. وبين مصير هؤلاء الذين يضاهئون قول الحق تعالى يوم القيامة، وبقي من الأقسام اعتقاد مشركي العرب في الملائكة غير الحق، فجاءت هذه الآيات شاملة لإبطال كل اعتقاد فاسد وتنزيهه تعالى عن كل صفات النقص .

وأول ما نلاحظه في هذه الآيات هو تكرار اسم "الرحمن" أربع مرات، للدالة على أنه هو وحده المتفرد بهذا الاسم دون سواه ، فهو الغني المنعم على عباده، وكل مخلوق محتاج إلى فضله وإحسانه. ومن كان بهذا الوصف من الجلال والكمال، فكيف يلحقون به صفات النقص فينسبون إليه الصاحبة والولد والشريك،﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (90)﴾ أي منكرا عظيما ثقيلا على

القلب والعقل، والالتفات من الغيبة في الآية السابقة إلى الخطاب في هذه الآية ينبئ عن «كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح ، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة »[1]، ونظيرها قوله تعالى:﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.[2]

ولعظمة هذا الجرم وثقله ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(91) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(92)﴾ ، فالسماوات والأرض والجبال جمادات لا عقل لها ولا حس، ومع ذلك تكاد تشقق وتتهدم من هول و فظاعة ما قالوه، « أما كان الأولى بالإنسان الذي من الله تعالى عليه بنعمة العقل، وخلقه في أحسن تقويم، أن يتفطن إلى الخطأ الشنيع الذي يرتكب، ويكون له رد فعل على أقل تقدير بإقلاعه التام عن قول واعتقاد كهذين، وتوبة نصوح على ما فرط منه في حق الله »ﷻ.[3]

وانفرد ابن المنير برأي نراه وجيها ، فذكر « أن الله سبحانه وتعالى قد استعار لدلالة هذه الأجرام على وجوده ﷻ موصوفا بصفات الكمال الواجبة له سبحانه أن جعلها مسبحة بحمده ، قال تعالى :﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[4]، ومما دلت عليه السماوات والأرض والجبال، بل وكل ذرة من ذراها أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه. فالمعتقد نسبة الولد إليه ﷻقد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله تعالى وتقديسه ، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها إبطال صورها بالهد والانفطار والانشقاق».[5]

وعلى هذا يكاد يكون رد فعلهن عند سماعهن هذه المقولة من فجرة بني آدم إعظاما للرب وإجلالا؛ لأنهن مخلوقات مؤسسات على توحيد الله وتنزيهه .

---

1 ــ الألوسي : روح المعاني . 451/8 .

2 ــ الكهف : 5

3 ــ باجودة : تأملات في سورة مريم .باختصار . ص 145

4 ــ الإسراء : 44

5 ــ الألوسي : روح المعاني . 451/8 .

و الله تعالى أكد وصف نفسه بما أنكروه له من الصفات الذاتية "الرحمن" ليثبت لهم عظيم حلمه عليهم، وأنه وحده الذي يمدهم بأسباب الحياة والرزق، مع تجاسرهم ونسبته إلى ما يتنافى وصفات الكمال، وأصل هذا التقرير قول النبي ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يشرك به، ويجعل له الولد ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم » .[1]

فكل شيء يؤتاه أحد فهو من عطاء الله تعالى ، « فمن أضاف إليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه ، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن » .[2]

ولما أكدت الآيات السابقة شناعة قول المشركين وبينت شدة غضب الرحمن إزاء هؤلاء، تلاها باستحالة اتخاذ الولد على ذاته العلية ، قال:﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا(93)﴾ ، فما يليق بجلاله أن يتخذ ولدا لاقتضائه الجزئية أو المجانسة ؛ ولأن جميع الموجودات غير ذاته تعالى يجب أن تكون مستوية في المخلوقية والمعبودية له. وترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عداه نعمة ومنعم عليه فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها ومبدأ أصولها وفروعها ، فكيف يمكن أن يتخذ ولدا.[3]

وتتميما لتقرير نزاهته عن اتخاذ الولد بين أن أهل السماوات والأرض لا يخرجون عن دائرة العبودية، فهم عبيد لله تعالى وحده ،﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا(94) لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا(95)﴾ .

ما من أحد من الملائكة والثقلين إلا وهو مملوك لله تعالى يأوي إليه بالعبودية والانقياد إلى قضاءه ، فلا ولد ولا صاحبة ولا شريك ، إنما خلق وعبيد ،وإن الكيان البشري يرتجف

---

1 ــ أخرجه البخاري : الجامع الصحيح . كتاب التوحيد . باب " قوله تعالى :« إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» " . 2687/6 ح 6943 . ومسلم : الصحيح . كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .باب " لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل " 2160/4 ح 2804 . وأحمد : المسند . 395/4 ، 401 ، 405 . جميعهم من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى الأشعري به

2 ــ النسفي . 183/4

3 ــ البيضاوي : التفسير " مع حاشية الشهاب " . 319/6 . وابن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير . تحقيق : محمد ابن عبد الرحمن عبد الله . ط1 (1407هـ ــ 1987م) . 265/5 . و الألوسي : روح المعاني . 456/8 ــ 457 . و ابن عاشور: التحرير والتنوير . 172/16

وهو يتصور مدلول الإحصاء والعد بسابق علمه ومشيئته أزلا، قبل أن يخرجهم من العـــدم إلى الوجود ، ولن تقوم الساعة حتى يتم العد ، فلا مجال لهرب أحد ولا لنسيان أحد. [1]

ولتفنيد ما لأجله اتخذوا الله ولدا ، أيسهم من ذلـــك بقولـــه: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا(96) ﴾، فهم يأتون فرادى لا يأنسون ولا يعتزون بأحد ، منقطعـــين إليـــه تعـــالى محتاجين لإعانته ورحمته ﷻ.

« فكل من العابدين والمعبودين يأتون منقطعين ، فينفرد العابدون عن الآلهة التي زعمـــوا أنها أنصار أو شفعاء ، والمعبودون عن الاتباع الذين عبدوهم ، وذلك يقتضي عـــدم النفـــع ، وينتفي بذلك المجانسة لمن بيده ملكوت السماوات والأرض ».[2]

وفي مقابل تلك الوحشة والرهبة التي يحشر فيها الذين أشركوا يوم القيامة ، ظلال ندية من ود الرحمن بعباده المؤمنـــين ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا(97)﴾ ،« وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلـــوب ، وروح رضـــي يلمـــس النفوس. وهو ود يشيع في الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلئ به الكون كلـــه ويفيض » .[3]

فأول ما يقصد به الود محبة الله لهم ورضاه عنهم ، ومن أحبه الله أحاطه بعنايته، وكـــلن آمنا مطمئنا ، وهذا الود يوضع في قلوب المؤمنين من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب الـــتي يكسب بها الناس مودات القلوب ، وإنما هو اختراع ابتداء اختصاص منـــه لأوليائـــه بكرامـــة خاصة،وهذا كله من آثار رحمته تعالى ، ولهذا عنوان الرحمانية في الآية، ومجـــيء لفـــظ الـــود بالتنكير للدلالة على عظمته . [4]

---

1 ــ الألوسي : روح المعاني . 8/ 457 . و سيد قطب : في ضلال القرآن . 2321/4 . وطهماز : التوحيد والتنزيـــه في سورة مريم. ص 86

2 ــ الألوسي: روح المعاني . بتصرف . 456/8 ــ 457

3 ــ سيد قطب : في ضلال القرآن . 2321/4

4 ــ الألوسي : روح المعاني . 8/ 457 . و بيوض : في رحاب القرآن . تفسير سورتي مريم وطه . ص191

ويدل على المعنى المذكور قول النبي ﷺ : « إذا أحب الله تعالى عبدا نادى جبريل إني أحببت فلانا فأحبه فينادي في السماء ، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (97)﴾ ».[1]

وإذا أدركنا الملابسات المحيطة بنزول هذه الآية في السورة ، وما عناه الصحابة في بادئ أمر الدعوة وهم حينئذ ضعفاء أذلاء ، نستطيع الاقتراب أكثر من معنى الآية وما ترمي إليه ، إذ الود الذي وعدهم الله تعالى إياه ،يتعلق أولا بذلك التلاحم الروحي بين المؤمنين الذي لو علمه دعاة المادة لقاتلوهم عليه بالسيوف، ثم بنصرهم على من عاداهم من المشركين ومحالفيهم وإعلاء راية الإسلام. وبإعطائهم ما يسألون من حسنة الدنيا وحسن الخاتمة ، ثم هم في الآخرة يحشرون وفدا إلى الرحمن ــ الذي يقرون له بكل نعمة وفضل أغدق به عليهم في الدنيا ــ متحابين كما نص على ذلك رب العزة تبارك وتعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. [2]

---

1 ــ أخرجه البخاري:الجامع الصحيح.كتاب الأدب باب" المقت من الله تعالى " 2246/5. ح 5632. والترمذي :السنن أبواب تفسير القرآن. باب "ومن سورة مريم ". 378/4 ــ 379 . من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة به . وقال : "حديث حسن صحيح " . ووافقه البخاري. الجامع الصحيح.كتاب الأدب بـاب" المقت من الله تعالى " 2246/5. ح 5632

2 ــ الزخرف : 67

المطلب الثالث – " التبشير والإنذار " رسالة القرآن الكريم

قال الله ﷻ : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (98) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (99)﴾ .

وإيذان بانتهاء السورة، جاء سياق الآيتين الأخيرتين جامعا لما تقدم من دروسها، فإذا كانت الآيات السابقة ابتداء من قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (1)﴾ قد احتوت دلائل اتصافه تعالى بصفات الكمال التي لا يشاركه فيها أحد، وأنه تعالى رب كل شيء المتفرد بالفضل والإنعام على عباده، وأن الناس صنفان أمام هذه الحقيقة ، منهم شاكر لربه تعالى مؤمن به مخلص له في العبادة، ومنهم من كفر وعتا عتوا كبيرا، فإن الآية التي تسبق الخاتمة بينت أن هذه هي رسالة القرآن التي أمر النبي ﷺ بتبليغها، قال:﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (98)﴾ .

فالآيات الكاشفة للحقائق التي ساقتها السورة ما هي إلا جزء من هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى رحمة للعالمين، ومن مظاهر هذه الرحمة أن جعله ميسرا سهل الفهم، بلسان عربي مبين ، وقد أكد هذه الصفة للقرآن الكريم في العديد من الآيات الأخرى منها الآية التي كررها أربع مرات في سورة القمر، وهي قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.[1]

والبشارة والنذارة هي الغرض من وراء هذا التيسير، وهي مهمة المرسلين جميعا، وقد تحققت البشارة هنا للمتقين الذين اعترفوا لله بالربوبية ولأنفسهم بالعبودية والحاجة إليه وحده لا شريك له، وأدوا ما عليهم من شكر النعم التي وهبهم إياها، وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء والرسل المنعم عليهم الذين ذكرت السورة شطرا من قصصهم. وتحققت النذارة للذين أصروا

---

1 – القمر : 17 ، 22 ، 32 ، 40

على الكفر والضلال واتخاذ الشركاء لله في ملكه وتدبيره، وإنكار بعض صفات الله تعالى ، كصفة الرحمانية وصفة القدرة، وهؤلاء هم الذين جحدوا الحق وكفروا بنعم الخالق ﷻ.

ولما كان الإنذار للقوم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ولم يعتبروا بما تقدم من الآيات العظيمة الدالة على قدرته على البعث والنشور، ختم تعالى السورة بما فيه تهديدهم وذلك بتذكيرهم بالأمم التي استأصلها الله ﷻ لجبروتها وتعنتها لتكون لهم قياسا إن كان لديهم حس، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا(99)﴾ .

هكذا صورت الآية مشهد هلاكهم تصويرا بديعا عبر عنه سيد قطب بقوله: « هو مشهد يبدأك بالرجة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق ، وكأنما يأخذ بك إلى وادي الردى، و يقفك إلى مصارع القرون، وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأماني والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع. ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثم، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نأمة، لا حس، لا حركة، لا صوت، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ انظر وتلفت ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ تسمع وأنصت. ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب، وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت » .[1]

و هكذا كانت خاتمة السورة موعظة بليغة؛ لأن الكافرين إذا أيقنوا أنه لابد من فناء الدنيا وزوالها، أدركوا ذلك، وخافوا سوء العاقبة في الآخرة، فكانوا إلى الحذر من الكفر والمعاصي أقرب.

---

1 ــ سيد قطب : في ضلال القرآن . 2322/4

الخـــــــــاتمة

في نهاية هذا البحث يجدر بي أن أختم فصوله الثلاثة بذكر النتائج المتوصل إليها، وذلك في الفقرات الآتية:

ـــ إمكانية دراسة السورة القرآنية دراسة موضوعية، وتحديد الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله، حتى لو كانت السورة طويلة و تحوي دروسا عدة ، فإنها لا تخلو من إطار عام تدور في فلكه الأغراض المتعددة للسورة الواحدة.

ـــ سورة مريم تنتمي إلى السور المكية التي تعالج قضايا العقيدة من زواياها المتعددة، ونزلت في ظرف متميز تمر به الدعوة الإسلامية في مراحلها الأولى، فكانت دروسها علاجا لكثير من الافتراءات و الانحرافات العقدية التي جاءت رسالة الإسلام الخالدة لمعالجتها.

ـــ وبقدر ما كانت مسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم،فهي تبين أن هدفه وغايته من دعوته، هي ذاتها دعوة جميع الأنبياء والرسل الذين سبقوه، و أن الذين وقفوا في وجه دعوة الحق، و تصدوا له ولأصحابه لن يستطيعوا أن يصنعوا شيئا ، فالنصر في نهاية المطاف دائما للحق وأصحابه.

ـــ و تمحورت دروس السورة في مجملها حول صفة الرحمة،وأسبابها،وآثارها. فالرحمة صفة من صفات كمال الله تعالى، فالله عز وجل هو الخالق لهذا الكون ومن فيه، وهذا يستلزم قدرته المطلقة على فعل ما يريد، ولا يكون رحمنا رحيما إلا من اتصف بطلاقة القدرة وشمول العلم، ولهذا عرضت السورة لدلائل قدرته تعالى في خلق يحي عليه السلام من أبوين عجوزين، و خلق عيسى عليه السلام من غير أب، و ما حظي به زكريا ومريم عليهما السلام من الآيات الباهرة الدالة يقينا على قدرته تعالى على إحداث المستغرب، مما يدل على كمال قدرته تعالى.

و اتصافه تعالى بهذه الصفات يقتضي براءته مما ينسبه له الكـــافرون مـــن مشـــركين ، ويهود، ونصارى. فالسورة طافحة بالآيات المثبتة لوحدانيته، والمنفية عنه الشريك، والصاحبـــة، والولد.

والتبشير و الإنذار، والوعد والوعيد في الشطر الأخير من السورة من التحـــدي الـــذي يستلزم قدرته على البعث والحساب.

ـــ كما ركزت السورة على إبراز الأسباب التي من شأنها إذا تحققت في المرء كان أهـلا لرحمة الله تعالى وفضله وإحسانه، فكان التركيز في قصص الأنبياء والرسل الذيـــن ذكـــروا في سورة مريم على الأسباب التي نالوا بها رحمة الله، ووهبهم من فضله ما ابتغوه.

ـــ و في هذا الإطار بيّنت السورة أهم هذه الأسباب: صفة الإقرار الكامل بعبوديتهم لله تعالى، وكمال ربوبيته ، وما يترتب عليه من إخلاص عبادته وحده لا شريك له، فأكدت علـى الصلاة والزكاة ، صفات ثابتة في حياتهم التعبدية.

ـــ كما ركزت السورة على بر الوالدين ، وأنه صفة يتحلى بها من شملتهم رحمته تعـالى ورضوانه. فذكر تعالى أن بر الوالدين من صفات يحي عليه السلام ، و أوصى عبده عيسى عليـه السلام ببر أمه عليهما السلام ، و بر إبراهيم عليه السلام بوالده المشرك جعله يسلك معه ذلـــك الأسلوب الهادئ محاولا إنقاذه من براثن الشرك.

ـــ أما آثار رحمته تعالى فقد أبرزتها السورة في صورة مواهب ونعم متعددة تفضـــل الله تعالى بها على عباده المتقين، في مقدمتها الولد الصالح ، فوهب لزكريا يحي، ولمريم عيســـى، و لإبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، ولموسى أخاه هارون عليهم الصلاة والسلام جميعا.

ـــ كما أن رحمة الله تعالى لم تستثني الأشقياء،بل شملتهم رحمته تعالى في الدنيا بنعمـــــة الحياة ،والرزق، والتمتع بنعمة العقل، أداة التمييز بين الحق والباطل ، و بين لهم سبيل الهدايـــة ، وسبل الغي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــــــــارس

أولا ـ فهرس الآيـــات

ثانيا ـ فهرس الأحـــاديث

ثالثا ـ فهرس المصادر والمراجع

رابعا ـ فهـــرس الموضوعـــات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الآيـــــات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السورة	الآيـــــــات	رقمـــها	الصفحة
البقـــرة	﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾	105	77
	﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾	199	76
آل عمران	﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	33،34	104
	﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	36	31
	﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	37	92
	﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾	39	93،98،99
	﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾	40	110
	﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾	41	95
	﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾	42	105
	﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾	43	105
	﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾	46	116

	﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾	47	110
	﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾	159	97
	﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾	159	97،118
	﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾	185	168
النساء	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾	1	22
	﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾	43	79
	﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾	53	141
	﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	138	179
	﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾	155،156	104
	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾	170	127
	﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾	170	50
المائدة	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾	74	104،124،127

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾	75	104
	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾	79	127
	﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	118،119	124
الأنعام	﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾	24	179
	﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾	86	86
	﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾	95	177
	﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾	159	173

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأعراف	﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾	157	55
	﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾	201	181
التوبة	﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾	61	77
يونس	﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض﴾	68	78،123
هود	﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾	70	140
يوسف	﴿وهو أرحم الراحمين﴾	64	78
إبراهيم	﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾	41	140

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النحـــل	﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾	59 ــ 57	53
	﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾	89	01
	﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	97	172
الإســـراء	﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾	40	53
	﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾	44	185
	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾	70	182
	﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾	109	79
الكهـــف	﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾	5	184

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾	6	181
	﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾	9	49 ، 48
طـــــه	﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾	2	52 ،51
	﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾	34 ــ 28	144
	﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾	131	146
الأنبيـــاء	﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾	27 ــ 26	123
	﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾	50	76
	﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾	84	147
	﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾	89،88	87

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾	89	92 ، 02
	﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	90	110،111
	﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾	97	180
	﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾	010	168
	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	106	78،181
الحج	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾	1	22
المؤمنون	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾	1	23
	﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	10،11	158
	﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	37	54
	﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾	51	110
	﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾	57، 56	173
	﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾	118	23
النور	﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾	2	98
الفرقان	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾	60	150
الشعراء	﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾	84	141

القصص	﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾	22	168
فاطر	﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾	37	156
يس	﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾	77	165
	﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾	81	122
الصافات	﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾	95	178
	﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾	102	145
الزمر	﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾	63	162
فصلت	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾	25	170
الزخرف	﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾	21	141
	﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾	25،26	141

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	﴿ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾	57 ـ 59	54
	﴿الْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾	67	188
الجاثية	﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾	15،16	56
الأحقاف	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾	10	171
القمر	﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	17،22 32، 40	189
التحريم	﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾	12	111
المدثر	﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾	42	156
الانفطار	﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾	06	136
الأعلى	﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾	18،19	55

العلـــق	﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾	5	17
الكوثـر	﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	1	17

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الأحـــاديث والآثـــار

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم التسلسلي	الحديـــث أو الأثـــر	الصفحـــة
1	إذا أحب الله تعالى عبدا نادى جبريل إني أحببت فلانا فأحبه فينادي في السماء ...	187
2	أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك	163
3	أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب هل معك مما جاء به...	43
4	أنزلت بمكة سورة "كَهيعَصَ".	43
5	إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة...	182
6	إلا آية السجدة فهي مدنية.	33
7	بني إسرائيل والكهف،ومريم ،وطه ،والأنبياء هن...	35 ،38، 56
8	تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة	92
9	ثم يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ...	172
10	خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض خطوطا...	31
11	خير نسائها مريم بنت عمران،وخير نسائها خديجة...	31
12	صلى بهم يوم الجمعة الفجر فقرأ بهم...	43

13	صليت خلف ابن عمر الظهر فقرأ بسورة مريم.	39 ــ 38
14	فضل عائشة على النساء كفضل الثريد عن سائر الطعام.	31
15	كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان فسلم أحدهما و لم يسلم الآخر ...	114
16	كنت قينا في الجاهلية ،وكان لي على العاص بن وائل دين...	175،37
17	لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر استخلف سباع بن عرفطة...	42
18	لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه من فراق أصحابه بمكة،منهم :شيبة بن ربيعة...	32
19	ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحي ...	98
20	ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل...	31 ــ 30
21	ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا...	159،36
22	من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدّق بزكريا...	29
23	نزلت سورة مريم بمكة	39
24	لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل...	185
25	يا أُبيّ من قرأ بفاتحة الكتاب أعطي من الأجر...	29

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصـــادر والمراجـــع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رقم	المؤلـــــف	عنوان الكتاب	معلومات التحقيق والنشر
1		المصحف الشريف "برواية حفص عن نافع"	دار الفجر الإسلامي ،دمشق (1406هـــ)
2		المصحف الشريف "برواية ورش عن نافع"	مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (1412)
3	إبراهيم بن بكير ومصطفى بن محمد الشريف ومحمد بن موسى بابا عمي ومصطفى ابن صالح باجو	معجم أعلام الأباضية	نشر جمعية التراث .غرداية .الجزائر (1420هـــ ـــ 1999م)
4	أحمد بن إبراهيم بن عيسى	توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شح قصيدة الإمام ابن القيم	تحقيق : زهير شاويش المكتب الإسلامي . بيروت ط3(1406هـــ)
5	أحمد رحماني	التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا	منشورات جامعة باتنة. الجزائر
6	أحمد عبد الغفور عطار	الديانات و العقائد في مختلف العصور	دون مكان الطبع ط1 (1401هـــ ـــ 1981م)
7	أبو إسحاق إبراهيم بن محمد	تفسير الأسماء الحسنى	تحقيق : أحمد يوسف الدقاق دار الثقافة العربية دمشق (1974م)
8	أطفيش : محمد بن يوسف (1332هـــ)	تيسير التفسير	تحقيق وإخراج : إبراهيم بن محمد طالاي بمساعدة لجنة من الأساتذة المطبعة العربية . غرداية ،ط1 (1421هـــ)

9	الألوسي:أبو الفضل شهاب الدين(1270هـ)	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني	دار الكتب العلمية.بيروت ط1(1415هـ ـ 1994م)
10	الأنصاري : أبو يحي زكريا	فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن	تحقيق : محمد علي الصابوني مكتبة رحاب . الجزائر ط2 (1408هـ ـ 1988م)
11	باجودة : حسن محمد	تأملات في سورة مريم	دار الاعتصام
12		تأملات في سورة الفاتحة	مطبوعات رابطة العالم الإسلامي
13	البخاري:أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل (256هـ)	الجامع الصحيح	تصحيح :مصطفى ديب البغا.دار ابن كثير ودار اليمامة.دمشق ط5 (1993م)
14	البقاعي:برهان الدين أبو الحسن بن عمر (885هـ)	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	دار الكتب العلمية.بيروت ط1(1415هـ ـ1995م)
15	البيضاوي : ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي	تفسير البيضاوي المسمى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل"مع حاشية الخفاجي	ضبطه وخرج أحاديثه وآياته : عبد الرزاق المهدي دار الكتب العلمية . بيروت ط1 (1417هـ ـ 1997م)
		تفسير البيضاوي	دار الفكر (1402هـ ـ 1982م)
16	بيوض : إبراهيم بن عمر (1316هـ ـ 1401هـ)	في رحاب القرآن " تفسير سورتي مريم وطه"	تحرير : عيسى محمد الشيخ بالحاج المطبعة العربية . غرداية . الجزائر ط1(1416هـ ـ 1995م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ت 17	الترمذي : محمد بن عيسى ابن سورة	سنن الترمذي	دار الفكر ط2 (1403هـ ـــ 1983م)
18	ابن تيمية :تقي الدين أحمد ابن عبد الحليم .أبو العباس	التفسير الكبير	تحقيق:د/عبد الرحمن عميره دار الكتب العلمية .بيروت
19		الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح	دار ابن خلدون . الأسكندرية
20		الرسالة القبرصية	عناية : علاء دمج . دار ابن حزم ط3 (1418هـ ـــ 1997م)
ث 21	الثعالبي : عبد الرحمن	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	تحقيق : عمار طالبي . المؤسسة الوطنية للكتاب
ج 22	ابن الجوزي :أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (597هـ)	زاد المسير في علم التفسير	تحقيق:محمد بن عبد الرحمن عبد الله دار الفكر . بيروت ط1 (1407هـ ـــ 1987م)
23		الموضوعات	دار الكتب العلمية .بيروت (1415هـ ـــ1995م)
ح 24	ابن أبي حاتم:محمد بن إدريس الرازي أبو عبد الرحمن (327هـ)	الجرح والتعديل	دار إحياء التراث العربي عناية: عادل مرشد،مؤسسة الرسالة .بيروت ط1(1373هـ ـــ1957م)
25		تفسير القرآن العظيم	تحقيق: أسعد محمد الطيب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

			المكتبة العصرية. صيدا. بيروت ط2(1419هـ ـــ 1999م)
26	حاجي خليفة: مصطفى عبد الله الرومي القسطنطيني الحنفي	كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون	دار الكتب العلمية . بيروت (1413هـ ـــ 1992م)
27	الحاكم : محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري (405هـ)	المستدرك على الصحيحين	تحقيق :مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية .بيروت ط1(1411هـ ـــ 1990م)
		المستدرك على الصحيحين	دار الكتاب العربي . بيروت
28	ابن حبان :محمد بن حبان ابن أحمد أبو حاتم التميمي	الثقـــــات	تحقيق : شرف الدين أحمد . دار الفكر بيروت ط1 (1395هـ ـــ 1975م)
29		المجروحين من الضعفاء والمتروكين	تحقيق : محمد إبراهيم زائد دار الوعي . حلب .ط2 (1402هـ)
30	ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني	تقريب التهذيب	عناية عادل مرشد . مؤسسة الرسالة بيروت . ط1(1416هـ ـــ 1996م)
31		تهذيب التهذيب	دار الفكر . ط1(1404هـ ـــ 1984م)
32		فتح الباري	تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب . دار المعرفة (1379م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

33	أبو حيان : محمد بن يوسف الأندلسي(754هـ)	تفسير البحر المحيط"بهامشه النهر الماد"	دار الفكر ط2(1403هـ ـ 1983م)
34		تفسير النهر الماد	مراجعة وضبط : بوران و هديان الضناوي . دار الجنان . ومؤسسة الكتب الثقافية . بيروت ط1(1407هـ ـ 1987م)
35	الخازن:علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي	لباب التأويل في معاني التأويل	دون معلومات طبع
36	الخالدي : صلاح عبد الفتاح	التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق	دار النفائس. الأردن ط1 (1418هـ ـ 1997م)
37	ابن خزيمة :أبو بكر محمد ابن إسحاق السلمي النيسابوري (311هـ)	الصحيح	تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي المكتب الإسلامي ط2 (1412هـ ـ 1992)
38	الخطيب : عبد الكريم	التفسير القرآني للقرآن	دار الفكر العربي
39	الخفاجي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (1069هـ)	حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي "	ضبطه وخرج أحاديثه وآياته : عبد الرزاق المهدي دار الكتب العلمية . بيروت ، ط1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

40	الداودي :شمس الدين محمد ابن علي بن أحمد (ت 954هـ)	طبقات المفسرين	تحقيق : علي محمد عمر مكتبة وهبة ط1 (1392هـ ـ 1972م)
41	دراز :محمد عبد الله	النبأ العظيم	دار القلم . مطبعة مليجي . القاهرة
42	دروزة : محمد عزة	التفسير الحديث	دار إحياء العربية (1381هـ ـ 1962م)
43		سيرة الرسول	المكتبة العصرية . صيدا . بيروت
44	الذهبي: أبو عبد الله أحمد ابن عثمان	تذكرة الحفاظ	دار إحياء التراث العربي . بيروت
45		سير أعلام النبلاء	تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، و محمد نعيم العرقسرسي مؤسسة الرسالة . بيروت ط9 (1413هـ)
46		ميزان الاعتدال في نقد الرجال	تحقيق :محمد بجاوي دار المعرفة .بيروت
47	الرازي: أبو عبد الله محمد ابن حسين فخر الدين	التفسير الكبير	دار إحياء التراث العربي. بيروت .ط2
48	الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد	المفردات في غريب القرآن	تحقيق : محمد سيد الكيلاني دار المعرفة . بيروت
49	ورحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي	إظهار الحق	تحقيق: عمر الدسوقي منشورات دار الكتب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

50	رفعت فوزي عبد المطلب	الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية	مقال : مجلة رسالة التربية كلية التربية . المدينة المنورة عدد : 02(1397هـ ـ 1977م)
51	الزحيلي : وهبة	التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج	دار الفكر المعاصر . بيروت دار الفكر . دمشق
52	الزركشي :بدر الدين محمد بن عبد الله	البرهان في علوم القرآن	تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم .المكتبة العصرية بيروت
53	الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (538 هـ)	الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل	تحقيق : محمد الصادق قمحاوي مطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر ط/الأخيرة (1392هـ ـ 1972م)
54	أبو زهرة : محمد	محاضرات في النصرانية	شركة الشهاب الجزائر
55	أبو إسحاق :إبراهيم بن محمد	تفسير أسماء الله الحسنى	تحقيق : أحمد بن يوسف الدقاق دار الثقافة العربية . دمشق (1974م)
56	السعدي :عبد الرحمن بن ناصر (1376هـ)	تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان	تحقيق : محمد زهري النجار دار عالم الكتب ط2 (1414هـ ـ 1993م)
57		المواهب الربانية من الآيات القرآنية	عناية : أبو عبد الرحمن سمير الماضي دار رمادي للنشر . السعودية ط2 (1417هـ ـ 1996م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

58	أبو السعود:محمد بن محمد العمادي (951هـ)	إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم	مؤسسة التاريخ العربي .دار التراث العربي. ط2(1411هـ ـ1990م)
59	سيد قطب	التصوير الفني في القرآن	دار الشروق . ط8 (1403هـ ـ 1983م)
60		في ظلال القرآن	دار الشروق ط12(1406هـ ـ 1986م)
61	السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن(911هـ)	الإتقان في علوم القرآن	دار المعرفة .بيروت
62		أسرار ترتيب القرآن	تحقيق :عبد القادر عطا . دار أبو سلامة للطباعة والنشر.تونس
63		اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة	دار المعرفة .بيروت (1403هـ ـ 1983م)
64		الدر المنثور في التفسير بالمأثور" بهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس"	دار المعرفة .بيروت
65	الشاطبي : أبو إسحاق	الموافقات في أصول الأحكام	دار عفان ط1 (1417هـ ـ 1997م)
66	الشعراوي : محمد متولي	قصص الأنبياء	جمع : منشاوي غانم جابر . وضع حواشيها مركز التراث لخدمة السنة دار الكتب العلمية . بيروت
67	الشنقيطي :محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (1339 هـ)	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . الرياض (1403هـ ـ 1983م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

68	الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر (548هـ)	الملل والنحل	تحقيق : محمد سيد كيلاني دار المعرفة . بيروت .(1404هـ)
69	الشوكاني :محمد بن علي ابن محمد (1250هـ)	فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير	ضبط:أحمد عبد السلام دار الكتب العلمية .بيروت ط1(1415هـ ـ 1994م)
70	ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله الكوفي	المصنف	تحقيق كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد . الرياض ط1(1409هـ)
71	الطباطبائي : محمد حسن	الميزان في تفسير القرآن	مؤسسة الأعظمي للمطبوعات بيروت . ط1(1411هـ ـ 1991م)
72	الطبرسي :أبو علي الفضل ابن الحسن	مجمع البيان في تفسير القرآن	تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي. وفضل الله الطباطبائي . دار المعرفة (1986م)
73	الطبري :أبو جعفر محمد ابن جرير (224هـ ـ 310هـ)	جامع البيان في تفسير القرآن	دار المعرفة (1983م)
74		تاريخ الطبري	دار الكتب العلمية ط1 (1407هـ)
75	طنطاوي : محمد السيد	التفسير الوسيط للقرآن الكريم	مطبعة السعادة (1405هـ ـ 1985م)
76	طهماز:عبد الحميد محمود	التوحيد والتنزيه في سورة مريم	دار القلم .دمشق .دار الدار الشامية بيروت
77		الحلال والحرام في سورة المائدة	دار القلم .دمشق .دار العلوم الثقافية بيروت ط1(1407هـ ـ 1987م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

78		سبيل السعادة في سورة طه	دار القلم .دمشق .دار الدار الشامية بيروت ط1(1415هـ ـ 1994م)
79		كلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء	دار القلم .دمشق .دار الدار الشامية بيروت ط1(1415هـ ـ 1994م
80	ابن عاشور:محمد الطاهر	تفسير التحرير والتنوير	الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر(1984م)
81	ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله بن محمد (363هـ ـ 463هـ)	الاستيعاب في أسماء الأصحاب	تحقيق : محمد علي البجاوي دار الجيل . بيروت ط1 (1412هـ)
82	عبد الستار فتح الله سعيد	المدخل إلى التفسير الموضوعي	دار التوزيع والنشر الإسلامية.مصر ط2 (1400هـ ـ 1991م)
83	عبد العزيز إسماعيل صقر	افتراءات النصارى في ضوء القرآن الكريم	مقال . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية . سنة/9 . عدد 23 . (ربيع الأول 1405هـ ـ أغسطس 1994م)
84	ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (546هـ)	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	تحقيق :عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية بيروت ط1(1413هـ ـ 1993م)
85	العقيلي : أبو جعفر محمد ابن عمرو بن موسى	الضعفاء الكبير	تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي دار الكتب العلمية . بيروت ط2(1998م)
86	الغافقي :محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم (619هـ)	لمحات الأنوار و لفحات الأزهار وري الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قارئ القرآن	تحقيق :رفعت فوزي عبد المطلب.دار البشائر الإسلامية ط1(1418هـ ـ 1997م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

87	الغرناطي:أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم الزبير	البرهان في ترتيب سور القرآن	تحقيق :محمد شعباني (1410هـ ـــ 1990م)
88	الغزالي : محمد	خطب الشيخ الغزالي	إعداد : عبد الحميد قطب مكتبة الرحاب الجزائر
89		نحو تفسير موضوعي لسور القرآن	دار بغدادي للطباعة . الرويبة . الجزائر
90	ابن فارس: أبو الحسين أحمد ابن فارس بن زكريا	معجم مقاييس اللغة	تحقيق: عبد السلام محمد هارون دار الفكر (1399هـ ـــ 1979م)
91	الفيروزابادي:مجد الدين محمد بن يعقوب (817هـ)	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز	تحقيق : محمد علي النجار المكتبة العلمية بيروت
92		القاموس المحيط	دار الكتاب العربي . بيروت
93	القاسمي : محمد جمال الدين (1332هـ ـــ 1914م)	محاسن التأويل	تصحيح وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربية ط1(1378هـ ـــ 1959م)
94	القرطبي : أبو عبد الله الأنصاري	الجامع لإحكام القرآن	دار الكتب العلمية .بيروت ط1 (1408هـ ـــ 1988م)
95	ابن القيم : محمد بن أبي بكر بن عبد الله (751هـ)	هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى	الجامعة الإسلامية المدينة المنورة
96	ابن كثير :عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي (774هـ)	تفسير القرآن العظيم	دار الأندلس .بيروت (1416هـ ـــ 1996م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

97		السيرة النبوية	تحقيق:مصطفى عبد الواحد دار الكتاب العربي .بيروت
98		المسيح عيسى ابن مريم	تحقيق : عبد الرحمن حسن محمود المطبعة النموذجية . الحلمية الجديدة
99	المارغني : إبراهيم	النجوم الطوالع على الدرر اللوامع	دون معلومات طبع
100	الماوردي : أبو الحسن علي ابن محمد بن حبيب	النكت والعيون	مراجعة و تعليق : بن عبد المقصود بن عبد الرحيم . دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية . بيروت
101	محمد أحمد صالح	النصرانية من التوحيد إلى التثليث	دار القلم .دمشق . الدار الشامية بيروت ط1 (1413هـ ـ 1992م)
102	محمد البهي	تفسير سورة مريم (القرآن في مواجهة المادية)	مكتبة وهبة . القاهرة
103	محمد علي النجار	لغويات	مقال : مجلة الأزهر عدد رمضان سنة (1377هـ)
104	محمد شلبي إبراهيم شتيوي	عقيدة التثليث عند النصارى نشأتها ، تطورها إبطالها	مقال . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية . سنة/3 . عدد/5 (شوال 1406هـ ـ يوليو 1986م)
105	محمد فؤاد عبد الباقي	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	دار الحديث . القاهرة ط1 (1417هـ ـ 1996م)
106	محمد قطب	دراسات قرآنية	دار الشروق ط6 (1411هـ ـ 1991م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

107	محمد محمود حجازي	الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم	مطبعة المدني . القاهرة (1390هـ ـ 1970م)
108	محمد مصايف	جماعة الديوان في النقد	دار البعث . قسنطينة . الجزائر
109	محمد نويـــهي	الشعر الجاهلي . منهج في الدراسة وتقويمه	الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة
110	المراغي : أحمد مصطفى	تفسير المراغي	دار الفكر (1971م)
111	مسلم : أبو الحسن مسلم ابن الحجاج	صحيح مسلم	تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي دار الكتاب المصري . دار الكتاب اللبناني
112	مصطفى مسلم	مباحث في التفسير الموضوعي	دار القلم . دمشق ط2 (1418هـ ـ 1997م)
113	ابن منظور : محمد بن مكرم الإفريقي ، ثم المصري ، جمال الدين أبو الفضل	لسان العرب المحيط	إعداد وتصنيف : يوسف الخياط دار الجيل،دار لسان العرب. بيروت (1408هـ ـ 1988م)
114	المودودي : أبو الأعلى	تفهيم القرآن	تعريب أحمد إدريس ط2(1981م)
115	النحاس : أبو جعفر أحمد ابن محمد بن إسماعيل	الناسخ والمنسوخ	تحقيق : سليمان بن إبراهيم اللاحم مؤسسة الرسالة . ط1(1412هـ ـ 1991م)
116	النسفي : أبو البركات عبد الله	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	دار الكتاب العربي .بيروت (1402هـ ـ 1982م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

117	ابن هشام: عبد الملك أبو محمد (218هـ)	السيرة النبوية	تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي دار إحياء التراث العربي . بيروت
118	الهواري : هود بن محكم	تفسير كتاب الله العزيز	تحقيق : بالحاج بن سعيد شريفي دار الغرب الإسلامي . بيروت ط1 (1990م)
119	الواحدي : أبو الحسن علي ابن أحمد النيسابوري	أسباب النزول	دار المعرفة . بيروت
120	أبو يعلى الموصلي : أحمد ابن علي بن المثنى التميمي	المسند	تحقيق : حسين سليم أسد دار الثقافة العربية.دمشق ط2(1412هـ ـــ 1992م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الموضوعـــــات

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
المقدمة.....	01
التمهيد.....	11
أولا ــ مفهوم التفسير الموضوعي :	11
ثانيا ــ ألوان التفسير الموضوعي :	13
1 ــ التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني:	13
2 ــ التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:	14
3 ــ التفسير الموضوعي للسورة القرآنية:	14
مفهوم الوحدة الموضوعية:	15
مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم :	15
الفرق بين الوحدة الموضوعية والوحدة الفنية والعضوية.....	16
الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية :	16
منهج البحث في الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية :	20
أولا ــ مدخل للسورة :	20
ثانيا ــ التعرف على الموضوع الأساسي للسورة :	21

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا ــ تقسيم السورة إلى مقاطع :	23
رابعا ــ ربط أهداف المقاطع بالموضوع العام للسورة :	24
الفصـــــل الأول : التعريـــف بســـورة مـــريـــم	26
المبحث الأول ــ موقع السورة في القرآن وفضلها	25
المطلب الأول ــ ترتيب السورة وعدد آياتها.....	26
أولا ــ ترتيب السورة :	26
ثانيا ــ عدد آيات السورة:	26
ا ــ الاختلاف في عدد آيات السورة إجمالا:	27
ب ــ الاختلاف في عدد آيات السورة تفصيلا:	27
المطلب الثاني ــ فضل السورة.....	29
فضل مريم عليها السلام:	30
المبحث الثاني ــ نزول السورة.....	32
المطلب الأول ــ مكان نزول السورة.....	32
المطلب الثاني ــ زمان نزول السورة.....	35
المطلب الثالث ــ أسباب نزول بعض آيات السورة.....	36

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث ــ موضوع السورة.....	38
المطلب الأول ــ أسماء السورة.....	38
أولا ــ تسميتها بمريم :	38
وجه تسميتها :	39
ثانيا ــ تسميتها بـــ" كهيعص " :	42
ثالثا ــ تسميتها بـــالمواهب.....	45
المطلب الثاني ــ مناسبة السورة لما قبلها وبعدها.....	47
أولا ــ مناسبتها لسورة الكهف :	47
ثانيا ــ مناسبتها لسورة طه :	50
المطلب الثالث ــ ملابسات نزول السورة.....	53
المطلب الرابع ــ نظرة المفسرين لموضوع السورة.....	58
الفريق الأول : القائلون أن التوحيد هو موضوع السورة.....	58
أولا ــ فخر الدين الرازي:	59
ثانيا ــ الإمام ابن تيمية :	59
ثالثا ــ الفيروزابادي:	60
رابعا ــ الطباطبائي:	61
خامسا ــ محمد الطاهر بن عاشور :	62

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سادسا ــ سيد قطب :	63
سابعا ــ محمد البهي :	64
ثامنا ــ عبد الحميد محمود طهماز:	65
الفريق الثاني : القائلون أن موضوع السورة إثبات اتصافه بشمول الرحمة	66
أولا ــ الإمام البيضاوي	66
ثانيا ــ الإمام البقاعي	67
ثالثا ــ عبد الرحمن السعدي:	69
رابعا ــ محمد الغزالي :	69
خامسا ــ رفعت فوزي عبد المطلب	71
المطلب الخامس ــ تحديد موضوع السورة من خلال مطلع السورة	73
أولا ــ حروف الهجاء في مطلع السورة :	73
ثانيا ــ دلالة آية المطلع على موضوع السورة	76
الفصل الثاني ــ مظاهر رحمة الله لخواص عباده وأسبابها	82
المبحث الأول ــ مواهب الله تعالى لعبده زكريا عليه السلام.....	86
توطئة	87
المطلب الأول ــ زكريا عليه السلام أنموذج لكمال العبودية	88

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني ــ صفات الرضا في يحي عليه السلام	96
المبحث الثاني ــ آية الله ورحمته في عيسى	101
توطئـــــــة.....	103
المطلب الأول ــ تمام قدرة الله تعالى في ولادة عيسى عليه السلام	105
المطلب الثاني ــ اعتراف عيسى عليه السلام لنفسه بالعبودية و لربه بكمال *الإنعام*.....	116
المطلب الثالث ــ تقرير ربوبية الله تعالى وتنزهه عن الولد.....	120
المبحث الثالث ــ أسباب نيل رحمة الله تعالى.....	130
توطئـــــــة	131
المطلب الأول ــ حكمة إبراهيم عليه السلام في التوجيه إلى ضرورة نبذ الشرك.....	133
المطلب الثاني ــ مقابلة آزر نعمة التوحيد بالكفر والعناد.....	136
المطلب الثالث ــ مواهب الله تعالى لعبده إبراهيم عليه السلام	138
المطلب الرابع ــ نعم الله تعالى على عباده موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.....	143
أولا ــ نعم الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام	143
ثانيا ــ نعم الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام	145
ثالثا ــ نعم الله تعالى على نبيه إدريس عليه السلام.....	146
المطلب الخامس ــ آثار إخلاص العبادة لله وحده.....	148
الفصل الثالث ــ رحمة الله في بشارة المتقين ونذارة الكافرين	151

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئـــــة	154
المبحث الأول ــ علامات الرحمة في إخلاص العبادة لله وحده.....	155
المطلب الأول ــ معالم الغي ومعالم الرشد	155
المطلب الثاني ــ إقرار الملائكة بربوبية الله تعالى وشمول علمه	159
المبحث الثاني ــ حقيقة البعث والنشور و موقف الكافرين منه	164
المطلب الأول ــ إثبات حقيقة البعث والنشور.....	164
المطلب الثاني ــ استدراج الكافرين بالنعم الظاهرة	170
المطلب الثالث ــ تهكم الكافرين بنعم الله واستخفافهم بالبعث	175
المبحث الثالث ــ تجلي رحمة الله في الوعد والوعيد	178
المطلب الأول ــ كمال العبد في عبادة الله وحده	178
المطلب الثاني ــ التشنيع بمن اتخذ لله ولدا	184
المطلب الثالث ــ "التبشير والإنذار" رسالة القرآن الكريم	189
الخاتمـــــــــــة.....	191
الفهـــــــــــارس	194
أولا ــ فهرس الآيـــات	195
ثانيا ــ فهرس الأحـــاديث.....	205
ثالثا ــ فهرس المصادر و المراجع.....	207

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا ـ فهـــرس الموضوعـــات.....	221

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية